ثم راحت
سنابل القمح
تقطر دما !

« أريد أن أرى أسبانيا »

رغبة متواضعة قالها طفل صغير لوالده القائد الكبير ولكن الأب مشغول بشئ آخر . وفجأة قرر الأب أن يجيبه إلى طلبه . وأخـــذ ابنه إلى معبد الإله « بعل » . وطلب من الكاهنة أن تحرق البخور . وتنفخ فى المزامير ثم تقدم وابنه وراءه وهو يقول : ستسافر إلى اسبانيا .. ولكن بشرط . وقال الابن الصغير : أوافق على الشرط . وبسرعة قال الأب : أن تقسم بالإله أن تطارد الرومان فى كل مكان . فى البر والبحر !

وأقسم الابن أن يفعل ذلك ، واستراح الأب ، وخرج الإثنان من المعبد وسافر الابن الصغير واسمه هانيبال من مدينة قرطاجة فى تونس إلى مدينة قرطاجنة فى اسبانيا . وكان فى التاسعة من عمره .

أما الأب فهو قائد كبير لقوات قرطاجة ، وكانوا يلقبونه بالبرق ، ويسمون ابنه الصغير بالرعد .

وبرحلة هانيبال إلى اسبانيا تبدأ رحلة أعظم كاره عرفه التاريخ ، فلم يحدث أن نذر إنسان نفسه لكراهية الرومان ومحاربتهم مادام حيا ، فقد استولت روما على كل ممتلكات قرطاجة فى البحر المتوسط وانتزعت منهم جزر كورسيكا وصقلية وسردينيا .. ثم سحبت منهم السفن التجارية أيضا ولكن ما تزال روما تغار من قرطاجة التى كانت تفخر فى يوم من الأيام بأنه لا يستطيع أى رومانى أن يغسل يديه فى البحر الأبيض دون اذن مكتوب !

وعلى الجندى الصغير هانيبال أن ينتقم لأهله من هؤلاء الرومان وأن يعيد لهم ما أخذه الرومان .. وأن يقيم قرطاجة على العرش الذهبى الذى تأملت عليه مئات السنين ..

وتمضى السنوات وهانيبال يعيش فى معسكرات الجنود ، ومن مفاخر هانيبال أنه لم ينم فى بيت قط . وإنما عاش فى القلاع والخيام طول حياته ، ولما قتل زوج أخته واسمه الأسد أو « الأسد الرئبال » .. تولى هو قيادة الجيوش وكان فى الخامسة والعشرين من عمره ، ولم يستطع قائد فى تاريخ الحروب أن يجمع هذا العدد الهائل من الجنود من لغات وألوان مختلفة ، كما فعل هانيبال لقد حشد تسعين ألفا من المشاة وعشرين ألفا من الفرسان وثلاثين فيلا ، وفى نفس الوقت كان يعقد المعاهدات مع القبائل المجاورة فى فرنسا وفى أسبانيا ، وترك لأخيه واسمه الأسد حامية فى المؤخرة .

وفى شتاء ٢١٩ ق.م قرر هانيبال أن يتحرك ، وعاد إليه الجواسيس الذين برع فى إخفائهم يؤكدون له أن الرومان لا يعرفون وجهة نظره ، ولكى يخفى خطته احتل هانيبال إحدى المدن الأسبانية ثمانية أشهر حتى قتل الناس أنفسهم خوفا من أن يقعوا أسرى . وكان هانيبال حريصا على أن يستولى على طعامهم وملابسهم . ولكن إذا عرف أن من بينهم قائدا أو رجل دين فإنه يصر على دفنه مع عظيم الاحترام .

وتحركت قوات هانيبال ، فعبرت جبال البيرانيز بعد معارك عنيفة مع القبائل الفرنسية ، ثم وقف هانيبال أمام نهر الرون ، النهر واسع متدفق استولى هانيبال على الزوارق وصنع منها مئات لجنوده وللفيلة أيضا . ثم افتعل معركة لا ضرورة لها وقتل من أعدائه عشرة آلاف ، ثم وضع جثث أعدائه وسد بهم النهر ، وعبر بقواته فوقهم .

أما كيف انهزم أعداؤه وهم كثيرون فقد أطلق عليهم الفيلة ، ولم يكن أحد قد رأى هذا الحيوان العجيب من قبل !

وكان من عادة هانيبال أن يستمع إلى رأى قواده فى سير القتال ، قال واحد : أنت أعظم قائد عرفناه ، وقال ثان : أنت أعظم قائد عرفه التاريخ ، وقال ثالث : إن الإله قد حل فى جسدك .. وقال رابع : : بصراحة .. أنت تعرف كيف تنتصر ، ولكنك لا تعرف كيف تستفيد من النصر ! .

فقال له هانيبال : صدقت !

ثم أمر بقتله .. وأمر أن تقام له جنازة فخمة ، وأن يدفن مع عظيم الإحترام ! .

وأدرك الرومان بوضوح أن هانيبال لا يريد إلا روما ، وأنه قرر أن يغزو إيطاليا من الشمال ، وانه اختار أصعب الطرق ، ولا أحد يعرف الآن كيف وأين استطاع هانيبال بقواته الهائلة أن يعبر جبال الألب ، ويقال أنه نفذ من ممر سان برنار ، وكان ضيقا جدا فى ذلك الوقت ، ويقال أنه صعد بقواته فوق الجبال ورأى أنواعا عجيبة من العواصف الجليدية والانهيارات الثلجية حتى مات نصف جنوده ، وماتت كل الفيلة من الجوع والبرد .. فهى حيوانات تعيش على العشب الذى لا وجود له ، وعلى الحرارة التى امتصتها السحب .

أما أعداؤه فقد اتخذوا خطة شريرة للقضاء عليه . فكانوا يتحصنون بالتلال والجبال نهارا أما فى الليل فيهربون ويعودون إلى الوديان وكانت الخطة هى إرهاق خيول هانيبال فى الصعود والهبوط ، ونجحوا فى ذلك .. ولكن جواسيس هانيبال اكتشفوا الحقيقة فكانوا يضربون هذه القوات عند الفجر وهى صاعدة إلى قمة الجبال .

وعلى الرغم من أن هانيبال قد ملأ الدنيا فزعا فإنه كان يعامل الأسرى

برفق فقد كان يوافق على تبادل الأسرى ، أما الأسرى الذين لا بديل لهم فكان يبيعهم بمائتى جنيه .. أما الرومان فكانوا يدحرجون له رؤوس ضباطه من فوق التلال .. أما هو فكان يدفن الرؤوس فى جنازة مهيبة ويسمح لجنوده بالبكاء والعويل على قادتهم .. وكان يفضل الأسرى الأحياء.. وكان يقتل الجنود .. أما الضباط فيتركهم لجنوده لكى يقتلوهم ويدفنوهم ويصلوا عليهم مع عظيم الإحترام !

وعندما علم من جواسيسه أن الجنود الرومان قد ثاروا على قائدهم لأنه لم يشأ أن يشتبك معـــه فى معركة ضحك هانيبال قائلا : انهم مغفلون وأن قائدهم أذكى منهم ! .

فقد نجح الرومان فى تدويخ هانيبال واستنزافه ..

ولكن مجلس الشيوخ فى روما قد هاجم القائد الرومانى الذى يختفى بجنوده فى السحاب .. أو الذى يرتفع بجنوده إلى القمم حتى لا يكون طريق صعود أرواحهم إلى السماء صعبا !

وكان هانيبال يقول : هؤلاء الشيوخ لا يفهمون الحرب .. ولا يعرفون كم عانيت من هذه الخطة .. خطة عدم المواجهة !

وانتهت مرحلة عبور جبال الألب .. وفوجئ الرومان بأن القائد « الرعد » ابن « البرق » قد نفذ بجلده من الجبال الشاهقة ومن الجليد .. ونزلت قوات هانيبال إلى الوديان الدافئة .. فالأرض واسعة والأعشاب والثمار والأزهار فى كل مكان .. ولم يبق من جيش هانيبال سوى نصفه تماما ، طلب الجنود أن يستريحوا ، ووافق هانيبال ، ولكنه بعث بجواسيسه وراء قوات العدو ، عادوا يقولون أن مدينة روما محصنة تماما .. أسوارها عالية ، وتلالهـا تحيط بها من كل مكان ، وهناك جيوش والشعب الرومانى قد استعد لهذا اللقاء .. ومجلس الشيوخ يطالب بهانيبال حيا ..

وطلب هانيبال من الدليل أن يقود قواته إلى قريه اسمها كازينوم ، وأخطأ الدليل فى سماع هذا الاسم ، فتقدم قوات هانيبال إلى قرية اسمها كازيلينوم ، ولابد أن هانيبال لم يحسن نطق الكلمة ، هذه الغلطة كلفته ألف رجل من رجاله ، فقد وقعوا فى مصيدة أقامها الرومان ، ولكن هانيبال انتصر على أعدائه أيضا .

وأدرك هانيبال أنه أمام أمرين : إما أن ينتصر وإما أن يموت . فهو الآن وحده فى إيطاليا ، بعيد عن قرطاجة فى أفريقيا .. وبعيد عن قرطاحنة فى اسبانيا ، ليس له أسطول ، ولا أحد يمده بالمال والعتاد أو الرجال ، وحده تماما فى شمال إيطاليا . وعليه أن يحرص على ماله وطعامه وعتاده ، وقد وصفه الجنود بالبخل ، ولكنه معذور ، فقدراته محدودة ، وهذه القدرات لها صفة واحدة : إنها قابلة للنقص فى كل لحظة !

ولم يحدث فى التاريخ أن انعزل قائد برجاله كما حدث لهانيبال ، ولذلك كان هانيبال يقول : إننى وحدى مع القدر وحده ،وانى لاأحارب الرومان فقط وإنما أحارب إله الحرب نفسه ! .

وإذا كان القائد قليل العدد ، فى استطاعته أن يقهر من هو أقوى منه إذا لجأ إلى الحيلة ، واهتدى إلى فكرة ، لقد أتى هانيبال بمائة بقرة ولف القماش على قرونها ، وأشعل فيها النار ليلا وانطلقت الأبقار فى حقول القمح .. وفوجئ الرومان بالنيران تجرى فى كل الاتجاهات . . وبعيدان القمح تشتعل .. وعندما وصلت النيران إلى قرون الأبقار أصيبت بالجنون وانطلقت فى حالة من الرعب والفزع وسط قوات العدو .. وهرب الرومان ليلا .. وعندما طلع النهار عرفوا الحيلة .. هذه الحيلة التى اهتدى إليها هانيبال قد جربها من قبل شمشون الجبار فى القرن الحادى عشر قبل الميلاد فى مدينة غزه ، عندما آتى بثلاثمائة فأر وربط ذيولها بعضها إلى بعض وأشعل فيها النار وأطلقها فى حقول القمح فأحرقها كلها !

وعادت القوات الرومانية تواجه جيشا من الأسبان والبدو وبعض القبائل التى انضمت إلى هانبيال ، جيش هانبيال مرهق جائع بائس . . لا أمل له فى تحقيق أى نصر . . أو الوصول إلى ميناء . .

ومن فوق التلال رأى هانبيال مدينة روما ، ولم يدخلها ، فقد جاءه من يحمل رسالة مفزعة ، فقد تحرك الرومان ناحية قرطاجنة يريدون احتلالها وعلم أن التجار والحكومة فى قرطاجنة قد أنفقوا ضده . واتهموه بأنه مجنون ، وأنه ضلل الشعب ، وبدد أموالهم مع أن أحدا لم يدفع له شيئا وأنه لابد أن يعود . .

ولاأحد يعرف بالضبط كيف عاد هانيبال ، أو كيف هرب ، ويقال أن هانيبال قد عاقب نفسه بأن عاد من نفس الطريق الذى سار فيه جيشه وقرر أن يقطعه ماشيا ، ويقال أن لحيته طالت ، وأن أظافره أيضا ، ولكن العملات التى عثر عليها العلماء بعد ذلك تؤكد أن هانيبال كان حريصا على أن يبدو انيقا نظيفا مهما كانت الظروف ، وكان ينصح ضباطه بأن يستحموا دائما : إذا لم يجدوا الماء فليستحموا فى دماء أعدائهم ، فالجندى يجب أن يرى رئيسه قطعة من السماء . . !

وانتهت رحلة هانيبال الدامية فى أوروبا التى استغرقت ١٥ عاما يطارد فيها الرومان ، ويفى بالوعد الذى أعلنه أمام والده وأمام الإله بعل .

وقبل أن يصل هانيبال إلى قرطاجة كان الرومان قد طلبوا رأسه فهرب إلى سوريا ، وأخفاه الملك انتيوخوس فى إحدى القلاع ، وطلب الرومان برأسه ، ولكن هانيبال قرر أن يعاود الحرب ضد روما ، ثم هرب مرة ثانية ، وطالب الرومان برأسه ، ثم هرب . .

ومن الغريب أن هانيبال هذا قد علم نفسه اللغة اليونانية والأسبانية واللاتينية أيضا ، وكانت له مؤلفات لم تصلنا ، ولكن ضاعت فى الطريق

ولا يذكر التاريخ إلا بعض العبارات أو القصائد التي حفظها جنوده ، وإن كان المؤرخون الرومان قد أدخروا له أسوأ الصفات ــ وهذا طبيعي !

ولكن الوثائق الرسمية لمعارك هانيبال تسجل عليه أنه أذكى جندي أطاع ، وأبرع قائد أمر ، وأن التاريخ لم يعرف قائدا استطاع أن يعتمد على نفسه ١٤ عاما في طريق لم يمش به أحد من قبل ، من أجل تحقيق هدف واحد .. أو للوفاء بوعد .. أو تحقيقا لرغبة مؤكدة هي الإنتقام من الرومان ..

ومن الحكم التي حفظها جنوده له قوله : الشعب الذي لا يعرف الكراهية العظمى ، شعب لا يحق له أن يعيش !

ويقول : الشعب الذي ينسى من أهانه ، شعب لا يستحق لقمة العيش !

ومن أجل ذلك خربت أوروبا كلها .. فقد داسها هانيبال من الغرب إلى الشرق .. ومن الشمال إلى الجنوب .. وقتل من الرومان نصف مليون .. وأحرق حدائقهم وحقولهم .. وروى بالدم أرضهم .. حتى لقد كانت سنابل القمح تقطر دما في أيدي الفلاحين .. ولم يفرق الناس بين النبيذ في الزجاجات والدم في البرتقال ..

ولما ضيق الرومان على هانيبال في كل مكان هرب إليه .. مد يده إلى خاتم في إصبعه ، كان قد أخفى كمية من السم فيه .. ثم شربها .. ومات .. وترك على الحائط هذه العبارة :

« إلى الرومان أعدائنا .. لقد حاربتكم أربعين عاما .. واليوم يموت آخر جندي في طابور الكراهية الأبدية لكم ! .. »

ثم مشت وراءه
فتاة من حلب

قالت أمه : لو جاء ولدا لجعلته ضابطا فى الجيش .

قال أبوه : لو جاءت بنتا لكنت أسعد الناس .. لقد ماتت أمى ولا أجد الحنان عند زوجتى .. وأنا ما أزال طفلا .

وجاء ولدا يوم ٢٤ نوفمبر سنة ١٧٨٤ بمدينة لوزان ، واختارت له الأسرة اسم يوهان ، واتجهت الأم بعد ولادته إلى استشارة أقاربها إن كان من الضرورى أن يولد للأسرة طفل آخر ولد مثلا ، وكان رأى الجميع أن ولدا واحدا يكفى فالأب متوسط الدخل والأم فى صحة هزيلة ، وهذا الولد سوف يملأ الفراغ بين الزوج والزوجة وسوف يجدان مادة أخرى للشجار غير أن يقول لها : أنت من الكاثوليك وأنا من البروتستانت وهذه هى غلطتى الوحيدة وكان من الضرورى أن يخرج واحدا منا من دينه ويترك الآخر ..

وعند هذا الحد من النقاش الحاد يقول كل منهما وبسرعة ، لولا أن جاء هذا الولد !

وهذا الولد يوهان بوركهارت هو الذى سيجمع الأبوين على محبته وتربيته وكل ما يقوله الأبوان يؤكدان أن الحياة من غيره مستحيلة ، وقد لاحظ الناس أنهما لا يخرجان من البيت إلا قليلا ، شئ غريب ، لقد تعلق الإثنان بالطفل لابد أن لهما ظروفا خاصة ـ هكذا يقول الناس .

ولكن الطفل ولد فى عصر الثورة الفرنسية .. وسوف يصبح شابا فى

عصر نابليون ذلك البطل الذى أشعل النار فى قلوب وعقول كل أبناء القرن التاسع عشر ، عندما أصبح نموذجا للبطولة والمعجزة ، والذين تسلقوا الجبال كانوا يحلمون به .. والذين عبروا المحيطات كانوا صورة منه .. فى استطاعة كل إنسان أن يكون بطلا ، لأن نابليون ذلك الفتى الإيطالى جاء يقود فرنسا وأوروبا كلها .. فالبطولة ممكنة ، وعبادتها واجب .. والخطر والخطورة هو قوت الأبطال والدم طريقهم والذهب نهاية كل طريق والخلود نهاية ضعيفة ..

لابد أن هذه أفكار يوهان الصغير .. وإلا فما الذى دفعه إلى أن يسافر إلى بريطانيا وأن ينضم وهو فى العشرين من عمره إلى جمعية اكتشاف أفريقيا وقد اختار اللغة العربية ليتعلمها فى كمبريدج ، ومضت سنوات وهو يتدرب عليها ، ثم قرر بعد هـــذه السنوات أن يذهب إلى مدينة حلب بسوريا ليتقن اللغة العربية ، ويقول أن الذى أشار عليه بذلك أستاذ له زوجة من حلب ، وهى ترى أن أهل حلب أقدر الناس على نطق اللغة العربية ، وليس بعيدا أن يجد له زوجة هناك ، ولكن كيف ؟ سوف يشهر إسلامه أليس يؤمن بالإسلام وبالقرآن الكريم والنبى ؟ ألم يقطع الليل والنهار فى تلاوة القرآن وحفظ الأحاديث النبوية .. لقد فعل ذلك عن طيب خاطر .

ولكن لمـاذا ؟ !

ان جميعية « اكتشاف أفريقيا » قد كلفته بأن يقوم برحلة إلى أعالى النيل ليعرف بصورة نهائية إن كان صحيحا أن نهر النيل ونهر النيجر ينبعان من مكان واحد . ان عددا كبيرا من الجغرافيين يؤكدون ذلك .

بدأ يوهان يوركهارت رحلته أولا إلى حلب .. وأتقن اللغة العربية . وتعلقت به إحدى الفتيات . وأدرك هو ذلك . ولكنه ترك لهـا خطابا رقيقا يقول فيه : لو انتظرتنى عشر سنوات فسوف أتزوجك . أما الآن

فلم أستحق إعجاب أحد غيرك فى هذه الدنيا .. وإذا كنت كافيا لك ، فلا أراك كافية لى .. ان الذى أحتاجه كثير .. فانتظرينى إذا شئت . وسوف أجئ بعد عشرة سنوات ، إن شاء الله ، إلى هنا .. فإن وجدتك تزوجتك .. وإلا أنت أضعت الوقت ولا أنا ..

واتجه إلى البادية وأطال لحيته . ومشى حافيا . وتعرض للشمس ونام فى الهواء الطلق . وعاش على الأعشاب والتمر واللبن . وكشف صدره ووجهه للشمس . ولم يعد أحد يخطئ إذا نظر إليه .. انه تاجر سورى أو لبنانى .. الوجه أبيض والعينان زرقاوان .. واللحية حمراء ويتكلم اللغة العربية بلهجة سورية .. وإذا صافحك شد عليك ثم عانقك وقبلك .. ومد يده إلى جيبه ودعاك إلى بعض الفستق أو التمر حسب الأحوال .

وعلى سبيل التجربة سافر إلى تركيا على أنه تاجر هندى مسلم . وكان قد قرأ الكثير عن الهند . واستقبله الناس فى تركيا على أنه مسلم . ولكن الكثيرين لا يعرفون بالضبط كيف كان شكل الهنود .. ولكنه مسلم على أى حال .. وهو رجل مهذب . ويعرف طريقة إلى المسجد . ويعرف الصلوات ويتلو القرآن — هذا لا شك فيه .

وانتهز فرصة سفره إلى تركيا واختار له أسما جديدا هو إبراهيم ابن عبد الله .

ثم عاد إلى سوريا ومنها إلى مصر . وجاءت الأنباء من كمبريدج تطلب إليه أن يسافر فورا إلى أعالى النيل . وكان يجمع الأخبار من مدينة القاهرة من كل الذين سافروا إلى السودان . ولكن يبدو أنه قد اختار طريقا آخر . فهو قد جاء إلى هذه البلاد وفى رأسه خطة محددة . وهى خطة أخرى غير التى يقولها الناس . . وللدبلوماسيين والتجار الأجانب . . أما خطته فهى أن يذهب إلى الأراضى المقدسة الإسلامية لأن أحدا من المسيحيين لم يدخل المدينة أو مكة . وهو يريد أن يكون أول أوروبى مسيحى . وأن يصف ذلك

للناس .. هذه هى المغامرة .. وهذه هى البطولة التى أتت بهذا الشاب من سويسرا إلى انجلترا إلى سوريا إلى تركيا . وأما منابع النيل فلتكن من اهتمامات شخص آخر .

ترك ابراهيم بن عبد الله القاهرة فى يناير سنة ١٨١٣ إلى أسوان . لم يجد أية صعوبة . انه يقول للناس أنه تاجر سورى مسلم . وهو على باب الله . ومعه بعض السلع يحملها على كتفيه . ولم يكن معه حمارا أو خادم . وحتى هذا الجحش الصغير الذى اشتراه ليس قادرا إلا على حمل هذه السلع فقط .. إما هو أو البضائع .. واختار ابراهيم ابن عبد الله أن يمشى على قدميه .. وكثيرا ما أشار الناس إلى رقة قلبه ورقة حاله أيضا . فلو كان تاجرا غنيا لكان معه عدد من الحمير أو الخيول أو الخدم .. ولكنه رجل طيب . وعندما وصل إلى حدود السودان وجد سوقا للرقيق عامرة بعشرات من الشبان والأطفال . فاشترى له شابا فى الرابعة عشرة من عمره . حاول أن يتفاهم معه . ولكنه لم يستطع ووجد أن أحسن وسيلة للتفاهم معه أن يضع عليه بعض الملابس الأنيقة الملونة . كان الشاب سعيدا بها . واقتسم الرجل والشاب حمل الأمتعة وركوب الجحش الصغير . ثم عبر البحر الأحمر فى زورق ووصل إلى ميناء جده . ومن جدة إلى مكة ومن مكة إلى المدينة . وقد سجل إبراهيم بن عبد الله رحلاته هذه فى كتاب عنوانه « رحلات إلى العرب تضم مقالات عن أراضى الحجاز التى يقدسها المسلمون » . ولكن هذا الكتاب الذى سجله فى مصر ، لم ينشر إلا بعد ذلك بوقت طويل فى سنة ١٨٢٩ .

كان وصوله إلى جدة يوم ١٥ يوليو سنة ١٨١٤ . لا يعرف أحدا ويخاف أن يعرفه أحد . فهو تاجر سورى مسلم . وقد استعد لذلك تماما . وتدرب طويلا . وكان يحمل معه رسالة إلى شخص غنى فى جده . الرسالة من القاهرة . إلى هذا الشخص واعطاه الرسالة . . الرسالة قديمة . . مضى على كتابتها أكثر

من سنة . وحامل الرسالة رجل أبيض الوجه محروق البشرة . أحمر العينين . ممزقة . وحافى القدمين ويسرف فى التحيات والإنحناءات .. لذلك لا يستطيع أن يدفع له فى كل هذا المبلغ الكبير من المال .. ونظر الشخص إلى الرسالة وصاحبها ، وقال له : وكيف أعرف أنك لم تسرقها من أحد .. اذهب يارجل واتق الله !

ولكن بعض الناس أشاروا على هذا الشخص الغنى أن يسمح له بالمبيت حتى الصباح .. فليس معه قرش واحد . ثم نادى إبراهيم بن عبد الله وقال : تقسم أنك لست لصا . وقال إبراهيم : وحق كتاب الله وآياته المنزلات وهذه الأرض التى مشى عليها سيد العالمين ، إننى صادق .. والله على ما أقول شهيد !

وأعطاه بعض المال وقال له : انصرف .. الله وحده يتولاك بما تستحقه !

وكل ما كان يملكه إبراهيم فى ذلك الوقت هو بعض الدنانير لفها فى قطعة قماش ثم ربطها حول ذراعه بإحكام . وأدرك إبراهيم أن الرحلة سوف تكون صعبة . وانه مطالب بكثير من المؤن والاقتصاد . وانه لا يمكن أن يتراجع مهما كانت الأسباب فإن أحدا لم يشك فيه حتى الآن . ولكنهم يشكون فى أمانته فقط .. إذن هى مسألة أخلاقية .. ولكن لغته وشكله وسلوكه كلها سورية تماما . لا بأس .

ومرض . وأصابته الحمى . وهو يعرف جيدا ما الذى أصابه ، فهو طبيب . تخصص فى الطب . وبعد ذلك هجر الطب . واتجه إلى المغامرات فى لغات وبلاد غريبة واختار أصعب المواقف : الأراضى المقدسة . ان تشخيصه لهذا المريض يقول : « أصبتنى الحمى . أعرف ذلك .. ولابد أن يكون السبب هو ارتفاع درجة الحرارة والقليل من الماء الذى أشربه .

وقلة النوم . والتعب الدائم .. ربما .. ولكنى اعتقد أننى أكلت الكثير من الفاكهة الموجودة هنا . وانني أسرفت فى ذلك . وبعض هـذه الفاكهة لا أحبها .. ثم أننى لا أجد وسيلة للنوم العميق حتى أخرج من هذه الأرض .. سوف أنام فى مصر .. ولكن أين هى مصر الآن .. لن أراها قبل عام .. وإذا كانت الرحلة إلى الأراضى المقدسة قد بدأت هذه البداية الباردة المؤلمة فالله أعلم كيف نتتهى .. أو كيف انتهى » ..

واهتدى إلى أنه من الضرورى أن يبيع الخادم الذى اشتراه من حدود السودان وباعه وكسب من بيعه أربعة أمثال ثمنه . وكان الشاب حزينا على هذا الفراق ، وكان هو أكثر حزنا ، يصف لحظة الوداع فيقول فى مذكراته : « لا فراق أمى ولا أبى .. ولا فراق الوطن .. لا شئ من هذا له مثل الأثر العميق فى نفسى .. أنه أول إنسان اختاره صديقا ورفيقا .. ولكن ما الذى أعمله .. وداعا .. وبعدها شعرت بشئ أليم من الوحدة لا يمكن أن يوصف .. فأنا وحدى تماما وعلى أعصابى » .. ويقول : لا داعى لأن أتسول .. وأمد يدى إلى الناس .. فقد وجدت متسولا سوريا ومن مدينة حلب . وسألنى : من حلب . قلت : نعم .. قال .. ومن أى الناس فى حلب ؟ قلت : لو كان لى ناس ما سألت الناس ..

واشترى إبراهيم ملابس مصرية . فهو الآن تاجر مصرى عاش معظم الوقت فى مدينة حلب . وهو يعرف عدد كبيرا من الأجانب . وكتب إلى بعض الأصدقاء فى القاهرة يطلب المال .. وسوف يجئ بعد ثلاثة أو أربعة شهور . واهتدى ابراهيم إلى خان — لوكاندة — وبات فيه .. وعرف صاحب الخان أنه ليس قادرا على دفع أجر المبيت .. فدفعه إلى أن ينام أمام باب الخان ليلا .. تحت خيمة صغيرة .

وتشاء الصدفة أن يلتقى بمصرى اسمه يحى أفندى الذى يعمل طبيبا لطوسون باشا وكان قد قابله فى القاهرة . وكانوا قد قدموه له على أنه رحالة إنجليزى .

أى رجل يريد أن يتفسح فى بلاد العرب . مجرد فسحة . ولكن يحى أفندى خشى أن يكون إبراهيم هذا جاسوسا إنجليزيا . ولكن كلمة « إنجليزى » لم تعد تضايق أحدا .. فالإنجليزى هم الذين هزموا نابليون . ثم إن هذا الرجل قد أسلم . ويحفظ القرآن والأحاديث ويصلى فى الأوقات الخمسة .. ولكن لا يزال يحيى أفندى يتشكك فى أمر هذا الإنجليزى المسلم .. وتهامس الناس . ولكن الرجل قد أسلم . ولكى يطمئن الناس أتوا باثنين من العلماء ليمتحناه فى مبادئ الإسلام .

ودارت الأسئلة حول فرائض الإسلام ومناسك الحج ، وتفسير الآيات والأحاديث النبوية .. لقد وجدوا ابراهيم بن عبد الله قد استعد لهذا اليوم . إنه رجل مؤمن لا شك فى ذلك . استراح الجميع إلى ذلك . وتناولوا العشاء . وبقى إبراهيم ينتظر الفلوس القادمة على ظهر جمل أو حمار أو زورق من القاهرة .

وفى يونيو سنة ١٨١٤ دخل مدينة مكة . الآن فقط عليه أن يدرس كل شئ وأن يصفه وأن يحسبه . ولم يكن معه من الأدوات الحديثة سوى بوصلة بحرية . أما المقاييس الأخرى فقد سرقت منه . والذى كتبه إبراهيم عن مكة فى غاية الدقة ، إنه لم يترك شيئا لم يصفه وصف المسجد الحرام . ووصف الأعمدة والأبواب والسلالم والأحجار . والتقى مع الناس حول الكعبة ووصفها . والحجر الأسود لمسه عشرات المرات .. إنه قطعة من الحجر الأسود البنى . لقد بدا كأنه مجموعة من الأحجار ألصقت بعضها إلى جوار بعض .. وهو فى غاية النعومة .. لأن ملايين الأيدى والشفاه قد لمسته .. وسوف تفعل ذلك ملايين غيرها فى ألوف السنين وسجل إبراهيم ملامح الناس وبلادهم .. وسجل دعواتهم عندما يدخلون البيت الحرام ويلفون حول الكعبة .. وهو يقول : يارب البيت العتيق . . ارحمنى من النار .. واغفرلى ولوالدى .

وكانوا جميعا يبكون .. وقد اندهش إبراهيم كيف انه لم يبك .. ويفسر ذلك بقوله : كنت مشغولا بإحصاء الدموع !

ثم اتجه إلى بئر زمزم .. الناس زحام حول البئر فى كل يوم وكل ليلة .. لا هم يرتوون ولا ماء البئر ينفذ .. وكانوا يحملون الماء فى أوعية من الفخار أو من الجلد .. وفى الليل كان ينام فى مكان منزو من المسجد الحرام . وفى أحد الأيام وهويتقلب على الأرض وجد سكينا تحت يده وكان السكين باردا . ونهض من نومه مفزوعا . ولم يجد صاحب السكين وانتقل من هذا المكان إلى مكان آخر . ونام وصحا من نومه على شئ بارد عند عنقه . وكان سكينا باردا . ووضع يده على جبهته . لم يكن محموما . ولكنه كان مرهقا . ونام وصحا من نومه ليجد نفس السكين عند قدميه .. وقرر أن ينام فى مكان آخر وأن يضع الماء البارد على رأسه .. كل ما معه ماء .. وأخيرا ظهر السكين فى يد رجل هندى إنه يريد أن يبيعه . واعتذر إبرهيم عن شرائه . ومضى الرجل ليضعه عند أقدام النائمين .. ثم ينكفئ على الأرض فى انتظار من يناديه . وناداه الناس بأنهم لا يريدون .. وجاء الرجل يحمل سكينة ولم يكن إبراهيم يعرف هذه العادة عند الحجاج من الهنود ..

وانتقل ابراهيم بن عبد الله إلى المدينة المنورة . وسجل ملاحظاته الدقيقة لم يخطئ فى حساب شئ . . ولا فى إحصاء كل ملامح مسجد الرسول عليه السلام . ولا البيوت ولا المقابر ولا المساجد المجاورة . ولم يستطع أوروبى بعد ذلك أن يضيف إلى ما كتب إبراهيم شيئا جديداً ..

وأحس إبراهيم بن عبد الله أنه قد أدى مهمته العلمية . ولابد أن يعود إلى القاهرة . وعاد وهناك سجل مذكراته التى تركها تحت تصرف « جمعية اكتشاف أفريقيا » ومن الغريب أنه فى القاهرة وجد رسالة من فتاة حلب التى عرفت حقيقته . فقد جاءت إلى مصر مع والدتها . وهذا

شئ غريب وعجيب ، فلم يكن مألوفا أن تفعل فتاة ذلك ولا أم أيضا . ولكن الفتاة مات أبوها . واختلفت الأم مع اخوة الفقيد على التركة . ومرضت إبنتها . واختارت الأم ابنتها . وذهبت بها إلى القاهرة بحثا عن الرجل الغريب الأجنبى الذى أحبته الإبنة وتعلقت به ووعدها بالزواج إن هو جاء إلى حلب . ولم يذهب إلى حلب . وسألت . وعرفت . وبحثت عنه فى القاهرة . وقيل لها سوف يجئ .. وغاب .. وتركت له رسالة تقول فيها بالعربية طبعا : « إننى لا أربطك بكلمتك . لهذا جئت . فقد قررت أن أسافر إلى تركيا وأعيش مع أمى هناك . فقد مات أبى ولم يعد لأمى أحد فى هذه الحياة سواى .. ولم يعد لى أنا سواك .. « ذهب أبى ولن يجئ ، وأنت ذهبت وسوف تجئ بعد عام أوعامين .. والله يمتعك بالصحة والعافية والسلام » ..

وكانت هذه الرسالة قد جاءت فى موعدها .. وشعر إبراهيم بالراحة وذهب ليصلى لله شكرا فى مسجد الإمام الحسين . وهناك التقى بعدد من الرجال المسافرين إلى سيناء .. وهنا فقط عاوده حلمه القديم : أن يكتشف الطريق الذى سار فيه موسى واليهود عندما طردوا من مصر . وتوجه إلى سيناء سنة ١٨١٦ . ولكن المرض منعه من إكمال هذه الرحلة فعاد إلى القاهرة لينفذ الخطة الأولى التى جاء من أجلها : أن يسافر إلى فزان فى ليبيا ومنها إلى الصحراء .. ثم إلى نهر النيجر .. منابع هذا النهر .. ومنها إلى النيل ليتأكد إن كان صحيحا أن النهرين ينبعان من مصب واحد ..

وقبل أن يستعد للسفر نهائيا قرر أن يكتب مذكراته لتنشر فى الوقت المناسب .. وأرسل خطابا إلى رئيس « جمعية اكتشاف أفريقيا » يقول فيه : كل شئ تم على أحسن صورة ممكنة ولكن شيئا واحدا فقط هو الذى أوجع قلبى .. ولم أكن أتصور ذلك . فأنا من أسرة أعصابها من الحديد .. ونحن ولدنا بين الجبال . وقد استعرنا من الجبال صلابتها وشموخها أيضا .. ولكن من الغريب أن قلبى قد اهتز فى حنان عميق عندما تلقيت رسالة

من (لبينة الحلبية) .. انها أول رسالة من فتاة .. وأول تجربة .. فأرجو أن تبعثوا لها بخطاب اعتذار رقيق — إن أمكن — وأن تشرحوا لها همومى ومهامى أيضا » ..

ولا أحد يعرف إن كانت الجمعية قد أرسلت خطابا إلى لبينة الحلبية . ويقال إنها أرسلت . ويقال إن الفتاة قد تركت له خطابا ولكن قلبها لم يطاوعها فظلت فى القاهرة . لقد انتظرته أكثر من عشر سنوات . وقد أحبته . وهى التى خاطت له ملابسه وهى التى اشترت له المسبحة الطويلة . وهى التى سوت له لحيته . وهى التى كانت تهرب من أهلها لتصلى وراءه : المغرب والعشاء والفجر .. إنها قررت أن تكون وراءه مدى الحياة ..

لابد أنها لم تبرح القاهرة .. وإلا فكيف وجدوها تبكى إلى جواره يوم ١٣ أكتوبر سنة ١٨١٧ عندما توفى فى القاهرة متأثرا بمرض الدوسنتاريا .. وهى التى سارت بالقرب من جنازته عندما دفن فى مقابر الفقراء المسلمين باسم الحاج إبراهيم عبد الله تاجر الأقمشة السورى . ! ؟

وعندما عادت لبينة الحلبية أو الحلبى إلى سوريا تلقت خطابا من « جمعية اكتشاف أفريقيا » واحتفظت به .. وهو الآن فى المتحف البريطانى فى لندن . وقد حاول بعض الباحثين أن يجدوا لهذه الفتاة أثرا . لم يجدوا .. فربما غيرت اسمها .. أو استعارت إسما آخر . . فهى فتاة من حلب . . وكم فى حلب من ألوف الفتيات !

كانت الملائكة تغني

ونحن نغرد!

طاقم القلعة الطائرة ٢٣٤ ل.د وعددهم ثمانية يطلبون النجاة . وهم فى مكان ما بالمحيط الهادى . انتهى الخبر العاجل الذى نشرته الصحف الأمريكية صباح يوم ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٤٢ .

فتذكر القراء الأمريكان رسالة عاجلة لطائرة أخرى تقول : نحن ندور ولا نتحكم فى الطائرة ولا نجد الجزيرة تحتنا . انقذونا . نحن لا نسمعكم . واختفت هذه الطائرة أيضا . وعادت الصحف ونشرت ما حدث للطائرة المعروفة باسم « دالاس » سنة ١٩٣٨ وكانت فى طريقها من جزر هاواى إلى كاليفورنيا . والتى جاءت رسالتها العاجلة تقول : حتى إذا حاولتم فلا أمل نحن نحترق !

وبالفعل احترقت الطائرة ولم تعثر لها ستون طائرة إنقاذ على أى أثر ..

وأعلنت البحرية الأمريكية أن القلعة الطائرة بملاحيها الثمانية قد فقدت تماما . وأبلغ أهل الملاحين أن البقية فى حياتهم مع أعظم تمنيات البحرية الأمريكية لأسر الشهداء بطول العمر والبقاء .

ولن يتسع وقت القارئ عادة لأن يتخيل المساحة الهائلة التى سقطت فيها القلعة الطائرة برجالها الثمانية . كل ما يتصوره هو أن المحيط الهادى واسع شاسع عميق . ولكى أساعد القارئ على أن يرسم لنفسه صورة هذه الصحراء الرهيبة من الماء فإن المحيط الهادى مساحته ٦٨ مليون ميل مربع ويغطى ثلث الكرة الأرضية . ومتوسط عمقه بين ثلاثة أميال وعشرة أميال !

وفى هذه الملايين سقطت قطرة أو دمعة عين عليها ثمانية من الرجال والمطلوب إنقاذهم فى أسرع وقت – إن كان ممكناً !

* * *

كان ذلك يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٩٤٢ عندما ارتفعت القلعة الطائرة فى الهواء – الهواء حولها منعش . الشمس مشرقة . السحاب بعيد . وجزر هاواى تبدو من الطائرة فى لون المانجو . والمحيط الأزرق فى لون البنفسج ثم فى لون زجاج السيارات أيام الحرب . وكان من عادة قبطان الطائرة أن يغنى . ومن عادة زملائه أن يردوا عليه .. وكان يدعوهم إلى ذلك . ويقول : هذا أمر وفى ذلك اليوم راح يغنى ويقول : هذا أمر . ولكن أحدا لم يرد . واندهش . ولكن كانت دهشتهم أكبر لأن هذه الأغنية لم يسمعوا بها من قبل . أما الأغنيات السابقة فقد سمعوها منه مئات المرات .. دون أن يملوا ودون أن يمل . ولكن الأغنية الجديدة تقول : وطار العصفور .. ولم يعد .. أين أنت يا شجرة عالية .. على أرض عارية .. أين أنت .. ولم يعد العصفور !

بعضهم تشاءم ولم يرد .. قبطان هذه الطائرة إسمه « جيمس ويتكر » . وقد سجل هذه المغامرة المروعة فى كتاب ممتع له إسمه « ونحن نغرق كانت الملائكة تغنى » ..

يقول إنه لاحظ بعد قيام الطائرة بساعتين أن هناك غريبا فى العدادات التى أمامه .. فجأة بعضها يعلو ويهبط .. وكانت الطائرة تنطلق بسرعة ٣٠٠ كيلو فى الساعة .. وإن كانت الطائرة راسخة فى الهواء والتفت إلى زملائه لعلهم يرون ما يرى .. ولم يكن من الصعب أن يعرفوا أن هناك تسربا هائلا للوقود ولا يمكن التحكم فيه .. وفى مثل هذه الحالة ليس أمامهم إلا الهبوط لأن العودة مستحيلة .. ومعنى ذلك أن الوقود تسرب من الطائرة بشكل مفاجىء .. أو إحدى الأنابيب قد انفجرت . وقرروا الهبوط إلى الماء .. واستعدوا لذلك كل واحد لف حول نفسه بطانية.. ووضع مخدة عند صدره.

وجمعوا ما استطاعوا جمعه من الأشياء الضرورية .. وصدر قرار القبطان إنه من الأفضل الهبوط الإرادى بدلا من الهبوط الاضطرارى .. يجب أن يهبطوا بإرادتهم وبذلك يمكنهم التحكم فى سرعة الطائرة ودرجة ارتفاعها بالمياه .. ولكى يخففوا من درجة الارتطام ألقوا بالكثير من حمولتها .. من القذائف .. ومن الصفائح ومن الوقود نفسه .. واحتفظوا بمسدس إطلاق الشعلات المضيئة .. أما زوارق النجاة فقد سحبوها استعدادا لنفخها بالهواء تلقائيا .. الطائرة الآن الضخمة على ارتفاع ٥٠٠ قدم من الماء ٠٠ مائتى قدم .. مائة قدم .. خمسون . صرخ أحد الرجال :

هل عندكم وقت الصلاة ؟

ولم يرد عليه أحد ..

ولكنه أخرج من جيبه « الكتاب المقدس » وراح يقرأ .. ثلاثون قدما .. عشرون قدما .. عشرة أقدام .. خمسة أقدام .. ومازال يصلى .. قدم واحدة .. وارتطمت الطائرة بسرعة ٢٠٠ ميل وتوقفت بعنف لدرجة أن الدم نزف من أنوفهم جميعا ..

إنها استقرت الآن على أمواج المحيط .. وبسرعة قفز الرجال إلى جوارها .. وسحبوا الزوارق التى امتلأت بالهواء وطفت إلى جوارها .. ثلاثة زوارق .. ثلاثة رجال وثلاثة رجال .. واثنان .. وكانت *هذه أول مرة فى تاريخ الطيران* أن تهبط طائرة حربية ذات أربعة محركات إلى المحيط دون أن يصاب أحد من رجالها .. لقد كان المحيط يبدو قطعة من الحرير الأزرق من الارتفاع الشاهق .. أما الآن فهو مثل جبال متحركة غاضبة .. وترابطت الزوارق بعضها فى بعض لتمشى معا .. أو تقف معا .. الزورق الواحد مساحته ٧ أقدام فى أربعة . ومن الداخل .. تبلغ سعة الزورق خمسة أقدام فى قدمين ونصف . ومعنى ذلك أن الطيارين يجب أن يتلاصقوا جالسين أو واقفين

ليظل الزورق فى حالة توازن .. وقد تضايقوا أول الأمر ولكنهم بعد ذلك اعتادوا على هذا السجن العائم ..

أما الأشياء التى حملوها معهم فهى سكين فى كل زورق وثلاث سنانير لصيد السمك .. ومجدافان من الألمنيوم وساعة وقلم وبعض الأوراق و ١٨ شعلة لإطلاقها فى الهواء لعل السفن أو الطائرات تهتدى إليهم .. وفى كل زورق مائة دولار . هذه الدولارات كانت النكتة التى ظلوا يسخرون منها طول الوقت .. بعضهم يشكو من عدم وجود فكة .. أو عدم وجود باعة سجائر يتجولون فى المحيط !

ومضت الساعات وهم فى حالة اعتزاز عنيف .. لا شئ حولهم له معنى .. لا الماء ولا الموج ولا السماء .. لا شئ .. وواحد منهم ما يزال يقرأ فى الكتاب المقدس وبصوت مرتفع .. ولكن أحدا من الموجودين حوله لا يهتز لشئ مما يقول .. ولكنه ماض فى القراءة وكأنه يتحدث إلى شخص يراه ويسمعه .. وحاول واحد منهم أن يقول له : كفى .. ولكن قبل أن يقولها وجد نفسه يردد معه آيات الكتاب المقدس .. وعلت صرخة .. لقد اقترب عدد من أسماك القرش .. وطارت سكين صاروخية استقرت فى بطن سمك القرش .. وهربت الأسماك الأخرى .. ونزف الدم .. وصحا الموجودون من اليأس المميت . . ورجع كل واحد منهم يكتب .. وظل الذى يقرأ يرتل المزامير . وغابت الشمس وجاء الليل باردا . وتغطوا بالبطاطين والتصقوا بعضهم ببعض لتتوازن الزوارق .. وطلعت الشمس .. وبعد ساعات تحولت الشمس إلى قطعة من النار.. من الساعة الحادية عشرة حتى الرابعة مساء .. فهذه منطقة استوائية . . لا ماء ولا طعام . . وإنما فقط عثر واحد منهم على أربع برتقالات .. قرروا أن يتقاسموها على مدى أيام .. لا يعرفون كم سيكون عددها .. أما واحد منهم فقد وجد الشجاعة فى أن يقتل الأسماك ويشرب دمها .. إنه أقل ملوحة من ماء المحيط .. وغابت الشمس .. وجاء

الليل البارد .. وطلعت نار الشمس مبكرة .. وهبط المطر .. ونزل فى بطن الزوارق .. شربوه .. ووضعوا ما زاد عن حاجتهم فى قراطيس نحاسية مفرغة .. وغابت الشمس .. وجاء البرد .. وظهرت الأسماك .. وأكلوها نيئة طبعا ومن العجب أن عصفورا صغيرا وقف على رأس واحد منهم .. وامتدت إليه يد فقتلته فى ثانية .. وأكلوه نيئاً .

وجاء اليوم الرابع وهم على هذه الحال من الجوع والعطش والبرد .. وكان لابد أن يبحثوا عن طريقة يخففون بها انتظار الموت .. فوقف واحد منهم يمثل دور جرسون فى فندق شيراتون .. ووقف يسأل الزبائن هل يحبون أن يأكلوا اللحم مشويا أو مشويا جدا .. والنبيذ هل يفضلونه أحمر أو أبيض . والويسكى على الصخر – أى بالثلج فقط – أو بالماء أو الصودا .. والموسيقى يفضلونها هادئة أو صاخبة .. أما الحساب فلا داعى للتفكير فيه لأنهم ضيوف الرئيس الأمريكى شخصيا .. ويضحكون . أما الجرسون فيسقط من الإعياء فى المحيط ويسحبونه إلى الزورق ويضربونه على قفاه ليسكت فإن هذه الهلوسة توجع قلوبهم ومعداتهم أيضا . وواحد منهم يقرأ الآيات من ٣١ إلى ٣٤ من إنجيل « متى » .

فلا تهتموا قائلين ماذا تأكل . ماذا تشرب . وماذا تلبس . فإن هذه كلها تطلبها الأمم . لأن أباكم السماوى يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها . لكن اطلبوا أولا ملكوت الله وبره . وهذه كلها تزاد لكم . فلا تهتموا للغد . لأن الغد يهتم بنفسه . يكفى اليوم شره – فعلا اليوم وغدا شر . . والأيام القادمة شر أيضا » .

وقال واحد منهم : والغد ليس معناه الغد ربما قبل الغد سيجئ الفرج ..

وقال ثان : ليس الغد معناه الغد .. وإنما معناه ما بعد بعد الغد !

وقال ثالث : كل يوم له غد .. ولذلك فالغد لن يجئ !

طبيعى جدا أن يكون هؤلاء الرجال متشائمين أو بائسين أو يستعدون للموت .. فمن الذى يستطيع أن يصل إليهم .. أو يراهم لكى يصل إليهم . ومتى ؟

وقال الذى يصلى .. يا أخوتى دعونا من هذا الكلام السخيف . ولنشترك فى صلاة واحدة .. ان السماء لن تتخلى عنا ..

وقال واحد : ولكن لماذا لا تتخلى عنك السماء .. ما الذى فعلته لكى يحميك الله .

فرد عليه : لا شئ .. سوى أننى أمل أمى .. وكل ما خرجت به من الدنيا ..

وقال واحد آخر وكأنه صوت السماء : إذن يجب أن تتركك السماء من أجل أمك ..

وقال ثان : وأنا لا أذكر أننى عملت شيئا أستحق عليه الحياة .. ولكننى لم أفعل شيئا أستحق عليه هذا العذاب .

فرد عليه أحد زملائه : : هذه مسألة فيها نظر !

وقال ثالث : إننى مؤمن بأن الله يمتحننا .. وقد امتحننى قبل ذلك عدة مرات .. ونجحت فى الامتحان .. وأنا رجل مؤمن مسالم .. وأعتقد أن الله سوف ينقذكم جميعا من أجلى .

أما الذى يصلى فظل يقرأ .. ولما سألوه .. لم يتوقف عن الصلاة .. صاعدا هابطا مع الموج ..

وأطلقوا شعلة فى الهواء .. ارتفعت الشعلة ، وارتدت فى نفس المكان وكادت تحرقهم .. لولا أنهم انحرفوا بعيدا عنها .. والظلام الذى مزقته الشعلة عاد فالتأم من جديد ..والصوت الذى انطلق مع الشعلة ابتلعه هدير

الموج والريح .. وهدأ كل شئ إلا من تمتمات هذا الرجل الذى يصلى .. وكما غابت الشمس قبل ذلك . غابت للمرة الثانية عشرة ..

وفى الصباح كانت الأمطار غزيرة .. الجو خانق لكل هذه الصدور التى تتنفس فيه . . والرطوبة قد حطمت هذه العظام التى تتساند بعضها على بعض من الجوع والتعب .. والأسماك تروح وتجئ .. وسمك القرش يقترب من الزوارق .. والخوف كله قد استولى عليهم . فهم يخشون من أنياب هذا السمك المفترس لا أن تعضهم ولكن أن تعض الزوارق المطاط .. لو فعلت لغرقوا فى المحيط .. ولذلك كانوا حريصين على إبعاده بالسكاكين .

قال الذى يصلى : أن الملحدين جميعا هم الذين يعيشون فى الوديان .. المؤمنون هم الذين يصعدون الجبال .. الملحدون على الشاطئ .. المؤمنون يركبون زوارق النجاة .. ان الموت يارب هو الذى يجعلهم يتطلعون إلى وجهك الكريم .. إرحمهم يارب .. أغفر لهم إنك غفور لذنوبهم رحيم بقلوبهم !

وفى اليوم السادس عشر مرت طائرة من بعيد .. إنها طائرة استكشاف .. لم يستطع أحد منهم أن يلفت الطائرة إنهم بقعة رمادية فى صحراء زرقاء .. لا أحد رآهم . اقترح واحد منهم أن يتفرقوا فى مساحة واسعة .. لعلهم يلفتون عيون الطيارين . الفكرة وجيهة . ولكنهم فى حالة من الإعياء والفزع . إنهم يرون أن حياتهم فى أن يكونوا معا . أن يعيشوا معا وأن يموتوا معاً تماما كأنهم ما زالوا فى الطائرة .. ولكن واحد منهم أعلن أنه ما يزال رئيسهم وأعلاهم رتبة . وأن طاعته واجبة . وكانت أوامره أن يتماسكوا وألا يتفرقوا فى وجه الموت ..

وكان اليوم العشرون أليما . الجو حار نهارا . بارد ليلا . العطش شقق شفاههم ملوحة البحر أحرقت جلودهم . . ماء المطر لم يعد كافيا . الأسماك

أصبحت مصدرا لأوجاع فى المعدة والمصارين .. عدم وضوح الرؤية وعدم وضوح السمع أيضا .. جعلهم يتصورون سفنا قادمة وطائرات محلقة .. مع أن شيئا من ذلك لا وجود له . إنه من خلق هلوسات العين والأذن .

ولكن واحدا منهم أعلن أنه يرى جزيرة بوضوح .. بعيدا .. بعيدا ..

وكان ذلك فى الساعة الثانية من مساء ١١ نوفمبر سنة ١٩٤٢ . إنهم الآن يرونها واضحة . ولكنها بعيدة .

وفى اليوم التالى اقتربوا منها أكثر وأكثر .. العروق المرجانية بارزة ناتئة .. كالسيوف .. ولكنهم عاجزون تماما عن ترك الزوارق .. وعاجزون أيضا عن البقاء فيها .. ونزل واحد منهم ، أكثر قوة وشبابا .. ثم سار فوق الشعاب المرجانية .. ثم ألقى بنفسه على الرمل .. على الأرض الساكنة .. وتوالى الرجال بعده واحدا واحدا .. وأحس هؤلاء الرجال أنهم بالقرب من النجاة .. إن أشجار جوز الهند هى مصدر السعادة كلها .. فثمار جوز الهند هى كاسات مليئة بالماء .. ولذلك راحوا يزحفون على ركبهم حتى يصلوا إلى أشجار جوز الهند .. وكانت الصعوبة الأولى هى كيف يكسرون هذه الثمار .. هنا فقط أحسوا أن السكاكين التى معهم هى مفتاح السعادة .. وراحوا يحطمون ثمار جوز الهند كالوحوش .. ويشربون ماءها القليل .. فقد كانت هذه الثمار ضامرة . ولكن القليل قد رواهم .

وفى صباح أول يوم لهم على الجزيرة — ١٢ نوفمبر — مرت طائرة دورية .. الطائرة على ارتفاع متوسط ولكن شيئا لم يستوقف هذه الطائرة .. فلابد أن هذه الجزيرة مهجورة وقد تسللوا إلى أحد الأكواخ .. الكوخ فارغ تماما . ويبدو واضحا أن أصحابه هجروه بطائرة فهناك بقايا زورق صغير . وجاءت طائرة ثانية على ارتفاع ألفى قدم ..

إن كل ما ينقص هؤلاء الرجال هو بعض العقاقير الطبية ..

وفجأة ظهر عدد من سكان الجزيرة الأصلية فى زوارق صغيرة . ملامحهم يابانية . وكان من بينهم واحد يتكلم الإنجليزية . وعرفوا من هذا الرجل أن الجزيرة بها حامية صغيرة وأن هذه الحامية قد تلقت رسالة عاجلة بضرورة البحث عن هؤلاء المفقودين . ولذلك خرج سكان الجزيرة فى الشمس الملتّهبة يبحثون عن جثث هؤلاء الذين ناموا وقاموا وهاموا وجاءوا فى زوارق المطاط منذ أكثر من عشرين يوما طعامهم أسماك نيئة وماؤهم مطر وفاكهتهم فصوص أربع برتقالات ضامرة !

أما هذا الشاب اليابانى الذى يعرف الإنجليزية فقد عرض عليهم خدماته . فقالوا له ضاحكين : علبة سجائر أمريكية .

واختفى ليعود لهم بعلبة سجائر . كانت أعظم وأروع هدية قدمت لهم .

وجاءت نساء الجزيرة يقدمن الطعام : اللحم المشوى والحساء وجوز الهند المسلوق . وبعض الخمور . وكانت من بينهم فتاة جميلة . يابانية الملامح . ولكن عينيها زرقاوان . وقالوا : من يكون أبوها ؟ ..

وكان رد الشاب اليابانى : عليك أن تستنتج ..

ثم روى لهم قصة طيار أمريكى احترقت طائرته . ولكنه ألقى بنفسه فى الماء وظل يسبح يومين حتى وصل إلى هذه الجزيرة بعد أن أكل السمك معظم ظهره .. وأنقذته أم هذه الفتاة قبل أن يموت فقد داهمته واحدة من أسماك القرش .. وكادت تقضى عليه .. وتصدت لها أم هذه الفتاة فأكلت ذراعها .. وقاومت وهى تصرخ وتبكى حتى أنقذها رجال الجزيرة وتزوج الأمريكى هذه الفتاة . وكانت هذه الشابة الجميلة إبنته . أما هذا الرجل فقد مات بعد ذلك ودفن فى مكان ما بالجزيرة .

وجاءت طائرة ألقت لهم بالطعام والعقاقير . والإسعافات الأولية والملابس . وبعد يومين جاءت سفينة وأنزلت زوارقها ونقلت الرجال الثمانية إلى جزيرة أخرى اسمها « س ٤ » وهناك وجدوا مستشفى ميدانيا . ودخلوا المستشفى . وبعد أسبوعين نقلوا جميعا إلى أمريكا . وعندما هبطت بهم الطائرة . تقدمهم جميعا ذلك الرجل المؤمن الذى لم يتوقف عن الصلاة وهو يقول : كنت أعلم أن الله سوف ينقذنا جميعا.. فنحن لم نقتل إنسانا بريئا .. إننى كنت استمع إلى صوت الملائكة ، كانت تملأ أذنى .. لقد رأيت الله ..

وبعد أن مشى خطوتين سقط هذا الرجل المؤمن ميتا .. كأنه عندما رأى الله دعاه الله إليه .. فإلى روح هذا الرجل المؤمن بالله ، أهدى هؤلاء الرجال الشجعان قصة نجاتهم من الموت !

رصاصة قتلت رجلين
وأحيت امرأتين !!

الموت أهون من أن أعيش مع أبى – قالتها فتاة فى الرابعة عشرة من عمرها . لم تخطر على بالها هذه الفكرة . ولكنها أحست بذلك وهى تصلى فى كنيسة القديس يوسف بمدينة جنوة .

وهى لا تعرف كيف جاء هذا القرار . لا شئ مما قاله القسيس فى الصلاة يدعوها إلى ذلك ، لا شئ مما قاله أبوها أثناء الإفطار . ولكن هذه الفكرة خرجت من أعماقها واستولت عليها .. ان هذه الفكرة شغلتها .. خنقتها .. تماما كدودة القز التى تنسج لنفسها كفنا من الحرير .. تنسجه خيطا خيطا . . وكلما وجدت فى الكفن ثقبا ضئيلا يدخل منه الهواء سدته حتى لا تعيش .. إنها تريد أن تموت فى أرق وأنعم كفن ..

خرجت الفتاة من الكنيسة وهى تسد كل طريق يعود بها إلى البيت . لم تمر بالشارع الذى تسكن فيه .. ولا بالشارع الذى يعمل به أبوها .. ولا بهذه الحارة التى تسكنها خالتها . . وجعلت طريقها على مقابر جنوة الشهيرة . وقررت أن تدخل فى إحدى المقابر هذه الليلة .. لماذا ؟ لكى تفكر لقد سمعت القسيس يقول : سعداء من يجعلون طريقهم على القبور ..

وجعلت طريقها على القبور وإلى القبور ..

وفى الليل جمعت بعض ثمار الكريز واشترت رغيفا وبعض التفاح ودخلت إحدى المقابر وجلست تفكر . ونامت وطلع النهار . وجاءتها فكرة أخرى .. وذهبت إلى الكنيسة وطلبت من القسيس أن يساعدها على حلق شعرها ولما سألها قالت : إنها نذرت لله أن تقص شعرها كله إن شفيت

أمها من المرض . وحلق لها القسيس شعرها ، وكانت كاذبة فلم تكن قد نذرت شيئا ، وهى لا تعلم شيئا عن أمها ، فأمها قد هاجرت إلى أمريكا فرارا من أبيها ، فهو رجل مريض يحقد على الأصحاء ، وهو رجل بخيل يكره الكرماء .. وكان يرى أمها مسرفة لأنها تأكل ثلاث مرات فى اليوم وتسافر إلى أقاربها مرة كل سنة ..

وذهبت الفتاة إلى القسيس قالت إنها وعدت العذراء بأن ترتدى ملابس الرجال عاما كاملا إذا عاشت أمها بعد المرض الخطير الذى أصابها ، وأتى لها القسيس بملابس الشبان .

ان ماتيلده جالى (١٤ سنة) أصبحت الآن غلاما .. شعرها قصير ، ولها ملابس الرجال وصوتها ممتلئ ، وتتحرك على رصيف ميناء جنوة كأى شاب بلطجى ، وتأكل الخبز بصورة ريفية .. أما بقايا التفاح فإنها تحرص على أن تلقيها على الأرض وتدوسها بقدميها وتبصق عليها كأى شاب قليل الأدب .. من المهم أن تبدو شابا ريفيا قليل الذوق ..

وناداها أحد البحارة : انت يا ولد .

وأجابت ماتيلده . ماذا تريد أنت أيضا !

قال البحار : هل تسافر معنا إلى أمريكا ؟

قالت ماتيلده : لماذا ؟ وهل أقفلت الشركة هنا أبوابها .. هل ضاقت إيطاليا بواحد مثلى فلم يعد يجد الرغيف والنبيذ والنساء . ؟

قال البحار : النبيذ موجود والرغيف أيضا ولكن النساء لم يعد لهن وجود .. توجد هنا غانيات فقط .

قالت ماتيلده : لا تشتم الغانيات فهن أمهات كل قبطان فى هذا البحر ..

وضحك البحار وهو يقول : تعجبنى .. فعلا قبطان السفينة التى أعمل فيها

لابد أن تكون أمه واحدة من هؤلاء .. وأن يكون أبوه واحد منا .. تعجبنى يا ولد ! ..

قالت ماتيلده : أما البحارة فلابد أن أمهاتهم من الكلاب ! ..

وضحك الإثنان .. واتفقا على السفر إلى أمريكا .. أما ماتيلده فقد أصبح أسمها ماريو جالى . ونزل ماريو فى إحدى السفن المسافرة إلى أمريكا انه كان يحلم بهذا اليوم ، أن يكون على ظهر سفينة إلى أمريكا .. يبحث عن أمه .. فهو لا يعلم شيئا عن أمريكا .. وكل ما يعرفه أن أمه تعيش مع بحار فى ميناء نيويورك .. ولكن نيويورك بها ملايين الناس .. وأمه واحدة من الملايين .. ليست لها مزايا خاصة . وإنما هى واحدة من بنات ايطاليا قررت أن الحياة مع زوجها عذاب ، وانها قد حرمت من حنان الأب والأم، وأنها تريد أن تعيش .. وأما أولادها وبناتها فعندما يكبرون فسوف يسألون عنها ويعثرون عليها.. أو هى تعود إلى إيطاليا تبحث عنهم .. وهناك ملايين الأمهات والآباء قد فرقت الحروب بينهم وبين أولادهم . ولما خمدت الحرب عاد الجميع إلى استئناف الحياة فى سلام .

خرجت السفينة « أوشيللى نيرى » أى العصافير السوداء إلى البحر . . ومضت أيام .. وماريو لا يسأل عن شئ .. إنه لا يريد أن يبدو خائفا ، أو يعرف أحد أنه فتاة ، وكثيرا ما صعد إلى سطح السفينة ليبكى ويصرخ ، وكثيرا ما ادعى المرض وغطى نفسه بالملابس الثقيلة حتى لا ينكشف جسمه .. وكثيرا ما نام أثناء النهار ، وعمل أثناء الليل .. وفى إحدى المرات كاد أمره ينكشف عندما اضطر إلى الهبوط إلى إحدى الزوارق بالقرب من السفينة وكاد يخلع ملابسه .. لولا أنه أدرك فى آخر لحظة أن بعض ملابسه الداخلية لا تليق برجل .. لقد نسى أن يغيرها .. وفى بعض الأحيان كان ينظف أظافره بصورة نسائية .. ولكن بعد شهر من الرحلة فى البحر والمحيط حولته أشعة الشمس والجبال والسلاسل الغليظة التى يسحبها ليلا ونهارا إلى

شاب خشن ، فالشمس أحرقت الوجه والذراعين والسلاسل تركت آثارها الدامية على الكفين والساقين . . وجاء الشحم والفحم والزيت يغطى الوجه ويخفى المعالم الجميلة لهذه الفتاة الإيطالية ..

وفى ليلة رأس السنة سنة ١٩٢٤ رست السفينة فى مدخل نيويورك .. كل شئ يدل على أن الجميع قد انشغلوا بالطعام والشراب . . وفى هذه الأثناء جمع ماريو ملابسه .. وامتدت يده إلى جيوب بعض البحارة وسرق بعض الدولارات ثم ارتدى ملابس جديدة .. وغسل وجهه تماما .. وهبط إلى الرصيف ..

وبدأت المتاعب الحقيقية لشاب هرب من والده .. وجاء يبحث عن أمه فى أمريكا .. أو فى نيويورك .. إن أمه لم تكن تحبه .. ولكنه على يقين أنها سوف تحبه .. إنه جاء إليها من إيطاليا .. جاء هاربا إلى حنانها .. جاء ليكون إلى جوارها .. أيا كان هذا الجوار .. جاء وهو لا يعرف إن كانت تريده .. كل ما يعرفه أنه هوالذى يريدها .. انه لا ينسى أبدا أمه عندما كانت مريضة قبل سفرها إلى أمريكا .. وكان هو واقفا إلى جوارها يبكى . قالت له الأم — وهى صادقة مائة فى المائة : عندما تكون لك إبنة لا تزوجيها لرجل يكبرها بعشرين عاما .. لا تزوجيها لرجل لا يعرف إلا الكأس .. لا تزوجيها لرجل مريض يكره كل إنسان سليم .. يكره كل إنسان عنده أمل فى هذه الحياة ! ..

وعلى الرصيف قابلتها فتاة صغيرة .. فى مثل سنها .. سألتها الفتاة :

— إلى أين فى هذه الليلة ؟

قال ماريو : ليس عندى هدف . واقترحت الفتاة الأمريكية أن يقضيا الليلة معا .. وذهبت الإثنتان إلى أحد البارات .. وشربت الأمريكية والإيطالية

وعند منتصف الليل ذهبت الإثنتان إلى بيت صغير ، إلى غرفة فى هذا

البيت الصغير وطلع النهار عليهما ، ولأول مرة يجد ماريو أنه من الضرورى أن يعترف فقد تعب من الكذب . .. أو تعب من أن يكون رجلا ..

وارتدى ماريو ملابس الفتيات وأصبح من جديد ماتيلده .

واتفقت الفتاة الأمريكية والإيطالية على أن يجدا عملا ، واشتغلت ماتيلده فى أحد مكاتب التصدير ، إنها فتاة صغيرة ، ليست لها تجارب فى الحياة العملية ، ثم إنها لا تعرف إلا القليل من اللغة الإنجليزية ، ولكن فى ميناء نيويورك كثير من الإيطاليين وأكثرهم من جنوب إيطاليا ، ولم تشعر ماتيلده بالغربة . ولكنها بين جالية إيطالية كبيرة ، وربما ضايقها فقط أن الإيطاليين أكثر جرأة فى الغزل من الأمريكان ..

فقد ضبطت عيونهم على ساقيها ونهديها وشفتيها .. تماما كما يفعلون فى إيطاليا بل إنهم فى أمريكا أكثر وقاحة ولكنها فى وجه هؤلاء الإيطاليين كانت أكثر تشددا ، ووضعت صليبا على صدرها . وغطت ذراعيها ، وأنزلت فستانها إلى ما دون ركبتيها ، وأطلقوا عليها اسم « سوريلا » ماتيلده — أى الأخت ماتيلده .. أو الراهبة ماتيلده .

وفى أحد الأيام اقترب منها بحار إيطالى مخمور وقال لها : أنت من جنوه .

فقالت : نعم :

قال : ومن شارع الحرية ؟

فقالت : نعم :

ثم مضى دون أن يضيف إلى ذلك شيئا .. ثم سارت تسأله كيف عرف ، ولكنه دفعها بيده . وحاولت أن تعرف منه شيئاً أكثر من ذلك ولكنه أصر على الرفض ، ثم اقترب منها ووضع ذراعه وسحبها إلى أحد البارات ، واستسلمت .. انها تريد أن تعرف منه شيئا فقال لها : إننى كنت أعرف واحدة تشبهك ربما هى أختك الكبرى .. ان وجهها فقط جميل .. ولكنها ملعونة بعد ذلك ؟ ..

ليست أختها الكبرى ، وإنما هى أمها ..

ولما سألته : وأين هى هذه الأخت الكبرى ..

فأشار إلى كل رصيف فى ميناء نيويورك .. وقال ضاحكا : لا بد أنها ترقد إلى جوار أحد تحت هذه الحوالات ..

وأشار برجله إلى الميناء .. وهنا أخرجت ماتيلده يدها من جيب البالطو وصفعته على وجهه بكل قوتها .. ثم خرجت ، لا ترى من الطريق شيئا ، ولا تسمعه وهو يناديها .. ولا تسمع صيحات الناس وهى تحذرها من الأسلاك والمسامير على الأرصفة .. ولم تسمع الذين يقولون لها : إلى أين يا أخت ان جرس الكنيسة لم يدق ! .. اليوم هو الإثنين وليس الأحد .. على مهلك يا أخت ! ..

وعادت ماتيلده إلى غرفتها تبكى .. انها الآن على مسافة ما من أمها .. وأن أمها ترقد فى أى مكان هنا مع أى شخص .. مسكينة أمها .. إنها تركت رجلا لتكون ضحية لرجال آخرين .. أسوأ من أبيها .. كل الرجال أسوأ من أبيها .. لماذا لم تكن ولدا .. لماذا لم تبق فى ملابس الرجال .. ولكن كيف .. وإلى متى .. إنه عذاب حقيقى أن تكون بنتا أو زوجة .. أو إبنة تبحث عن أم .. أو تكون بنتا فى ملابس ولد وبين هؤلاء الوحوش ..

وقررت العودة إلى إيطاليا ..

ووقفت على الرصيف فى اليوم التالى .. وتشاء الصدف أن تلتقى ببعض رجال السفينة التى جاءت بها .. نظروا إليها .. وسألوها إن كان لها أخ . فقالت .. ربما .. قالوا لها : نحن نعرفه .. انه ناعم مثلك .. ربما كان أكثر نعومة .

وغضبت ماتيلده .. انها لم تكن ناعمة .. انها كانت خشنة الكلام .. عنيفة الحركة ومع ذلك قد رآها الرجال ناعمة .. أكثر نعومة .. إذن ما الذى تفعله ، إنها لا تستطيع أن تعود .. ولا تستطيع أن تبقى ..

عادت ماتيلده إلى غرفتها الضيقة . ولم تجد زميلتها الأمريكية ، وقررت ماتيلده أن تنتحر كما انتحرت اختها الكبرى .. وكما انتحر خالها الذى عاد فوجد زوجته قد باعت البيت وهربت مع جارها .. ولكن ما الذى تقوله ؟ تقول جئت إلى أمريكا أبحث عن أمى .. ولكن لم أجدها ، فالحياة من غيرها مستحيلة ..

ولكن ما الفائدة ؟ انها لم تحقق شيئا ..

ان زميلتها فى الغرفة لها ظروف أقسى من ظروفها .. انها تعيش وحدها لأن أباها قد مات فى أحد المناجم .. ولأن أختها تزوجت وتركت أمريكا .. ولأن أخاها انتقل إلى جنوة .. وهو سعيد فى حياته .. وسوف يتزوج وهو يدعو أخته إلى الإقامة معه .. ولكن أخته هذه تفضل أن تعيش وحدها على أن تعيش مع أى أحد آخر يسألها : من أين وإلى أين ؟ ..

ان زميلتها الأمريكية نموذج للشجاعة والأمل وحب الحياة .. فلماذا تنتحر ؟ لا داعى .

ودق الباب ، وكانت زميلتها الأمريكية . إنها شقراء طويلة ، عمرها ١٨ عاما ، تحمل الطعام وزجاجات اللبن . والصحف ، ومعها شاب طويل ولكن ملامحه سمراء .. كأنه أسبانى أو إيطالى .. دخلت الأمريكية متهللة كعادتها وهى تقول : معى صديق .. هل تسمحين ..

ودخلت الأمريكية وصديقها ، وهى تقول : حتى لا أضيع الوقت فى المقدمات ، هذا الشاب كما ترين إيطالى رآك وأحبك ويريد أن يخطبك بلا أمهات وبلا آباء .. وهو أيضا أحد اللقطاء السعداء فى أمريكا .. فما رأيك ؟

ووجدت ماتيلده نفسها تقول : أتزوجه ..

ونزل الجميع . وسجلوا الزواج ، وعادت ماتيلده إلى غرفة أخرى فى مكان غريب ..

أما السنوات التي جاءت بعد ذلك فهي لا تهم . لأنها سنوات من العذاب المتواصل . فإن زوجها يشترك في التهريب والسرقة وقد اعتادت على أن يجئ البوليس كل ليلة ويفتش البيت ويسحبها إلى القسم ويسألها لتقول عبارة واحدة : حظي الأسود هو الذي رماني هنا .. ولا أعرف كيف أتخلص منه ..

ويسألونها : من الذي يأتي لك بالطعام والفلوس ..

وتقول : أناس لا أعرفهم يلقون الطعام من النافذة والفلوس من تحت الباب ..

– ومن الذي يأتي بالملابس إلى أطفالك الثلاثة ؟

وتقول : رجال لا أعرفهم .. يدفعون الباب ويحملون تحيات زوجي ويقبلون الأطفال ويختفون ..

– ولا تعرفين أين هو ؟ ..

– إنني لا أخرج من البيت إلا إلى المستشفى .. ولا أعرف وسيلة للهرب

– إذن تريدين أن تهربي ..

– أتمنى ذلك ..

– إلى أين ؟

– إلى أي مكان لا يعرفه ..

– سوف نساعدك بشرط أن تساعدينا .

– ولكن لا أعرف كيف أساعدكم .

– حاولي ..

وهربت ، أو عاونها البوليس على الهرب .. انها تبعد الآن عن مدينة نيويورك أكثر من ألف ميل .. انها سيدة في الخامسة والعشرين من عمرها ومعها ثلاثة أطفال لا تعرف أين أبوهم ولا تعرف ما الذي يمكن أن يفعله بها ، أما الناس فهي قادرة على مواجهتهم ، وهي تقف وراء درع متين من

كراهية الإنسان ، والرجال بصفة خاصة ، ولكن أقوى ما فيها هو إحساسها أنها سوف تجد أمها ، وليس عندها أى تفسير واضح لهذا الشعور الغريب ..

ولا تعرف ما الذى جعلها تسأل عن الإيطاليين فى مدينة نيوارولينز .. المدينة مليئة بابناء أمريكا اللاتينية وبالزنوج أيضا .. وأكثر الناس لهم ملامح إيطالية أو أسبانية .. المدينة التى من الصعب أن يجد فيها الإنسان أحدا . فان الناس على استعداد لأن يكونوا أصدقاء أو عشاقا .. ولياليهم خمر .. ونهارهم نوم .. فليس عند أحد وقت ليسأل أو يجيب ولا عند أحد وقت ليشغل نفسه بهموم الآخرين .. انها ضاعت .. أو سوف تضيع .. الآن لقد اختار البوليس أحسن مكان لإخفائها .. وأسوأ مكان لكى تجد أمها ..

ورغم ذلك ففى أعماقها صوت يؤكد لها أنها قريبة من أمها .. هذا الصوت الداخلى لم تسمعه إلا مرة واحدة عندما هاج المحيط ، وارتعدت السفينة ورأت صورة العذراء فوق السحاب الأسود .. وكانت تحمل طفلها على صدرها وتقترب منها لتقول لها : سوف تجدين لك صديقة .. هى أحن عليك من أمك .. لا تخافى ! ..

ووجدت هذه الصديقة الأمريكية ..

أما الصوت الذى سمعته أخيرا فيقول لها :

سوف تجدينها قريبا ! سوف تجدينها فلا تحزنى ! ..

لقد مضت أكثر من عشر سنوات .. كل سنة بعشر سنوات وهى تبحث فى وجوه الناس وفى أصواتهم وتسأل وتسأل .. ولكنها لم تجد أمها .. ان واحدا حقيرا من البحارة قال إنها تشبه واحدة كان يعرفها .. وكان فى استطاعتها أن تصبر بعض الوقت . . وأن تقبل الهوان . . أن تشاركه فراشه يوما أو شهرا حتى تهتدى إلى أمها .. ولكن نفسها لم تطاوعها أن تختار الوحل طريقا إلى أمها .. أن تمشى فى الوحل لتجد أمها فى الوحل أيضا..

انها حزينة لأنها لم تفعل .. ولكن ما الذى كان يمكن أن يحدث لوفعلت ثم لم تجد أمها بعد ذلك .. واكتشفت أنه كاذب .. كأى رجل مخمور على رصيف نيويورك ..

وأفاقت من هذه الدوخة العقلية على طرقات على الباب .. انهم رجال الشرطة ماذا يريدون . فتحت الباب سألوها : إن كانت هى السيدة التى قتل زوجها برصاص البوليس اليوم ؟ فقالت : لا أعرف .. ان زوجى قد مات منذ وقت طويل . قالوا : إذن أنت سيدة أخرى . قالت : نعم . قالوا : شكرا ..

وعادت تتمنى لو كان زوجها هو الذى قتلوه .

وتوالى الطرق على باب غرفة مجاورة لها . وارتفع صوت رجال الشرطة . ولكن يبدو أن أحدا لا يرد على رجال الشرطة ..

وخرج رجال الشرطة وبقى واحدا منهم أمام الباب .. واقتربت ماتيلده لتسأل . فقال لها : ان السيدة التى نبحث عنها مريضة .. أما زوجها فهو أحد اللصوص .. وقد مات أثناء الهرب اليوم .. ولكن السيدة فى حاجة إلى إسعافات أولية .. هل تستطيعين ؟

ودخلت ماتيلده .. ووجدت سيدة ممددة على الفراش .. وإلى جوارها زجاجات الدواء وقد أدارت وجهها إلى الحائط .. الغرفة بسيطة .. وبها كثير من الزجاجات الفارغة .. والقبعات .. والأحذية .. واقتربت من السيدة .. لتسألها إن كانت فى حاجة إلى أية مساعدة .. واستدارت السيدة لتشكرها ..

هنا انهارت ماتيلده .. إنها أمها ..

أما معنى ما حدث قبل وبعد ذلك .. فليس له أى تفسير ، وكيف جاءت .. وكيف اهتدت إليها .. هل هى الصدفة العجيبة .. الحظ .. السماء ..

قلب الأم .. قلب البنت .. الصوت العجيب الصافى الذى يدوى فى أحشائنا ولا نعرف مصدره .. ولم يفهم رجل الشرطة معنى هذه الصرخات : أمى .. أمى .. وجدتها ..

وعاد رجال الشرطة ليقولوا شيئا غريبا عجيبا ، فقد قتل رجلان :

الرجل الأول هو زوج الأم والثانى هو زوج إبنتها .. وهما من رجال العصابات . ولا أحد منهما قد رأى زوجة الآخر .. ولا حدثه عنها .. فزوجات اللصوص جزء من أسرارهم ..

هذه القصة ليس فيها حرف فى غير موضعه .. انها قصة كتبها قسيس عندما اعترفت له هذه السيدة ماتيلده قبل أن تموت ، والميت لايكذب .. وعنوان هذه القصة التى كتبها الأب جريجوار الأسيزى هو « من اختارت أمها وجدت السعادة فى النهاية » ! ..

جائزة..
لمن يرسم
طفلا رضيعا!

– ما الذى يريده هذا الطفل ؟

الجواب : إنه يريد تعويضا .

– عن أى شئ ؟

– عن وفاة أبيه فى سن مبكرة عن أنه هو الإبن الوحيد ..

– ولكن ما الذى يدفع له هذا التعويض ؟ .

– لا أحد .. أو كل الناس أو أن التعويض من عند الله ..

– ولكن لماذا لا يغضب هذا الطفل كلما قالت له أمه :

أنت الشؤم نفسه .. فبعد ولادتك بقليل مات أبوك .. ماتت قصة حبى الوحيدة . ولكن ميلادك لا يعوضنى عن موته ! .. وكلاهما لا يجده .. أما الأم فقد وجدت لها حلا .. أما الإبن فهو يبحث عن الحل ..

انتهت العبارات التى سجلها ناظر مدرسة فى قرية فرنسية متواضعة جدا عن طفل فرنسى لا قيمة له ولا وزن . ولا أمل فى ذلك الطفل . إذا كان من الضرورى ذكر أسمه فهو رينيه كابيه – هل لهذا الإسم أى معنى ؟ هل مر بك قبل ذلك . الجواب على كل الأسئلة : لا طبعا .

على كل حال هذا الطفل سيكون له شأن عظيم ولكن بعد عذاب عظيم .

وهو فى العشرين من عمره قرأ قصة للكاتب الإنجليزى دانيل ديفو اسمها « روبنسون كروزو » . القصة معروفة عن بحار إنجليزى غرق ثم اهتدى إلى جزيرة مهجورة وعاش فيها وحده . ثم وجد فيها زنوجا قاتلوه .

والقصة تروى نوعا من الحنين إلى الطبيعة ..إلى الفطرة .. صورة جميلة قاسية أمام صورة أقسى منها وهى صورة الحضارة الأوروبية المهلكة ..

وعندما فرغ هذا الشاب الصغير من هذه القصة قرر أن يكون له هذا الشأن : شأن روبنسون كروزو .. فسافر إلى أفريقيا عدة مرات .. وواجه المصاعب العابرة . ولكنه مثل الذى يضع أصابعه فى إناء يغلى ليتذوق ما فى الإناء . أو كالذى يضع أطراف قدميه فى الماء ليعرف درجة الحرارة .. ثم عاد إلى فرنسا .. وبكل رغبة حقيقية فى التعويض تحدث إلى كبار المسئولين الفرنسيين عن رغبته فى المغامرة .. وواجهوه بما يستحقه من الاحترام فقالوا فى وجهه : مجنون !

ويبدو أنه كان فى حاجة إلى أن يسمع نفس الكلمة بلغة أخرى ويتأكد لديه أنه هو على حق وأن الناس جميعا مجانين . فقابل القنصل البريطانى فى إحدى المستعمرات الإفريقية وقال له : مجنون . وعاد إلى القنصل الفرنسى فقال : بوضوح أنت مجنون . ومن الخير أن تعود إلى أمك أيها الشاب فهى مريضة . وازداد مرضها بعد فراقك . فاذهب وتمدد إلى جوارها وارسم علامة الصليب واطلب الرحمة من الله !

وذهب الشاب إلى بعض التجار الأفريقيين وحصل منهم على خرائط بدائية .. كل الخرائط بها معلومات متشابهة . فخريطة أفريقيا بها كلمات تبعث على الغيظ مثل : صحراء مجهولة .. منطقة مجهولة .. مجهولة تماما .. هنا لم يذهب أوروبى واحد..

كل هذه الكلمات تجعله يفكر فى طريقة واحدة : كيف يضع اسمها فى مكانها .. وكيف تكون هذه الصحراء اسمها صحراء كابيه .. وأنهار كابيه . . وطريق كابيه . . كيف تكون القارة كلها اسمها قارة كابيه طبعا يمكنك أن تقول : مجنون .. قل عنه إنه : مجنون . ولكن معظم المغامرين

والمخاطرين والعباقرة والأنبياء قيل عنهم إنهم مجانين . ولكن البشرية تدين بعقلها إلى هؤلاء المجانين !

وفى سنة ١٨١٦ ذهب إلى السنغال . ثم إلى داكار .. وفى سنة ١٨٢٤ عاد يتفرج على هذه المنطقة . ويذهب يمينا وشمالا على غير هدى . إنه كالذى يفحص أرض معركة لا وجود لها إلا فى رأسه .. إنه يريد أن يفعل .. شيئا .. ولكن لا يدرى بالضبط ما ذا يريد ..

قرأ إعلانا للجمعية الجغرافية الفرنسية . كان الإعلان هو خطة العمل ومبرر الموت والتضحية ووعدا بالتعويض . وكتابا نزل عليه من السماء . فإذا كان البيان هو الكتاب السماوى فهو النبى ، هو صاحب الدعوة . قرأ البيان وهو فوق صخرة عالية كأنه خطيب على مسجد .. كأنه المسيح يوم خطبة الوداع .. الجمعية الجغرافية الفرنسية تقول : ندفع مكافأة مالية كبيرة لأول أوروبى يصل إلى مدينة تمبكتو (فى جمهورية مالى الآن) ويصلها عن طريق السنغال الفرنسى . وأن يقـدم لنا قصة مكتوبة باليد وخريطة معها . ويدرس التربة والآبار وأعماقها . وسرعة واتساع الأنهار ودرجة الحرارة والمطر . وعادات الناس وتقاليدهم وديانتهم . وطعامهم وألوانهم وأمراضهم وملامح الوجه بدقة ولون الشعر وشكله . والمرأة وكيف ترضع أطفالها .. وكذلك السلع ، ويعد قاموسا عن كلماتهم مع مقارنة باللغة الفرنسية ويرسم لنا المدن والبيوت .. » .

انتهى البيان أو البلاغ أو التحريض الرسمى على أن يترك أعماله فى المزارع وأن يتجه فورا إلى البحث عن السبل إلى مدينة تمبكتو .. كان كل ما يملكه هو مبلغ ستين فرنكا . لا أحد يقترض منه . المطلوب منه أن يبدأ رحلته . ولكن لابد من خريطة ما . وقبل الخريطة لابد من خطة . كيف يتحرك . كيف يتعاون مع الناس . وماذا يقول للناس ؟

لم يجد صعوبة فى العثور على قصة من اختراعه . فليس من الصعب على شاب خيالى يتوهج بالحماسة ليلا ونهارا أن تكون أفكاره قد اتخذت فلكا عاليا تدور حوله .. أو يكون قد صنع لنفسه طوق نجاة فى مجاهل الأكاذيب أو الشكوك التى سوف تحيط به .. ووجد القصة التى سيرويها ويتحرك بها بين الناس ..

انه شاب مصرى عربى . ولد فى مصر . أيام الحملة الفرنسية . أمه مصرية . أما أبوه فضابط فرنسى . وعندما انسحب نابليون إلى فرنسا . حمله أبوه إلى فرنسا . وهناك تعلم اللغة الفرنسية . ولما كبر قرر أن يعود إلى مصر . وهو كرجل مسلم يحب الحياة فى ظلال الأماكن المقدسة . ولذلك جاء ليهرب مع الحجاج عن طريق تمبكتو ..

وقد ارتدى الملابس العربية وأطال لحيته .. وهو قد جرب الحياة فى بلاد الفرنسيين فلم يسترح . فليس أروع من الحياة فى ظل المساجد وهو يتلو القرآن الكريم — وصدقه الناس .

وفى مارس سنة ١٨٢٧ اتجه إلى مدينة كاكوتدى مع قافلة من الزنوج لا كلام . ولا سلام ولا مشاكل . إنه عربى يتجه معهم فى أمان وهدوء إلى أى مكان . ومعه بعض السلع من الزجاج والآنية . وهو على باب الله . ووصل إلى مدينة كاكوتدى . لا حوادث . لا سهام لا نبال لا دماء . وإنما جماعة صغيرة تتحرك وسط غابات تتحرك .. فكل شئ حولهم وتحتهم له صوت .. فهناك طيورا وزاحف وحشرات وهواء ومطر . ملايين الأصوات المخيفة . ولكنهم ماضون . فمن يقف يمت ..

ويوم ١٩ أبريل انفتحت الغابة على المجهول .. وكلمة المجهول هذه لا معنى لها ولا آخر من الرمال أومن المستنقعات أولها مثل آخرها . شرقها مثل غربها .. التقدم كالتأخر فيها . وجاءت قافلة تضم خمسة من الزنوج .

واستأجر منها شيالا يحمل بعض أمتعته . ومضوا فى الأحراش . مضوا شهورا .. لا كلام .. لا تفاهم .. وإنما هم كأنهم يمشون أثناء النوم .. ولا أحدا يسأل أحدا كأنه يخاف من الجواب . يقول رينيه كابيه فى مذكراته لو قال لى واحد منهم . إنه لا يعرف له وجهة لقتلت نفسى .. ولذلك خفت أن أسأله . . إنهم يمشون عميا وأنا ظلهم — يتوقفون . وفجأة يتساقطون على الأرض نائمين . فأفعل مثلهم . ظلهم .. حيوان ذليل . فأنا لا أعرف شيئا . وإنما أنا دائن يبحث بكل ما فيه من جنون عن المدين لاستخلص حقى منه .. أما الحرارة والأمطار فشئ مروع لا يوصف . أمطار غريبة عجيبة .. إنها ليست قطرات : . وإنما هى موجات تنصب من بحر فوق رؤوسنا .. وبسرعة تتحرك الأرض تحت أقدامنا إلى أمواج من الطين .. ونخوض برؤوسنا فى بحر وبأقدامنا فى بحر .. فلا نحن ماشون ولا سابحون ولا غرقى ..

وفى إحدى القرى الصغيرة توقفت القافلة . وعند أحد البيوت نزلوا . وانفتح الباب . ودخل هو البيت فقد كان مريضا . البيت نظيف .. الأرض عليها نقوش . أى على الطين ، صاحبة البيت هى زوجة شيخ القبيلة لها ثوب من القماش الأبيض . بشرتها ناعمة لامعة . اللمعان ليس نوعا من الدهن . فالدهن لا يتناسب مع حرارة الجو . ولكنها فى صحة جيدة . ابتسامتها عريضة . قدمت له الطعام . وليس نوعا من الإغراء أنها شمرت عن ساقيها. الساقان من الأبنوس . يقول : وفجأة أحسست أننى كوم من العنب تدهكه بساقيها لكى تصنع النبيذ . كما يفعلون فى فرنسا . واندهشت كيف أننا بدائيون ..»

أما هذه العبارة فقد فسرها بعد ذلك بأنه كان مصابا بالحمى وأنه بدأ يهذى . فلم يكن النبيذ سوى عينيه الحمراوين .. أما وطء قدميها ، فليس إلا دقات قلبه . إنه محموم .. وكان يسجل مذكراته فى كل الظروف .

وظل نائما فى هذا الكوخ شهرا كاملا . وكانت القبيلة كلها تعالجه . بأعشاب عقلية . وفجأة اشتعلت النيران فى ساقيه . ظهرت الدمامل . وأتوا له بأوراق الشجر المسلوقة ووضعوها على الدمامل . وشفيت تماما . ثم أحس بآلام فى أسنانه . وكانت تتساقط الواحدة بعد الأخرى . وأتوا له بماء دافئ .. إنه لا يعرف ان كان نوعا من بول الحيوانات أو البول فقط . ولكن الأعشاب الكثيرة تجعله يقطع بأنه شوربة دافئة من نوع غريب .. وبعد أيام من المضمضة ارتاحت أسنانه .

أما آلام الظهر هذه فقد جعلته ينام جالسا أسبوعين.. أو ينحنى هكذا دون أن ينام .. وجاءت إحدى فتيات القبيلة وقامت بعمليات تدليك وشد للظهر بقوة . انه يراها بوضوح .. ومن العجيب أن النساء يرتدين بعض الملابس الداخلية . أما الرجال . فلا . والنساء لهن رائحة جيدة . أما الرجال فلا . والمرأة هى التى تقوم بكل العمل . والرجال كسالى إنه يكتفى بأنه رجل . والمرأة تحمل وتلد وحدها . ثم تترك الطفل وتستأنف العمل . ويظل الرجل طول الوقت مشغولا بالنظر إلى جسمه وتدليكه .. وفى بعض الأحيان يلاحظ أن الرجل يهجم على المرأة فجأة . ويختفيان بعض الوقت . ثم تعود المرأة إلى العمل ويظل الرجل ملقى تحت شجرة . ولم يفهم . ولكنه فهم بعد ذلك . عندما كان ضيفا على إحدى القبائل فى الطريق . فقد جاءت زوجة صاحب البيت ونامت إلى جواره . وجاء الرجل ونام فى الناحية الأخرى . ومن العجيب إن الإثنين استغرقا فى النوم . ولكنه لا يستطيع أن ينام فى لحظة واحدة وفجأة اعتدل الرجل فى صمت . واعتدلت الزوجة . كأنهما مربوطان بخيط واحد . ثم خرج الإثنان . . ورأى رينيه كايبه الاثنين وقد تعلقا فى شجرة أمام البيت .. ثم راحا يتعريان ويتداخلان كأنهما اثنان من الأفاعى .

وفى يوم ١٠ مارس سنة ١٨٢٨ وصل إلى نهر ديوليس — هكذا أطلق عليه هذا الاسم وهو الآن معروف باسم نهر النيجر ..

وسمع من الناس أن هذا النهر يتجه إلى مدينة تمبكتو .. النهر واسع يمشى بسرعة عقدة ونصف عقدة . الأعشاب عالية . الزوارق صغيرة . وبعضها كبير يتسع لعشرة أشخاص .

وفى يوم ١٩ أبريل وصل إلى مدينة كابرا .. هذه المدينة تعتبر الميناء النهرى لمدينة تمبكتو . المسافة حوالى عشرة كيلو مترات . وعندما يفيض النهر تصبح المسافة أقل من ذلك بكثير . الأمطار غزيرة . . الحرارة مريرة . الذباب سحاب أسود . من الذى يستطيع أن يذوق التمر أو التين أو يشرب اللبن دون أن يمتلئ بالذباب . ولكنه استطاع أن يصب اللبن فى قطعة من القماش ويشربه . وأعجب الناس بهذه الطريقة ففعلوا مثله . وسجل فى مذكراته هذا الاختراع !

ثم وصل إلى مدينة تمبكتو . سعادته لا يمكن أن توصف إنه ليس أول أوروبى وصل إليها . ولكن المهم أن يكون أول أوروبى يخرج منها . فقد سبقه إليها أحد المكتشفين الإنجليز واسمه الماجور لانج وقتله خادمه . دخلها ولم يخرج . والمكتشف الفرنسى يريد أن يخرج منها . أما البيوت فمن الطين . وحولها رمال صفراء مائلة إلى البياض . السماء كالحة اللون . الصمت عميق . ولا عصفور واحد يتحرك على شجرة . ولكن الناس يتحركون ولا يتكلمون ولكن هذه هى تمبكتو . ومد يده إلى جيبه ليجد خطاب التوصية الذى حمله إلى سيدى عبد الله أحد وجهاء مدينة تمبكتو . لم يكد سيدى عبد الله يقرأ الخطاب حتى أكرمه ووجد له مسكنا . ومن الصدف أن يجئ هذا المسكن فى مواجهة البيت الذى عاش فيه الرحالة الإنجليزى الذى قتل . وكان كابيه يجلس وقد أخفى وجهه فى الصحف يقرأ . وفى نفس الوقت يرسم الشوارع والبيوت .. ويخفى رأسه ووجهه تحت ملابسه . ويمر به الناس ويقولون : مسلم مؤمن .. فتح الله عليه ..

ولكنه كان شديد الخوف والفزع .. إنه لا يعرف مصيره .. إنه لا يدرى هل يعود ..

وكان يحكم المدينة رجل زنجى اسمه الأمير عثمان . وكانت له زوجات كثيرات . وكان من الضرورى أن يحنى رأسه . ولم يستطع أن يرفع عينيه ليرى بوضوح ماالذى ترتديه نساؤه .. إنه لم يكن يقوى على أن يرفع عينيه إلى مافوق الركبة .. ولاحظ أن الرجال لا يضربون المرأة هنا . وكتب يقول : كلما كان الرجل متحضرا ، كانت المرأة متحررة . وقال : إنهم فى أفريقيا لا يستعبدون المرأة ، ولذلك فهم متحضرون .. والمرأة متحمسة لأساليب الزراعة الجديدة أكثر من الرجل . لأن عبء الزراعة يقع عليها .. ولذلك فكل وسيلة جديدة تخلصها من هذه الأعباء ، هى شديدة الحماس لها .. إن المرأة هى التى تريد الحضارة التى يصنعها الرجل !

والمرأة مكشوفة الوجه . الأقراط فى أذنيها والعقود حول عنقها وعلى صدرها . وهناك أقراط فى الأنوف أيضا .

وفى يوم ٤ مايو قرر أن يسافر مع إحدى القوافل المتجهة إلى الشمال وعليه أن يسارع لأن القافلة التالية سوف تجئ بعد ثلاثة شهور . واستأذن من سيدى عبد الله . وأعطاه كل ما عنده من ملابس ومن أدوات للزينة وأكواب زجاجية .. واعطاه سيدى عبد الله بعض الهدايا أيضا . وتمنى له سيدى عبد الله السلامة والسلام .

أما القافلة المتجهة إلى الشمال فكانت تضم ٦٠٠ جمل . وتركت مدينة تمبكتو يوم ٤ مايو . ثم توقفت عند قرية اسمها الأروان . وهناك شرب الجميع الكثير من الماء وحملوا معهم أيضا . وشربت الجمال . فأمامهم ثمانية أيام بلا ماء ولا شجر . ثمانية أيام فى الصحراء .. فى رمال الصحراء فى بحار الرمال ، فى عواصف أو محيطات الرمال الخانقة المميتة . أو فى

الموت الرملى .. فى استطاعتك أن تختار من العبارات ما تشاء . فالذى حدث لا تصفه أو تقدر عليه أية كلمات . وهاج الرمل والجو ودارت الجمال وداخت وتساقط الناس . وتوقفوا تماما . . يوما . . يومين . . لا شئ يهدأ .. كل شئ ركبه عفريت .. ألف عفريت .. ومات كثيرون .. وأحس كابيه أن الماجور لانج كان من الممكن أن يموت وسط هذه العواصف إذا لم يقتله أحد .. ولكن لماذا قتلوه ؟ إنه أخذ يستعرض أسباب قتله ووجدها أسبابا وجيهة لقتله هو . فهو لا يعرف كيف يصلى بعض الصلوات. ولكن لحسن حظه أن أحد فى هذا الجو المهلك لا يستطيع أن يصلى وإذا صلى فإن أحدا لا يتبين ما الذى يفعله .. وكانت الجمال تبكى وتئن على فراق الأحباب – هكذا يقولون ..

وسقط من فوق الجمل على الأرض .. وطارت الخيام وراءه وأمامه .. وهدأ كل شئ . وبدأ الناس يضحكون . وكان هو نكتة الرحلة فقد لاحظوا أنه لا يعرف كيف يصلى وكان يحاول أن يقنعهم بأنهم يصلون هكذا فى مصر . ولكن أحدا لا يصدق ذلك . فهم لا يستبعدون أنه أجنبى وليس عربيا ..

وبعد أيام ترك الجمل واشترى حمارا . وفى الطريق إلى مدينة فاس بمراكش اشترى بغلا ويوم ١٢ أغسطس وصل إلى مدينة فاس . وهى أجمل مدينة رآها فى أفريقيا . وفى هذه المدينة عادت إليه روحه مع الأشجار والنخيل والطعام والظل والماء والوجوه الحلوة . وكان عليه أن يمد يده من أول مدينة فاس إلى مدينة مكناس . فهو عظم على جلد . وجيبه فارغ . ومعدته خالية . ويوم ١٤ أغسطس استأنف رحلته مفلسا تماما . وركبت وراءه أنثى ممتلئة . لو كان الأمر فى يده لاستلقى بظهره على صدرها . ونام .. ولكن زوجها يمشى وراءها ولكن يبدو أنها لا تمانع كثيرا لو فعل . وإلا فما معنى أن تعطيه بين لحظة والأخرى شريحة من البطيخ .. وتحرص على أن تعطيها

له من فوق كتفه .. فإنها تريد أن تضعها فى فمه مباشرة .. ان هناك علاقة غريبة بين الطعام وأشياء أخرى . . ولكن أين هى الصحة ؟ أين هى راحة البال .. إنه مهدود الحيل .. فهو على سفر ، وفى عذاب ، وتحت ضغط ، وفوق دمامل فى قدميه منذ شهور .. ان شرائح البطيخ نعمه كبرى . والحمد لله على ذلك .

ويوم ٧ سبتمبر وصل إلى مدينة طنجه عند الغروب ، واتجه إلى القنصل الفرنسى . وعرف الناس وشهدوا أنه كان قادما معهم من تمبكتو .. وقدم له القنصل ملابس أوروبية .. وبعد أيام اتجه إلى فرنسا . ولو عرف هؤلاء المغاربة أو هؤلاء الزنوج انه فرنسى اختفى بينهم لقتلوه . وعندما وصل إلى طولون أقفل على نفسه باب غرفة صغيرة ونام يومين .. حتى ظن أهل البيت أنه مات .. وصحا من النوم ليقول : أنا كدودة القز أموت لكى أعيش من جديد !

يقول : هؤلاء الذين عاشوا بعيدا عن أوطانهم وخافوا ألا يعودوا أو خافوا أن يموتوا فى النسيان ، لا يعرفون سعادتى وأنا فى طريقى إلى أرض الوطن ، ناجحا أطلب الثمن الذى استحقه . . أو التعويض الذى لا يمكن أن يقدر بثمن !

وفى سنة ١٨٣٠ نشرت الجمعية الجغرافية الفرنسية رحلة رينيه كايبه بعنوان « رحلات فى أواسط أفريقيا حتى تمبكتو عبر الصحراء الكبرى ، إلى مراكش فيما بين ١٨٢٤ و ١٨٢٨ » . وفى سنة ١٨٣٨ توفى رينيه كايبه وهو فى الأربعين من عمره ..

يقول فى مذكراته : عندما ذهبت إلى البيت وفى رأسى أن ألقى بنفسى عند قدمى أمى .. أبكى وأبكى وأبكى .. فقد عذبتها بغيابى الطويل .. انها لم تعرف أين ذهبت ولا ماذا فعلت .. سوف استغفرها .. وسوف أعلق

الهدايا على عنقها وفى ذراعيها .. وسوف أعطيها المكافأة الكبرى التى فزت بها .. تعويضا لها .. تعويضا متواضعا ..

يقول رينيه كابيه : دخلت وجدت أمى جالسة على مقعدها . فى ملابس جميلة . وعلى المائدة تفاح ونبيذ وجلست تقرأ فى الكتاب المقدس .. قلت صارخا : أمى .. قالت : ولدى .. ولم يدر بيننا كلام .. اننى مجرم .. أوالمجهول هو المجرم الحقيقى .. لماذا حدث ما حدث .. لماذا .. سكتت أمى من الفرحة .. ولم تنطق .. ماتت » .

كالسحاب تدفعه الريح
في أيّ اتجاه

هناك طريقة قديمة لكى يسقط أى إنسان من طوله ، يبيض شعره ، ويجف ريقه ، ويندم على ما فات .. هذه الطريقة هى أن يتلقى خطابا من شخص يقول له أحضر فورا . وتكون المسافة بينه وبين هذا الشخص عشرة آلاف ميل عبر الصحارى والغابات وعلى ظهر حصان .. أكثر من حصان .. هذا الشخص اسمه : جنكيز خان القائد العسكرى السفاح المغولى الذى ارتاد القارة الآسيوية بالعرض وقطع أوروبا من الغرب . وكانت النار تسبقه والدخان يتبعه .. أما الدموع فيخوض فيها . وأما الدماء فشرابه المفضل ..

أرسل جنكيز خان إلى حكيم يعيش فى عصره اسمه شان شون خطابا يقول فيه : احضر لأكون مسرورا .

وكان العالم فى ذلك الوقت ، أى فى بداية القرن الثالث عشر يضم ثلاث حضارات : أوروبا المسيحية والشرق الأوسط الإسلامى الذى يضم شمال أفريقيا والأندلس (أسبانيا) وأواسط آسيا . والحضارة الصينية . وقد عاش شان شون فى ذلك الوقت حياة هادئة كأن شيئا لا يدور حوله . وكأنه وحده فى هذا الكون لا يهزه شئ ولا يهتز لشئ .. منتهى الحكمة !

وفى سنة ١٢١٩ جاء خطاب من جنكيز خان يطلب إليه أن يزوره فى معسكره . ومعسكره يقع على حدود أفغانستان . وكان الفيلسوف يعيش بالقرب من مدينة بكين عاصمة الصين وكان هذا الفيلسوف الحكيم فى الستين من عمره . نحيف الجسم قصير القامة . البعض يقول إنه شفاف لدرجة أنه يمكن للإنسان أن يرى الأشياء التى وراءه وأمامه . ويقال إنه عاش ثلاثة

قرون . وأنه كلما بلغ المائة ولد من جديد . وأنه يشبه الأغنام الصينية التى إذا ماتت نبتت من الأرض ، ولذلك فالأغنام والفلاسفة لا يموتون . فهذا الرجل يملك سر الحياة الدائم . وقالوا عنه : إنه يجلس كالحجر ، ويقف كالشجر ، ويتدفق كالنهر ، ويمشى كالعاصفة .

وفى يوم من أيام سنة ١٢١٩ اقترب من بيته عدد من الجنود .. وراءهم عدد من الخيول وقبلهم عدد من الطبول .. وتخفى الجميع سحب من الغبار . الباب يدقونه أو يقتلعونه. والكلام سهام ونبال . والرجل الحكيم هدف لأشياء كثيرة لا يدريها . ويسقط من فوق الخيول رجال كثيرون يتقدمهم واحد ويلقى برسالة ، على شكل اسطوانة على صدر الحكيم شان شون . الرسالة من جنكيز خان حاكم ذلك الزمان تقول : سيدى لقد نجحت فى القيام بأعمال جليلة : لقد وحدت العالم كله فى إمبراطورية واحده . ولا أفرق بين الناس . ولأن طموحى كبير ، فهمومى كبيرة أيضا . وأخشى يا سيدى ألا أكون على صواب فى كل ما فعلت . ولذلك فحاجتى إليك مثل حاجتى إلى حب الناس وبركة السماء ولكى اهتدى سواء السبيل استعنت بالعقلاء والحكماء فى كل بلد .. فلم تبق إلا كلمتك . ولذلك أدعوك أيها الأستاذ الفيلسوف .. بيننا أنهار وجبال . ولا أستطيع أن أجئ إليك . اعذرنى . فتعال أنت . تقدم ناحيتى بخطوانك المقدسة . لا تفكر فى هذه الجبال والصحارى التى بيننا : ان حكمتك تجعل الجبال صحارى ، وتجعل الصحارى وديانا وتجعل الوديان خطوات قصيرة وعند نهايتها تجدنى خاشعا فى انتظار نورك الهادى إلى خير الناس . فارحمنى وساعدنى واعطنى مما أعطاك الله . ان القليل من فضلك يمكننى من حكم الملايين بالعدل . صحيح أن رجلا واحدا استطاع أن يحكم ويتحكم فى نفسه لأقوى من جنكيزخان . ابعث لى كلمة واحدة ففيها سعادتى . »

إن رجلا مثل جنكيز خان لا ينتظر الكلمة لواحدة مهما بدأ متواضعا

فكلماته أوامر . وأوامره قضاء وقدر . وليس أمام هذا الحكيم إلا أن يسافر إلى القائد المغولى الكبير . وجنكيز خان فى خطابه هذا يشير إلى أنه استطاع فى سبع سنوات أن يوحد الشرق والغرب . وهذا القائد الرهيب عندما ولد سنة ١١٥٦ لم يكن سوى أحد أبناء قبيلة فى شرق سيبيريا ولكنه عندما كبر استولى على القبائل المجاورة بالسلاح .. بالدم والإرهاب . واتجه إلى الغرب واستولى على شمال الصين وشمال الهند وسمرقند وبخارى . وكان من الممكن أن يتوقف عند هذا الحد لولا أن أحد ملوك إيران قد ارتكب حماقة . فقد أرسل إليه جنكيز خان بعض رجاله فشنقهم . هنا ثار القائد المغولى وانتقم لرجاله بملايين القتلى والجرحى وإحراق البيوت والقصور والآثار والمزارع وإغراق الأطفال فى دم الأمهات وإحراق الآباء فى دم الأمهات . لقد عجن الأرض بالدم وجففها بالنار ومضى فوقها يبحث عن أمجاد جديدة !

وكانت أعمال أو أمجاد جنكيز خان حديث العالم كله . وكانت مضروبة فى ملايين الناس .. ولذلك كان عملاقا مهيبا مروعا . فإذا طلب شيئا كان الشىء .. ولذلك التف المريدون حول الحكيم يبكون فراقه. لأنه لابد أن يسافر. وكان الحكيم يقول لهم ، سأراكم بعد ثلاث سنوات . ويسألون : كيف ؟ فيقول : إيمانكم القوى سيعود بى ..

أما الحكيم فديانته اسمها « التاوية » أو « الطاوية » : وكلمة طاو معناها الشارع .. أو الشرع .. أو الشريعة .. أو السير وراء العقل بحثا عن الإنسجام بين كل شىء فى نفسك وفى جسمك وفى الناس حولك وفى الكون . وصاحب هذه الديانة رجل صينى اسمه لاوتسى عاش قبله بثلاثة عشر قرنا . فهذا الحكيم إذن هو خير من يمشى فى منتصف الطريق .. أى طريق .. لا يلتوى ولا يهتز ولا يخاف ولا يخيف ..

وجاء واحد من الأمراء ومعه عدد من الخيول . ليحمل أمتعة الحكيم .

وخرج معه الحكيم ومن ورائه عشرون من حوارييه ومعهم أمتعتهم . وكانوا يحملون الكثير رغم أن الحكيم أخبرهم : مادام فى الأرض عيش وفى السماء سحاب وفى الصدور هواء فالموت أبعد من جنكيز خان . ولكنهم صغار يخافون عليه وعلى أنفسهم . وكان يقال إن الحكم يخفى رأسه فى ملابسه ويأكل ولا أحد يعرف ما الذى يأكله ، انه يكتفى بنفسه ، يشم رائحة اللحم ويشبع !

ويبدو أن أحد الرسل - وهوأمير - كان يحمل رسالة هامة أخرى إلى إحدى القبائل فى الطريق . وتوقف هو والألف حصان والجنود. وغاب يوما ثم عاد ومعه عشرون فتاة . ولما علم الحكيم أن هذه الفتيات فى طريقهن إلى جنكيز خان اعتذر عن المضى فى رحلته . ولكن أحدا لا يستطيع أن يفعل ذلك حيا أو ميتا . فقسم الأمير القافلة إلى قسمين : الحكيم فى المقدمة . . وبعده بيوم واحدقافلة الفتيات العشرين . .

وفى الطريق سأله الأمير : سيدى الحكيم بما أن القائد قد دعاك لأخذ رأيك فى أشياء كثيرة . فلماذا لا تلقى نظرة على الفتيات . . فهو يحب النساء . .

ولما استاء الحكيم . . عاد الأمير يقول له : آسف لا تؤاخذنى إننا نعيش فى الصحارى كالأموات ولا نعرف كيف نخاطب رجلا حكيما مثلك . . إذن لا داعى لأن ترى كلّ أجسام الفتيات . . السيقان فقط . . أو الصدور فقط . .

وظهر الامتعاض الشديد على وجه الحكيم ولم يقل شيئا . . فعاد الأمر يقول له : هل تحب أن تراهن جميعا وهن يغتسلن .. سوف أقيم لهن خيمة . . وأنت تنظر من ثقب فى الخيمة . . إن الأمر خطير جدا . . وفى ذلك حياتى أو موتى . . فقد اخترت الفتيات من ألف واحدة . . لأن القائد يشترط أن تكون لكل فتاة علامة خاصة . . والفتاة التى ليس لها علامة ،مثل الأغنام التى لا توجد بها بقعة بيضاء فى رأسها . . إنه يتشاءم . . أرجوك ياسيدى الحكيم العظيم !

ورفض الحكيم ومضت القافلة وراء القافلة .

والرحلة بدأت يوم ٢٠ مايو سنة ١٢٢٠ . وبعد شهر من هذه الرجلة قرر الحكيم أن يستريح فى أحد الأديرة وجاءت الأوامر بضرورة السفر وجاء الشتاء . وبدأ الحكيم يسعل وينزف دما . فقرر أن يبقى إلى ما بعد الشتاء . واستأنف السفر فى ١٣ مارس سنة ١٢٢١ وجاء الأمير يقول للحكيم : إن واحدة من الفتيات تريد أن تحدثك فى أمر خاص .

فقال الحكيم : إن العاقل لا يحدث شخصا واحدا . . إنه يتحدث إلى الواحد كأنه يتحدث إلى الألف . . ويتحدث إلى الألف كأنه يتحدث إلى نفسه . . هات كل الفتيات .

وتضايق الأمير . . ولم تحضر الفتيات ومرض واحد من تلامذته . . فتركه وراءه . . وبكى التلميذ وهو يقول : إنى أركع عند قدميك ياسيدى : ويقول الأستاذ : إن حياتنا وموتنا ليسا بأيدينا . . إنها إرادة السماء أن تموت هنا .. وأن أموت هناك أو تموت أنت هناك وأموت هنا .. فنحن هنا وهناك أحياء أو أموات . . لأن السماء هنا وهناك . . فلا تبك يا ولدى !

وفى الطريق مرت القافلة على أرض واسعة مليئة بالجماجم والجثث وآثار الحرائق . . فقال الحكيم : الآن فقط بدأت الرحلة إلى جنكيز خان !

وبعد أرض المعركة التى انتصر فيها جنكيز خان بدأت الصحارى الواسعة ومعسكرات الجنود . وفى الطريق استقبله القواد والأمراء . . وجاء الربيع ولكن الجليد لم يذب ولا هدأت الريح . .

ويوم ٢٣ ابريل سنة ١٢٢١ عبر صحارى جوبى . واعترضه معسكر الأمير تاموجا الأخ الأصغر لجنكيز خان . وقدم له الهدايا والملابس . . وحمله رسالة إلى أخيه الأكبر . وكان الأمير الصغير مريضا . وطلب من الحكيم أن ينفرد به لأمر هام . . وجلس الأمير والحكيم . . قال الأمير :

سيدى إنى علمت أنك لا تطيق الكلام فى كل ما له علاقة بجسم الإنسان ، رجلا أو امرأة . . ولـكن ما الذى يفعله النبات إذا لم يجد المـــاء .

قال الحكيم : كل ماء قذر إذا دخل جسم النبات صار طاهرا . . إلا جسم الإنسان !

قال الأمير : ولـكنى لا أستطيع أن أكون نباتا .

قال الحكيم : بل النبات هو الذى لا يستطيع أن يكون إنسانا . .

قال الأمير : وهل المـــاء يغنى عن المرأة !

قال الحكيم : امرأة واحدة تغنى عن كل النساء .

قال الأمير : ولـكن الإنسان لا يأكل وجبة واحدة فى اليوم .. ولا يوماً واحداً فى العمر . .

قال الحكيم : ولـكن العاقل يعيش على وجبة واحدة فى اليوم وفى العمر كله هذه الوجبة هى : أن يرضى بالقليل من القليل ليعيش الـكثير من الكثير من الأيام .

قال الأمير : لم أفهم .

قال الحكيم : لن تفهم .

ثم أشار إلى الفتيات الجالسات العاريات عن يمينه وشماله . .

وكتب أحد تلامذة الحكيم شان شون فى مذكراته عن أهل هذه البلاد التى مروا بها قال : إنهم يعيشون فى خيام بيضاء . . الرجال والفتيات غير المتزوجات يجعلون شعرهم على شكل ضفيرتين . أما المتزوجات فيضعن طاقية من القش عالية . . وهذه الطاقية تتغطى بالحرير الأحمر . . والكلام يدور بين الناس على أنه قانون . . والمعاهدات مصافحة باليد . ويستحيل أن يخلف الإنسان وعده أو يكسر كلمته .. أما المرأة فوجهها مشدود . وعيناها زائغتان وهى تعلم أن لهذا ظهرا جميلا . ولذلك تحرص على أن تدير

ظهرها وتحنيه إلى الأمام عند الكلام . ولذلك لا يضربون المرأة على ظهرها . وإنما على صدرها . وهو يستحق الضرب فليس فيه نهدان بارزان .

ويعبرون الجبال فى أغسطس . .

وبعد هذه الجبال ذات الألوان المخيفة الكريهة هبطوا إلى الوديان . . فهنا أشجار العنب . هنا النبيذ . هنا الخمر . هنا المرح . . هنا حب الحياة والخوف من الموت والرغبة فى الهدوء . هنا المرأة الواحدة تكفى للرجل الواحد . هنا المرأة تكشف الكثير من جسمها بلا خوف . وفى أحد المعسكرات برزت فتاتان من غانيات الأسرة المالكة فى الصين . ركعت الفتاتان عند قدمى الحكيم . . واحدة قالت : من سعادتى أن أراك . فقد سمعت عنك . وشاءت الظروف (وأشارت إلى جسمها العريان) أن أراك فى الوحل . . ولكنى سعيدة أننى رأيتك . . وإن لم تكن أنت سعيدا لذلك ! ولكنك شمس لا تحجب نورها عن زريبة الخنازير !

فقال الحكيم : صدقت !

وقالت الثانية : إننى أريد أن أمشى وراءك . . خذنى معك .

قال : سهل أن تمشى ورائى . . صعب أن تمشى ورائى وأنت هنا . . فابقى يا ابنتى . . ولتساعدك السماء على نفسك وعلى سعادتك !

وسأل الحكيم إن كان من الممكن أن يبقى حتى يذهب الشتاء . فقيل له : الأوامر صريحة . . امض فى طريقك إلى القائد !

وكان عليه أن يترك وراءه كل اتباعه فالرحلة ما تزال طويلة . والخيول تتساقط تحت الأتباع من التعب ومن كثرة الأمتعة التى يحملونها . وودعوه وبكوا . وأقاموا لنفسهم ديرا . . وراحوا يندبون الأيام التى فصلت بينهم وبين النور والعقل والشريعة والشارع والمشرع . . ومضى الحكيم إلى جنكيز خان .

ثم أصبحت الرحلة كلها فى الليل لأن الخيول تنزف دما فى النهار . . ثم اكتشف الحكيم أن الخيول لا تنزف دما من التعب . وإنما من عادة المغول أن يجعلوها تنزف تخفيفا عنها ــ علاج مغولى معروف ؟

وفى يوم ٣ ديسمبر سنة ١٢٢١ وصلوا إلى مدينة سمرقند (أوزبكستان السوفيتية الآن) وفى ابريل سنة ١٢٢٢ كان الحكيم على مدى ساعات عن القائد الرهيب جنكيزخان . وكان معسكر جنكيزخان بالقــرب من مدينة كابول (أفغانستان الآن) . ولم يشأ جنكيزخان أن يقابل الحكيم خارج المدينة وإنما جعله يخوض الطريق إلى خيمته بين عشرات الألوف من الجنود والخيول والأبقار والطبول والنيران والدخان والسهام والرماح . . ولـكن الحكيم قرر أن يغمض عينه فلا يرى شيئا وأن يضع يديه على أذنيه فلا يسمع شيئا فهو مشغول بما يراه فى أعماقه وما يسمعه عن السماء . لأن الحكيم هو الرجل الذى امتلأ بنفسه واستغنى بها عن غيره !

وأفاق على سيف ذهبى يلمس يديه . . إنه الآن أمام القائد جنكيزخان .

قال له جنكيزخان : أيها الحكيم . . إن الملوك والأمراء دعوك ولكنك رفضت . . ودعوتك أنا فقطعت عشرات الألوف من الأميال من أجلى .. إننى إذن لرجل سعيد . .

وقال الحكيم : سفرى إليك إرادة السماء . . فأقدارنا وأعمارنا بين السماء .

وكان جنكيزخان تضايق قليلا فقال : إن رغبتى متفقة تماما مع إرادة السماء .

قال الحكيم : نعم إنها إرادة السماء !

وجاء الطعام والشراب . . وأقيمت خيمة فخمة للحكيم وتلميذه الوحيد الذى سجل هذه الرحلة وهذه المناقشات . . وجاءت الملابس الحريرية والأحذية والعمامات القطيفة . ومضى يوم . . ويوم آخر . . وجنكيزخان

يحوم حول خيمة الحكيم ولكنه لا يجرؤ على الدخول . . فرجاله يقولون إن الحكيم لم يتوقف عن الصلاة والدعاء منذ جاء . . وكذلك تلميذه ، ويقولون له : إنه لا يأكل ولا يشرب ولا يخرج من الخيمة ليغسل وجهه فى دورة المياه . . ثم إنه لا ينام . . وإنما هو جالس ووراءه تلميذه . . ولا يزال فى غاية الحياة كأنه نهض من نومه توا . . ولكن جنكيز خان لا يصبر عن رغبته . . فدخل الخيمة . . ولم يعتذر وقال : أنت تعرف لماذا أتيت بك . .

هل من الضرورى أن يبقى تلميذك معنا .

قال الحكيم : نعم من الضرورى . أن غيابه يجعلنى أحس أن هناك شيئا أخجل منه . . لا شئ فى نفسى أو فى جسمى . . أخجل منه !

وتضايق جنكيزخان وقال : ولكنه يضايقنى . .

قال الحكيم : إنما جئت أعلمك يا ولدى . .

قال جنكيز خان : إذن . . أنت عرفت لماذا أتيت بك .

— لا أعرف .

— ولا أحد قال لك فى الطريق تلميحا أو تصريحا .

— قالوا الكثير . ولكنى كنت مشغولا عنهم .

— ألم يكن فى القافلة فتيات .

— كان فيها .

— إذن ؟

— كان فيها رجال وخيول وأبقار .

— ولكن الفتيات من أجلى . .

— وكل شئ أيضا .

— إننى أكره النساء .

– وهل تحب الرجال .

– نعم .

– وهل يحبك الرجال ؟

– إن الرجال لا يحبون الأقوى !

– والنساء لا يحببن الأضعف !

– لست ضعيفا . . ولكنى . .

– ولكنك ضعيف .

– والعلاج .

– أمامك الطريق . . الشارع . . الشريعة . . أن تمشى وسط الطريق . . وسط العواصف . . وسط النزوات . .أن تعدل بين ما تريد وبين ماتستطيع .

– ولكنى أفعل ذلك . .

– لو كنت تفعل ذلك ما أتيت بى من آخر الدنيا . .

– إذن ما الذى أفعله مع الفتيات .

– ما فعلته مع ألف فتاة قبل ذلك .

– ولكنى أشعر بالخجل بعد لحظات . . ولذلك افقأ عيون النساء حتى لا يرين ضعفى وهوانى . .

– لا حيلة لى معك . .

– لايوجد سر للحياة . . ولا عندى سر الحياة . .

– ولكن عمرك ثلاثة قرون وما تزال قويا . . أعطنى سر الحيوية والشباب . . إننى استطيع أن أقتل أى إنسان .

– ولكن لا تستطيع أن تقتل حقدك على كل إنسان . .

— إن النساء سعيدات مع جنودى تعيسات معى . . أعطى بعض حيويتهم وشبابهم .

— لا أملك يا ولدى .

— بعد هذه الرحلة الطويلة — وبعد هذا الانتظار الطويل تقول إنك لا تملك —

— ولـكن رحلتى أقسى من انتظارك .

— إن إعجابى بصراحتك لا يفوقه إلا حزنى عليها !

— لو عرفت الحقيقة ما حزنت يا ولدى ؟

— الذى أعرفه أحزننى . . . أنت لا تعرف كل الحقيقة .

— وهل يعرفها أحد .

— النساء يعرفنها .

— حقيقتك أنت فقط .

— أنا أتكلم عن حقيقتى وعن يأسى .

— لم أعد أجد لذة فى الصيد .

— ليس الصيد بل القتـــل !

— لم تسترح إلى شئ مما أفعل هنا ؟

— لم أسترح . . إنك تأمر رجالك أن يستحموا فى الأنهار حتى لا تكون لهم رائحة كريهة . .

— نعم . . هل أعجبك ذلك . . أنا سعيد !

— ولـكنى تعيس يا ولدى . . إنك تأمرهم بأن ينظفوا أجسامهم ولـكنك لم تقتل واحداً ضرب والديه . . إن فى الدنيا ثلاثة آلاف خطيئة . . ولـكن أم الخطايا هى أن يضرب الابن والديه .

ولم يعد جنكيزخان يرى الحكيم شان شون .. واستأذن الحكيم فى العودة إلى الصين ، عشرات الألوف من الأميال حول الجبال وفى الوديان وعبر الصحارى على ظهور خيول تتساقط وأبقار تسحب العربات وتنزف الدم وتتساقط وقدم له جنكيزخان الفى حصـــان والفى ثوب وبعث معه بفتاة جميلة . ولم يعترض عليها . ولمـــا سأله أحد الأمراء لمـــاذا لم ترفض الفتاة ؟ قال الحكيم : وهل رفضت شيئا أو قبلت شيئا ؟

* * *

وفى يناير سنة ١٢٢٤ وصل إلى مدينة بكين بعد ١٣٠٠ يوم . ولمـــا التف حوله الأتباع والحواريون سألوه ماذا قال لك ؟

قال الحكيم : إنما سألنى كيف يكون الإنسان قويا فى كل حين وفى كل وقت ومع كل الناس ؟

وسألوه : فماذا قلت يا أستاذنا العظيم ؟

قال : أقوى الناس أضعفهم .

وأضعف الناس أقواهم . . والحكيم من ليس قويا ولا ضعيفا . . إنه الذى لا يريد . . والذى لا يريد أن يريد ؟

وعلى قبر الحكيم الصينى شان شون منقوش هذا الكلام ، آخر كلماته قبل أن يموت للمرة الرابعة أو الخامسة — كما يقولون : ما الذى يهم أن أعيش أو أموت . إننى مثل السحاب أذهب إلى حيث تدفعنى الريح . ذهبت مهزوما إلى قائد منتصر فقهرته بهزيمتى !

لو تزوج هذا الشاب

حلاوتهم

مثل أشياء كثيرة تحدث فى هذه الدنيا .. فنحن نحب فى الوقت غير المناسب .. ولكن أصعب حالات الحب أن يحبك شخص لا تريده فى وقت لا تريده وبصورة مخيفة ويصبح الحب هو الموت .. إما أن تحب هذا الشخص أو تموت .. ويكون الحل الوحيد بعد هو أن تتظاهر بالحب لتصبح قادرا على الحياة بعد ذلك .. أما اسم هذه الحياة ونوعها فموضوع آخر ..

كل ذلك فى مدينة اسمها واو .. واو بالقرب من نهر النيجر فى أفريقيا الغربية ، فى يناير سنة ١٩٢٥ ، وفى معسكر رحالة إنجليزى مشهور اسمه هيوكلا يرتون ، ولكن هذا الرحالة ليس هو موضوع الحب ، ولا طرفا فى الحب وإنما الطرف الذى يضحك على ما يجرى حوله .. وعنده متسع من الوقت لكى يتسلى ، ويتخيل ماذا يحدث لو عرف الشعب الإنجليزى وعرفت الجمعية الجغرافية ماذا جرى وكيف جرى وما جرى .

أما الطرف الحقيقى فى قصة الحب فهو خادمه الشاب الطويل الوسيم ريتشرد ليمون لاندر (١٨٠٤ — ١٨٣٤ وكان فى الواحدة والعشرين من عمره .. وهذا الشاب لاندر قد سافر من انجلترا إلى أمريكا عدة مرات وعمل فى التجارة وهو فى العاشرة من عمره ، وركب كل أنواع السفن ، وواجه كل المصائب البحرية والجوية ، وغرق مرتين وتعلق بلوح خشبى يومين كاملين وشرب من ماء المحيط أضعاف وزنه ، والتهب جلده حتى كان يقال إن اللحم إذا وضع عليه احترق وحتى قيل أيضا إن ملاك الموت عندما جاء يقبض روحه فتح بطنه فوجد قلبه قطعة من الفحم فرفض أن يتسلم هذه الجثة لأن التعليمات التى عنده أن يقبض أرواح الأحياء لا أرواح الموتى .

وكان هذا الشاب يسمونه وهو صغير باسم القرموط وأحيانا باسم الحوت لأن البحر يرفضه كلما حاول أحد إغراقه ، وقد حدث ذلك أكثر من مرة ، فعندما كان يعمل على سفينةنقل تجارية ، شرب القبطان كثيرا وراح يتسلى فألقى ببعض البحارة فى المـاء ، وبعضهم احتفظ به البحر ، أما هذا الشاب فكأنما ألقاه القبطان على أرض من المطاط . لم يكد يلمس الموج حتى تحول الموج إلى أذرع قوية أعادته إلى ظهر السفينة — هذه رواية القبطان ولا أحد يعرف إن كانت قد حدثت أو أن الخمر هى التى صورت له هذه الحادثة ، أما الطفل لاندر فلم يكن قادرا على أن ينفيها أو يؤكدها .. على الرغم من أنه سمع القبطان يعيدها ويزيدها أمام البحارة مئات المرات ، وعلى كل حال أفادته هذه القصة ، فلم يعد القبطان يلقى به فى المـاء بعد ذلك .

حتى عمل لاندر خادما للرحالة الانجليزى كلايرتون ، وكان الرحالة مكلفا بارتياد غرب أفريقيا ومعرفة منابع نهر النيجر ، وإن كان صحيحا أن هذا النهر على صلة بنهر النيل وإن كان صحيحا أن هناك قبيلة من الزنوج لهـا ملامح أوروبية . وحددت الملامح الأوروبية فى ذلك الوقت بأنه ليس ضروريا أن يكون الشعر من النوع (السايح) وإنما الأنف صغير والشفتان ممتلئتان والوجنتان غير ناتئتين والعيون قاتمة اللون ، ويقول كلايرتون إنه رأى شيئا من ذلك ولـكنه ليس على يقين فلابد من أن يرى بوضوح وعن قرب ، وأن يرسم بريشته هذه الملامح وأن يحدد مكانها على الأرض وبين الغابات والجبال .

ولسبب غير معروف تماما استدعىَ هذا الخادم أخاه الأكبر ليرافقه فيما بعد .

ولـكن قصة الحب وقعت فى وقت كانت القافلة قد أعدت كل شىء سرا للانتقال من مدينة(بوسه) إلى مدينة (واو) . الخيول والشيالون والصناديق

المقفلة والطعام ، والسهام والنبال والأدوية والبوصلة ، وفى اللحظة التى تقرر فيها كل شئ جاءت سيدة ضخمة الجثة ، أو هى جثة غير مناسبة الأبعاد . . الصدر كأن طفلا أو اثنين يرقدان عليه . . وأرداف كأنها لفيل والذراعان كأنهما فخذان والعينان واسعتان ، البياض ناصع والسواد فحم ، والأسنان عاج والشفتان داميتان ، وجاءت هذه السيدة على ظهر حصان ، ومن ورائها رجالها ونساؤها أيضا ... وعدد من الخيول وعلى الخيول رجال وفى أيدى الرجال سهام ورماح . . ومن وراء الجميع أطفال يسحبون عددا من الكلاب والجواميس . .

والتفوا جميعا حول الخيمة التى أقام فيها السيد الانجليزى وخادمه . ومع السيدة مترجم . . قالت له السيدة قل لهم إننى زوما .

وكلمة زوما هذه معناها حلاوتهم . . فقال لهم إنها زوما .

وأشارت إليه أن يقول إنها جاءت لمهمة تتعلق بالشرف والكرامة وإنها إذا اتخذت قرارا فلا رجوع فيه والعالم كله يعرف ذلك . . وهى اليوم قد اتخذت قرارا وتريد أن ينفذ قرارها بسرعة قبل طلوع الشمس ، وأنها بطبعها شديدة القلق ولا تصبر على شئ وردد المترجم وراءها كل كلمة . ومع كل عبارة كان رجالها يتحركون يمينا وشمالا فى حالة من الفزع أو الخوف أو التخويف .

وعادت حلاوتهم تقول : إننى اخترت لنفسى هذا الشاب .

وأشارت إلى الخادم الانجليزى لاندر . .

أى أنها اختارته زوجا لها . وكان زوج حلاوتهم قد توفى بعد زواجه منها بسنة واحدة ، وانجبت منه ولدا ثم ورثت منه الكثير من الرجال والخدم والجواميس والأموال والسلطان وهى أشد شراسة من كل هؤلاء الرجال وهى قادرة على أن تبرهن على قوتها كأن تقول لواحد منهم اقطع لسانك . .

فيخرج لسانه من بين أسنانه ثم يضغط عليه فإذا هو يقفز من بين أسنانه كضفدعة . . ثم يلتقطه قبل أن يسقط على الأرض ويبتلعه من جديد . . ويظل يبتلع ريقه الدامى فى هدوء . . لقد فعلت ذلك كثيرا . . وطلبت إلى رجالهـا أن يقطعوا أصابعهم . . وأن يقتلوا أنفسهم . . كل ذلك فعلوه سمعا وطاعة مع عظيم الاحترام والامتنان .

ولم يفهم الرحالة الإنجليزى وخادمه ما الذى تريده حلاوتهم . ولكن من المؤكد أنهم احسوا أن كارثة قد وقعت . فهذه السيدة تستطيع أن تعطل رحليهم إلى أى مكان .

وقال المترجم إن السيد الأبيض سعيد بكل ما سمع وهو يطلب إليها أن تعطيه بعض الوقت لـكى يفكر . .

وانصرفت حلاوتهم ورجالهـا . . وبعد ساعة عاد رجالهـا ومعهم الطعام والحيوانات المذبوحة ومعهم الفاكهة هدية من السيدة إلى الشاب الذى أعجبت به . وأحبته من أول نظرة . وراحت تتغزل فيه . . وتلمس ذراعه وبشرته . . وشفتيه وساقيه وتتحسسه كأنه جاموسة قبل أن تذبحها .

وفى اليوم التالى جاءت حلاوتهم برجالهـا وخيولهـا أيضا . ولكنها هذه المرة كانت أرق وأجمل . . لقد كانت مجموعة من الألوان الغريبة شعرها دهنته بالنيلة — أى باللون الأسود الميال إلى الزرقة . . وشفتاها قرمزيتان . . وملابسها من حرير أحمر . . والذهب يتدلى من صدرها وأذنيها . . وفى قدميها حذاء مراكشى . . وعلى ذراعيها أساور ذهبية . . وأمامها على ظهر الحصان صندوق مفتوح . وفى الصندوق كميات أخـــرى من الذهب . . كأنها تريد أن تقول للخادم الإنجليزى إنه إذا تزوجها فكل هذه الثروة وصاحبتها . سوف تكون رهن إشارته فهى وما ملكت من ذهب وحيوانات ورجال وغابات ثمن لقلبه . فما رأيه .

وقد كتب ريتشرد لاندر قصة مغامراته ورحلاته مع سيده فى كتابه المشهور بعنوان (سجلات آخر رحلات) الكابتن هيوكلايرتون مع رحلات أخرى للمؤلف .

اما عبارة الخادم فشاعرية جميلة . وفيها خفة روح . وفيها أبيات من الشعر القديم والمعاصر . . وفيها بعض الأغانى التى التقطها من أفريقيا أيضا .

أما حلاوتهم هذه فقد عطلت رحلاتهم تماما . . وسدت الطريق . والليل تحول إلى قطعة من العذاب . أما النهار فهو سجن طويل عريض . ولابد من أن يقول كلمة واحدة نعم . . يجب أن يحبها وأن يتزوجها وأن يترك سيده يمضى فى طريقه ويبقى هو ملكا على هؤلاء الناس . لأن حلاوتهم قررت ذلك وأرسلت أناسا يشترون فساتين الزفاف . وأن هناك عددا من النجارين يبنون بيتا للعروسين . ويصنعون سريرا عاليا . وأما طفلها فهى على استعداد للتضحية به إذا أمر الحبيب .

إن حلاوتهم على درجة كبيرة من الذكاء . وهذا واضح . ولابد أنها كانت جميلة جدا يوما ما . فهى فى الأربعين من عمرها أو ربما أكثر قليلا. فابنها شاب فى الرابعة والعشرين .

والقبائل كلها تعرف كيف أن حلاوتهم جمعت رجالها وهاجمت قبيلة مجاورة وقتلت عددا من رجالها ونسائها وأطفالها . ثم وقعت هى فى الأسر .

وسجنها الملك محمد ثم أفرج عنها بعد يومين ولما سألته حلاوتهم لماذا لم يقتلها . كان الرد المعروف لو كنت رجلا لقتلتك . وقالت له : لماذا لم تقتل إبنى ؟ وكان رد الملك محمد .. لو كان رجلا لقتلته .. وردت عليه حلاوتهم : سوف يكون رجلا .. فخذه عندك حتى يكبر واقتله بعد ذلك وكان رد الملك محمد .. كما روى لنا الخادم لاندر : إن الذى يأكل فى بيتى لا أقتله ولن يقتلنى .

وكان رد حلاوتهم : إذن سيأكل فى بيتى وسأعلمه أن يقتلك عندما يكبر ..

وكان رد الملك محمد . . هذا واجبك . نحن فى انتظار ذلك اليوم . .

ولكن حلاوتهم عادت وجمعت رجالها وهاجمت قبيلة الملك محمد . وكانت تريد أن تأسر واحدة من زوجاته . وبعد أن ظلت فى السجن يومين أطلق سراحها . فعادت إلى أهلها منكسة كانت من النوع العنيد من النساء اللاتى بلغن سن اليأس وتحب أن تكون مرهوبة أو مرغوبة من الرجال .. المهم أن تكون مرغوبة وهذا هو الذى جعلها تصر على الاستيلاء على الخادم الإنجليزى الأبيض .. الأزرق العينين الذهبى الشعر .. وبأى ثمن من المال أو من الرجال .

وفى الليل عادت حلاوتهم تحاصر خيمة الرجل الأبيض . ومعها مترجم آخر . لابد أنها قتلت المترجم الأول لعلها شكت فى قدرته على أن ينقل للحبيب الأبيض ما أرادت .

وكان لابد أن يقرر الخادم لاندر إن كان سيتزوجها الليلة ويبقى معها إلى الأبد . هذه مسألة عاجلة وواضحة وجاءت حلاوتهم وفى ملابس أخرى وألوان صارخة . وعرت صدرها وكشفت عن ساقيها . . وعرضت كل مفاتنها . وقال لها لاندر : لا أستطيع أن أتزوج حلاوتهم .

وقالت حلاوتهم : ولكننى لست سوداء . . إننى بيضاء .

وكانت قد طلت وجهها بالأبيض أما ملامحها فهى بعيدة كل البعد عن الزنوج .. الشفتان رفيعتان وهذا شئ عجيب والوجه مستدير والشعر مشدود ناعم مسحوب إلى الوراء طويل . . والعينان واسعتان . . سوادهما غريب لا يوصف . . والأنف مرفوع ومن العجيب أن الأنف مدبب . . فهى لم تخطئ كثيرا عندما قالت إنها بيضاء . .

وحاول الكابتن كلايرتون أن يقنع خادمه بأن يبقى بضعة أيام هنا . وليس من الضرورى أن يكون زوجا وإنما يسكن معها فى بيت واحد .

رهو يخشى من موسم الأمطار . ولابد أن يذهب بمفرده . ومعنى ذلك أن إصرار الخادم على عدم البقاء سوف يعطله . وأنه لا يستطيع أن يبقى ومعنى ذلك أن الكابتن سوف يضحى بخادمه . أو من الواجب أن يضحى الخادم بنفسه من أجل سيده. المهم لابد من قرار . ولا يزال الطريق طويلا بين (بوسه) ومدينة واو . . واو فما الحل ؟ كان على الخادم أن يجد الحل بسرعة وهذه الليلة .

واتفق الكابتن مع حلاوتهم على ضرورة أن يكون القرار بالرفض أو بالقبول هذه الليلة واصر الخادم على الرفض .

ولم يكن إصراره على الرفض نتيجة لمناقشات دارت فى يوم أو يومين . . ولكن فى أربعين يوما . . هو يقول وهى تقول نفس الكلام . . وتعود هى ورجالها لتجئ فى اليوم التالى .لا تغيير فى الكلمات ولا فى شكل الرجال . وإن كانت فى كل مرة تزداد رقة وجمالا وعندما قرر الخادم لانذر نهائيا أن يقول لا . . كانت المفاجأة العجيبة . . لقد طلبت حلاوتهم إلى المترجم أن يقول إذا رفض هذا الشاب فأنا أطلب يد سيده .

أى أن المهم هو أن تتزوج رجلا أبيض . فما الحل وأعلن الكابتن موافقته.

وفى الصباح جمع الكابتن رجاله واتجه إلى الشمال . . ومن ورائه سارت حلاوتهم . . وقد اصطف أهل القبيلة جميعا . . الذين يدقون الطبول والذين يدقون قطعا من الأخشاب وجاء الآخرون وتسلقوا الأشجار . . . ووراء الجميع همهمات . . . ولا أحد يعرف إن كانوا يودعونها حزنا عليها أو فرحة للتخلص منها . . أو يحسدونها على السيد الأبيض . . . وظلت الموسيقى والطبول تردد اصداؤها حتى ابتعدوا تماما عن مدينة بوسه متجهين إلى مدينة (واو . . واو) فى أقصى الشمال وعلى مدى مائة كيلومتر من نهر النيجر .

ولكن عندما مروا بإحدى القبائل فوجئ الخادم بأن الملك محمد قد أمر بالمقاء القبض عليه وقال : لقد ألقيت القبض عليك حتى يعود سيدك .

فقد كان الملك محمد يخشى أن تذهب حلاوتهم إلى تأليب القبائل الأخرى عليه . كما أن الملك محمد قد اتهم الكابتن الإنجليزى بأنه شريكها فى التواطؤ عليه . . ولكن الخادم استطاع أن يهرب على ظهر حصان والحصان بلا لجام ولا بردعة . . والخادم مرهق مريض . . وقد عاونه على الهرب طفل فى الثانية عشرة من عمره وأثناء الهرب إلى مدينة (واو . . واو) وقع أسيرا فى أيدى رجال قبيلة أخرى وصحبوه إلى الخيام الملكية . . ولكن الملك والملكة استقبلاه ورحبا به وطلبا إليه أن يروى لهما كل شئ . . من أين جاء . . وإلى أين . . وماذا رأى فى الدنيا . . أما عينا الملكة فكانتا تأكلانه وتشربانه .. أن الملكة راحت تقيسه بالمليمتر .. وتدغدغه بعينيها .. وخاف الخادم الشاب إن تتكرر قصة حلاوتهم .. ولكن الملكة كانت رقيقة .. وكان هو مرهقا . . ثم أفاق ليجد نفسه فى غرفة وأن هناك مصباحا مضيئا إلى جواره وأن حارسا قد تكوم فى ركن من الغرفة لقد نام الخادم من شدة التعب . وعندما نهض من نومه هب يعتذر للملك والملكة عن سوء أدبه وكيف أنه نام وهما يتحدثان إليه . إنه التعب .. وكان عندهما استعداد لقبول أى عذر ومن الغريب أن الملكة سألته هذا السؤال أليست لك أم فى بلدك؟ وكان جوابه : بل ماتت وأنا فى التاسعة من عمرى . وكان تعليق الملكة على ذلك : إننى أدركت ذلك . .

ولم يفهم الخادم لاندر كيف عرفت الملكة ذلك . . لابد أنها كانت تنوى أن تتنبأ مثلا . . أو لعلها أرادت أن تقول لو كانت له أم ما تركها تتعذب بغيابه عنها . . وفى هذه المناطق القاسية على الرجل الأبيض . . أو لعلها لاحظت أنه مسكين غلبان . . وقد كان بالفعل كذلك فالجوع والعطش والسفر المتواصل والخوف من المرض ومن رجال القبائل قد هد حيله .

وأقنعه الملك بأنه لا يستطيع اللحاق بسيده . . فالطريق صعب .

ولما عاد سيده الكابتن إلى مدينة (واو . . واو) وصل هو أيضا فى نفس الوقت . . ويقول الخادم لاندر أن سيده هذا رجل دبلوماسى . . فقد انحنى طويلا أمام الملك محمد وهو يقول : مولاى مارأيت أجمل منك ولا أرق منك . . إن كل الملوك يتحدثون عن عظمتك . . وعن حكمتك . . فعندما سمعت ذلك اعتبرت نفسى من السعداء الذين حبتهم السماء لأننى رأيتك . واليوم أعود اليك أنتظر رأيك وأمرك .

وابتسم الملك محمد ولكنه قال له : إننى اتهمك أنت وحلاوتهم بمحاولة قلب نظام الحكم هنا والاستيلاء على السلطة .

وأنكر الكابتن ذلك طبعا . . ثم جاءت حلاوتهم . . وركعت وقبلت الأرض . ودعت للملك محمد بالنصر وطول البقاء . ثم وضعت بعض التراب على وجهها . ثم نفضت التراب عن قدميها كدليل على أنها بريئة من كل تهمة. ثم تراجعت . وغابت ساعة . . ثم عادت وقد ارتدت ملابس سوداء . . أى أنها عادت أرملة لا عروسا تريد أن تتزوج ولا ثائرة تريد السلطة أو الحكم.

وكان ذلك يوم ٥ ابريل سنة ١٨٢٨ إن حلاوتهم هذه قد جعلت الكابتن وخادمه يقطعون مسافة مائة كيلو متر فى أكثر من ثلاث سنوات ذهابا وإيابا وكان عليهما أن يردا عليها بكلمة واحدة . . نعم قبلت الزواج منك .

وعندما عاد لاندر إلى انجلترا جريحا بسهام رجال القبائل فى يناير سنة ١٨٣٤ قال لأخيه . . لقد انتهى كل شئ الآن . . وسافرت وشبعت من السفر .. وغامرت ومرضت وتعذبت وبعد أيام سوف أموت.. ولكن بقى شئ واحد فاتنى أن أعمله . . ولكن سوف أحدثك عنه فيما بعد . . إن كان لى عمر . .

وفى يوم ٦ فبراير أحس الخادم لاندر أن نهايته قد دنت . وقد ظهر

القسيس بالقرب من فراشه . . إذن جاء الموت . . وهذه مقدماته . . جاء الموت . . . الدموع فى العيون . . والقسيس لا يكف عن الدعاء والطبيب لم يعد يقترب منه . . إذن لقد تركوه وحده ليسافر وحده . . فى تلك الرحلة الهادئة بلا ضوضاء ولا أضواء ولا ألم . . اقترب منه أخوه فقال له الخادم لاندر وهو يضحك : ماذا كان يحدث لو قبلت الزواج من حلاوتهم ؟

لا أحد يعرف طبعا . . ومات .

ليلة من نار
في ذكرى والدم

كانت السفينة مليئة بالهموم بعدد الذين يعملون فيها ولـكن القبطان بلاى (٣٣) سنة كان حائرا بين أن يعرفه الناس على أنه ملاح بارع . أو على أنه رجل عنده ضمير . ووجد أن الضمير مسألة شخصية ، وأن الشهرة مسألة عامة . .

فقرر أن يشتهر بين الناس على أنه رجل عنده ضمير . . ولـكنه حوكم وسجن أكثر من مرة على أنه رجل لا ضمير له . ولكن الحكومة الإنجليزية كانت فى كل مرة يخرج من السجن تتولى ترقيته . . أى أنها ترفعه إلى أعلى أو تضربه إلى فوق . . سياسة قديمة . .

كانت مهمته أن ينقل بعض أشجار الخبز . . أو الخبزيات من جزر تاهيتى فى المحيط الهادى إلى جزر الهند الغربية . ولذا كان لابد أن يأخذ معه على ظهر السفينة عددا من علماء النبات أو عددا من المشتغلين بزراعة البساتين . أما السفينة فأسمها (بونتى) وحمولتها ٢١٥ طنا . وعدد رجالها حوالى الأربعين رجلا . قد اختارهم هذا القبطان الشاب بنفسه وهذه المهمة كلفته بها (الجمعية الجغرافية الملكية) وذلك فى اواخر سنة ١٧٨٧ . ولـكى أكون دقيقا فإن هذه الشجيرات تنمو فى جزيرة واحدة من جزر تاهيتى أسمها (جزيرة الجمعية) لأن هذه الجزيرة قد اكتشفها بحار بتكليف من الجمعية الملكية . .

ولابد أن الجمعية تعرف أن القبطان بلاى قادر على أن يحقق المعجزات . فهو شخصية قوية . طويل نحيف . . أسود الشعر أزرق العينين شاحب

الوجه ، وهو من أقدر الناس فى ذلك الوقت على رسم الخرائط . . وأشدهم فهما للنجوم وحركات المياه والأمواج . . ثم إنه كان من رجال الرحالة المشهور كوك الذى اكتشف عددا كبيرا من جزر المحيط الهادى وليس غريبا على المحيط الهادى ولا على هذه الجزر ، ويقال إنه هو أيضا اكتشف جزءا ومنعه الحياء من أن ينسبها إلى نفسه ، وكان سعيدا عندما نسبت كل هذه الجزر إلى سيده ومولاه جيمس كوك . .

ومن مزاياه أيضا أنه لا يشرب كثيرا ، وهو بذلك يختلف عن كل قباطنة السفن ، ولكنه فى نفس الوقت يشبه كل رواد المحيطات فهم طراز من الناس أدمن اليقظة ومات وهو يحلم بالنوم . .

ومن بين الرجال الذين اختارهم واحد اسمه كريستيان (٢٤ سنة) وهذا الرجل من المهم أن نذكر اسمه لأن له دورا مثيرا فى هذه الرحلة وهذا التاريخ أيضا ، وشهد كل الرجال بأن كريستيان هذا استطاع أن يحقق معادلة تاريخية صعبة وهى كيف يكون الإنسان مضحكا ومحترما . إن كريستيان من أسرة غنية ، ولكنه دميم ، وربما كان هذا المدح نوعا من التعويض الذى يقوم به كل يوم . ومن أهم الشخصيات التى اختارها القبطان بلاى إثنان من العازفين ، فالبحارة فى هذه الرحلات الرهيبة المؤ ة فى حاجة إلى من ير ه عنهم .

وتلقى التعليمات بأن يبدأ رحلته يوم ٢٤ نوفمبر سنة ١٧٨٧ التاريخية بلا توقف من إنجلترا إلى جزر تهايتى مارا بالطرف الجنوبى لأمريكا وبعدها يدور حول جنوب إفريقيا إلى أندونيسيا ، ولم تكن التعليمات مفاجئة له ، لقد استعد لها ، فقد أتى بالطعام والشراب واللحوم . . وأعلن منذ اللحظة الأولى إنه هو الذى سيتولى توزيع الطعام والشراب وبذلك يكون هو الحياة والموت لكل الذين معه ولكن لسبب غير معروف ثار على صديقه كريستيان هذا ،

وكان يستمتع دائما بتعذيبه واهانته ولم يفهم أحد سر هذا القرار ، وقيل إنه يلعب بسلطته أو يلعب بحريته . . ثم إنه ما يزال شابا . .

ولم تتحرك السفينة من إنجلترا إلا يوم ٢٣ ديسمبر ١٧٨٧ بعد أن غادرت الشاطئ الإنجليزى تلقفتها العواصف والأمواج وهشمت آنية الطعام والشراب . وكانت بداية سيئة ولكن تتفق مع طبيعة القبطان الشاب الذى رأى الرحالة كوك وهو يعانق العواصف ويبصق على الأمواج وكان لابد أن تتوقف السفينة عند جزر كنارى ، وأعاد شحن السفينة بالطعام والشراب ، ولم تكد السفينة تخرج من هذه الجزر وتمر بخط الاستواء حتى تحول القبطان إلى وحش وإلى شاب سليط اللسان وعباراته نابية . مثلا فى مناسبة تافهة قال : يا أولاد الكلاب سوف أجعلكم تأكلون الأعشاب ومرة أخرى هذا البحر طريق للسفن ومقبرة لأقذر الناس .

ولكن المناسبة كانت لاتستحق ذلك كله فقد لاحظ أن جزءا من الفاكهة قد سرقه البحارة ، فعاقب الجميع بأن ألقى الفاكهة فى البحر .

وفى المحيط رأى سفينة صيد بريطانية فبعث معها برسالة إلى ا(الجمعية الملكية) يقول فيها : نحن على أتم وفاق ، الرجال بصحة جيدة ، والسفينة حوت صغير ، وسوف نعود جميعا دون أن ينقص منا مسمار واحد .

ملحوظة . . آسف سوف نأكل الخنازير . .

وكان القبطان بلاى يقول . . لابد أن يتحقق العدل إلى أقصى درجة

وكان يستخدم العصا وأحيانا الحبال فى ربط البحارة وضربهم والإدلاء بهم فى الماء عراة .

وإذا قرر أن يعاقب أحد البحارة فإنه يستدعى كل رجالة ويطلب إلى واحد منهم أن يقرأ على الجميع نص العقوبات التى يجب فرضها على المخطئين وكان يختار أشد العقوبات .

وعندما مرت السفينة عند الطرف الجنوبى لأمريكا تلقفتها العواصف والتيارات البحرية ودفعت بها إلى أماكن بعيدة . . ثم عادت ودفعتها إلى اتجاه عكسى . . حتى أن البحارة قد مروا على بعض الجزر مرتين خلال شهرين دون أن يكون لهم أى سلطان على السفينة أو على شراعها . . وكان الجليد يغطى الوجوه . وكان البحارة فى حالة من الإرهاق . حتى فكر واحد منهم أن يقتل الجميع لكى يرحمهم من هذا العذاب ، ولكنه انتحر ، وصلى عليه القبطان ، ثم تلفت إلى بقية الرجال وسأل إن كان أحد يريده أن يصلى عليه ، ولم يرد أحد . . ولا هو سمع من يقول فى خوف . . بلى أريد أن أصلى أنا عليك . .

وعند رأس الرجاء الصالح توقفت السفينة . وامتلأت بالطعام . واتجهت بعد ذلك إلى جزر الهند الغربية وبلغتها بعد ٥١ يوما . . ومرت السفينة شمالى استراليا . ونزل بعض الرجال وأتوا بالماء واللحوم وكان قد رأى هذه المنطقة قبل ذلك بأحد عشر عاما مع سيده جيمس كوك . .

وفى يوم ٢٨ أكتوبر بعد رحلة استغرقت ٢٨ الف ميل توقفت السفينة عند جزر الجمعية . وهناك رأوا جمال الطبيعة . . والحرارة . . والخضروات والفاكهة والفتيات . . وناموا وقاموا وعاشوا شهورا عديدة . . وتسللت فتيات تهايتى السمراوات إلى فراش الرجال ولكن القبطان كان بعيدا عن كل شئ . فهو يرى أن القبطان يجب أن يحتضن عظمته فقط .

ولم ينس القبطان بلاى أن يقرأ التعليمات كل يوم على رجاله . ولكن الفقرة رقم واحد فى كل التعليمات هى ألا يقول واحد منهم . لأى سبب إن الرحالة كوك قد مات قتيلا فى جزر هاواى سنة ١٧٧٩ أى قبل ذلك بتسع سنوات . . حتى تظل للرجل الأبيض هيبته وقداسته عند أهل الجزر .

ونزل علماء النبات إلى الجزر وجمعوا النباتات من كل نوع . ونصبوا خيمة . وفى الخيمة رقص وشرب وفتيات حتى الصباح . . وكان القبطان

سعيدا بذلك . فرجالة يسهرون طول الليل ويعملون طول النهار ، ولا يقوى واحد منهم أن يفتح فمه بكلمة. فكلما أصطاد رجل خنزير أو جمع فاكهة استولى عليها ، وعاد الرجال يجمعون الحيوانات والفاكهة من جديد . . أما العلماء فكلما جمعوا بعض النباتات ألقى بها القبطان فى المحيط مدعيا أنها أعشاب ميتة ، ولكن السبب الحقيقى هو أنه لايريد لرجاله أن يسترخوا على الشاطئ أو يستطعموا هذه الحياة . . إنه حاكم بارع ، والبراعة هى أن ينشغل الناس عنه ، وأن تتحطم قواهم فلا يرفع واحد منهم أصبعه أو رأسه .

ونجحت هذه السياسة . . وكانت الأيام المائة والخمسون التى عاشوها فى تهايتى من أجمل ساعات حياتهم ولكن فى هذه الجزيرة أدرك البحارة أى نوع من الرجال هذا الرجل ، وفى الدفء وأثناء الشراب وفى أحضان الفتيات اتفقوا على أشياء كثيرة ، وأخفوها عنه .

وفى يوم ٥ أبريل سنة ١٧٨٩ ، هرب ثلاثة من البحارة فى زورق صغير . واستطاع أن يستردهم القبطان وعاقبهم بالجلد والسجن . ووضع السلاسل فى يدى أحد البحارة ليكون عبرة للجميع .

ولكن البحارة وقد عرفوا العذاب ، صنعوا لأنفسهم زورقا خشبيا وفى إحدى الليالى اتفق الجميع على أن هذه هى اللحظة الحاسمة .. وقرروا الانتقام وتقدمهم كريستيان ، ودخل غرفة القبطان وهو يقول له .. أنت . ياأخ .. انهض من فراشك أيها الكلب فأنت سجين منذ هذه اللحظة .

وراح القبطان يصرخ وينادى بقية الضباط . ولكن تكاثر عليه الرجال وربطوه بالحبال وسحبوه إلى سطح السفينة ، وشدوه إلى الصارى وضربوه ومزقوا ملابسه وجلدوه .

وتعالت صيحات : اقتلوا السافل .. الحقير .. اجلدوه .. اسلخوه .. اذبحوه .. أغرقوا هذا الخنزير .

وركع القبطان بلاى وبكى وهو يقول .. الرحمة من أجل زوجتى وأولادى الثلاثة .

فقالوا له .. وهل عرفت الرحمة من أجل زوجاتنا وأولادنا .. جاء دورك .

ثم أعطوه زورقا ، وخيروا بقية البحارة بين البقاء على ظهر السفينة والنزول مع القبطان .. بعضهم قرر الذهاب معه .. أما الباقون فاختاروا السفينة الأم ..

ولكن كريستيان بعد أن تخلص من القبطان احتفل بذلك اليوم ، وفى نفس الوقت قرر أن يفعل شئ لم يفعله أحد من قبل ، جمع رجاله وقال لهم لن نعود إلى أوروبا ، سوف نعيش هنا سنختار لنا جزيرة ونقيم فيها وحدنا . وكان على ظهر السفينة ستة عشر رجلا وست عشرة فتاة من بنات تاهيتى .. وفى يوم ١٥ يناير سنة ١٧٩٠ وصلوا إلى جزيرة صغيرة اسمها يتكرن مساحتها كيلو متران مربعان ، وهى تبعد عن تاهيتى حوالى ثلاثة آلاف ميل ..

ونزل الرجال جميعا إلى الجزيرة وكانت مفاجأة عندما وجدوا أن ثلاثة من أهل تاهيتى قد اختبأوا فى السفينة إذن لقد اختل توازن القوى بين الرجال والنساء ومع ذلك نزل إلى الجزيرة الصغيرة وقسمها إلى تسعة أقسام حتى لا تقع معارك بين الجميع .

وحتى يضمن كريستيان ألا يعود أحد قرر إحراق السفينة ، وراحت السفينة تشتعل وهو يبكى على فراقها .

وبعد سنوات عاد القبطان بلاى إلى انجلترا . وعاد على ظهر سفينة أخرى وحاصر الجزيرة واعتقل الهاربين وحاكمهم وأعدمهم .

وفى سنة ١٨٠٤ اشترك القبطان بلاى مع الأميرال نلسون فى معركة

كوبنهاجن ، وحوكم وعوقب بتهمة سوء الخلق والسفالة ، وأنه لم يكن رجلا مهذبا فى معاملة الرجال. وبعد أن خرج من السجن عينه الإنجليز حاكما لإحدى مقاطعات استراليا . وهناك حاصره المواطنون وأسروه وسجنوه سنتين ، فعاد إلى انجلترا ، وعين أميراً للبحر ومات سنة ١٨١٧ .

وفى سنة ١٨٢٤ حاول بعض البحارة إن يعرفوا إن كانت جزيرة يتكرن الضئيلة خالية من المواطنين .. وإن كان هناك أى أثر للناس البيض فيها ..

ونزلوا إلى الشاطئ ، واندهشوا جدا عندما وجدوا أطفالا لهم بشرة بيضاء ، وشعر أصفر ، وعندما سألوا الأطفال وجدوهم لا يعرفون الإنجليزية ولكن دلوهم إلى كوخ ، وفى الكوخ وجدوا رجلا كبيرا فى السن أشقر اللون ، وقدم الرجل نفسه قائلا .. اسمى سميث .. أنا الحى الوحيد فى كل البحارة الذين جاءوا إلى هذه الجزيرة ، وعلى استعداد لأن أسلم نفسى تمهيدا لمحاكمتى فى انجلترا ..

ولكن البحارة نظروا إلى شيخوخته وإلى ضعف بصره وقرروا أن يتركوه يموت فى هدوء .

أما قصته فهى أن كريستيان عندما جاء إلى هذه الجزيرة كانوا سعداء .. كل واحد له زوجة .. وحملت النساء وأنجبن ومات الكثير من الأطفال ، ودارت معارك بين السكان الأصليين للجزيرة بعضهم البعض . هؤلاء السكان الأصليون كان عددهم ستة وكانت معهم ثلاث نساء .. وتقاتل الرجال وجاء واحد منهم وقتل الأطفال الصغار فقامت النساء وقتلن كل الرجال الملونين .. أما كريستيان فقد أعدمه القبطان بلاى عندما جاء إلى الجزيرة ينتقم .. ولكن بقيت بعض الأمهات .. وكان البحار سميث هو الرجل الوحيد فى هذه الجزيرة وكان عليه أن يكون زوجا لعشر من النساء يحملن ويلدن بانتظام ، وكانت

الواحدة منهن تنبه البحار سميث إلى اليوم المخصص لها . وكانت للزوجات طريقة غريبة فى ذلك .. فإذا جاء يومها تنام أمام باب الكوخ عارية تماما .. وقد غطت نفسها بأوراق الورد .. ووضعت ثمار الفاكهة عند قدميها .. فإذا صحا الزوج من نومه وجد أن واحدة قد تسللت من فراشه عند الفجر .. فإذا فتح الباب وجد واحدة أخرى قد تغطت بالعطور وتغطت بالزيوت .. وعليه أن يرفع عن وجهها الورد .. وفى هذه اللحظة تنادى أطفالها الصغار بالطعام ، وتتولى هى طهى الطعام .. أما الأطفال الصغار فيقومون بتدليك الأب .. ثم سحبه إلى المحيط للاستحمام .

أما أكبر الأطفال جميعا فاسمه .. خميس لأنه ولد يوم خميس الأول من أكتوبر .. أما اسمه بالكامل فهو .. خميس أكتوبر كريستيان .. وقد أقسم هذا الولد أن يحمل اسم والده وهو الاسم الوحيد فى الجزيرة ، فتزوج كل الأمهات .. وكل الفتيات الصغيرات بعد ذلك .. وانجب منهن جميعا ٣٥٠ طفلا لهم اسم واحد هو كريستيان واخترع يوما واحدا فى التاريخ اسمه يوم جهنم .. أو ليلة من نار وفى هذا اليوم يصنع تمثالا ويكتب عليه كلمة بلاى .. ويحرقه بينما الجميع يرقصون ..

أما نقل شجيرات الخبز إلى جزيرة الهند الغربية فلم تتم فى هذه الرحلة لأن السفن لم تبرح جزر تهايتى كما أن السفينة نفسها بكل ما عليها من أعشاب قد أحرقت .

يقول سميث الرجل الوحيد الذى عاش فى هذه الجزيرة بعد ذلك فى مذكراته التى سلمها للبحارة الإنجليز : انتهى كل شئ ولكن يجب أن أعترف بأن القبطان بلاى كان رجلا بارعا .. ولكن كان يحتقر كل إنسان له أب أو له أم .. لو كانت لهذا الرجل أم يعرفها .. ما كان هكذا متعطشا إلى أن يوجع قلب كل أم على ولدها .. من الأفضل للجمعية الجغرافية الملكية أن تكف عن إرسال اللقطاء عبر المحيطات .

صفقة خاسرة

لم يبع رجلا واحدا!

رجال الدين والفلاسفة ورجال الأخلاق يلعنون صفة الغرور عند أى إنسان .. ولكن بصراحة .. هذا الرجل يرى أنه لولا غروره ما كان هو شخصيا ولا كانت أعمالا كثيرة مجيدة قام بها لنفسه ولبلاده ... وإذا كان المثل يقول المرأة لا تحب الرجل المغرور لأنه يحب نفسه ولأنه ليس فى قلبه مكان لإنسان آخر .. فليس من الضرورى أن يكون فى القلب مكان آخر لشئ .. بل وليس من الضرورى أن يكون للإنسان قلب فثلاثة أرباع العذارى فى الدنيا من نصيب الذين يملكون قلوبا أوسع وأكبر وأرق .

هذا الرجل هو الرحالة الإنجليزى سير جون هوكنز ، ولكى أقدمه لك بسرعة وفى كلمات قليلة أقول .. إنه أول تاجر للرقيق فى بريطانيا ، وهو يباهى الأمم الأوروبية إنه أول من كسر احتكار أسبانيا والبرتغال لتجارة الرقيق إلى أمريكا .. شرف عظيم جدا ..

وكان هذا الرجل يستمتع برضا خاص من جلالة ملكة بريطانيا ، وليس هنا مكان تفسير سر هذا الرضا الرفيع ولاداعى لأن نستخدم كلمات الحب والجنس فى تفسير هذه العلاقة ولكنها كانت راضية عنه تماما ، وساعدته ماديا وأدبيا ، لأنه أدى للأسطول البريطانى فى حربه ضد الأسطول الأسبانى .. الأرمادا .. تضحيات لا توصف ، ربما ولكنه تاجر إنجليزى يبيع أبناء أفريقيا إلى أبناء أمريكا .

وقد كتب التاريخ يوصف هذا الرجل بأنه أول من أحسن معاملة البحارة وطلب إليهم المستحيل : أحبوا بعضكم بعضا .. وإذا كان لابد من

الشجار فاستخدموا أيديكم وليس السلاح .. وإذا كان لابد من استخدام السلاح فهناك شرط واحد ألا تكونوا سكارى .

قبل أن يسافر هوكنز إلى أمريكا سبقه إلى هناك بسنوات رجل أسبانى وكان ذلك فى يوم الجمعة الحزينة من سنة ١٥١٩ ، وظن الهنود الحمر أن هذا الرجل إله .. هذه أول غلطة .. فالأساطير تقول إنه سيجئ رجل أبيض وملابسه سوداء ، ويجئ من الشرق شاحب الوجه ، على جزيرة عائمة ، فإذا جاء كان على الجميع أن يطيعوه ، وأن يسعدوا بلقائه ، فهو وحده الذى سوف يحل مشاكلهم ، وبعدها السلام على الأرض وبين الناس .. وفى هذا اليوم رست سفينة البحار الأسبانى كورتيس ، ومنذ ذلك اليوم أصبحت المكسيك من ممتلكات أسبانيا .

أما الأرض التى رست عندها السفينة فقد أصبحت الميناء الشهير الذى اسمه سان خوان دى أولوا .. ثم جاء البابا وباركها .. نيووولد يصف هوكنز وصوله إلى هذا الميناء بعد ذلك فيقول : كان يوما مؤلما بكينا جميعا .. بل إن الألم نفسه كان يجب أن يبكى على ما أصابنا ..

وفى نهاية ١٥٦٧ خرج هذا التاجر الإنجليزى بسفينته متجها إلى غرب أفريقيا لعله يأتى ببضعة آلاف من العبيد ، ولم يكد يقترب من الشاطئ الأفريقى حتى هبت عاصفة ، العاصفة أغرقت خمس سفن ، ولم تبق معه سوى سفينة واحدة ، وغرق أكثر رجاله فى الماء ، وعادت إلى الشاطئ سفينته ، ثم عاد إلى انجلترا لينال مكافأة أكبر ..

وعاد مرة أخرى إلى غرب أفريقيا ثم رسا بسفينته فى (داكار) ونزل رجاله وكان عددهم ١٥٥ رجلا ، وكانت التعليمات لديهم أن يجمعوا أكبر عدد ممكن من الزنوج : الأطفال والنساء فى الدرجة الأولى والرجال فى الدرجة

الثانية ، والشيوخ لا ضرورة لهم ، ولم يكن فى حاجة إلى تفسير تعليماته هذه .. فالنساء قادرات على الولادة والأطفال سوف يصبحون رجالا ، والرجال يقاومون ، وصيدهم صعب، والشيوخ لا ضرورة لهم .. إنهم عبء يأكلون ولا ينجبون أطفالا ..

وهناك تعليمات أخرى ممنوع منعا باتا النساء الحوامل الرقة معهن واجبة ، فالحامل تساوى اثنين ، لذلك فحياتها غالية ، ومن يأتى بها له مكافأة أكبر ...

وتسلل رجاله إلى الغابات ، وتطايرت السهام والنبال والأعيرة النارية ، فزع الزنوج ، بعضهم مات وأصيب رجاله بأمراض غريبة وصفها هو فى مذكراته ، وهو أول إنسان فى العالم وصف مرض التيتانوس أو حمى التيتانوس أو تقلصات التيتانوس فى التاريخ ، ويقول سيرجون هوكنز وهو يصف المصابين من رجاله : يحدث انكماش عجيب فى الوجه ، ويصبح الشخص غير قادر على تناول أى شئ . ثم ما يشبه الشلل تماما وبعد ذلك بعشرة أيام يموت .

التفسير الحديث لهذا المرض هو أنه سمى مرض روز نسبة إلى طبيب عالمى اسمه روز.. وصفاته .. تقلص يصيب الرأس ، ويصبح بلع الطعام صعبا مع تقلص شديد فى عضلات الوجه ويصحبه شلل فى عضلات الوجه ويكون ذلك على أثر جرح فى الرأس .

وهبت عاصفة عنيفة جدا .. وغرقت أربع سفن بها أكثر من ألفين من الزنوج وعشرات من البيض ولم يحاول التاجر الإنجليزى إنقاذ أحد لا من البيض ولا من السود فقد كان عصبيا ، وكان من المؤمنين بالتشاؤم والتفاؤل وكان يعتقد أن واحدا من بين رجاله هو مصدر هذا التشاؤم أو هذا النحس ، قال بصراحة وقال أنه لو كان الأمر بيده لأغرق رجاله جميعا منذ خرج من انجلترا .

وقد لاحظ التاجر الإنجليزى أن الزنوج كانوا سعداء عندما رأوا رأسا بشريا عائما على وجه الماء ، واندهش ، وفى ذلك اليوم هبت الرياح غربية على سفنه .. إلا سفينة واحدة إسمها (يسوع) وحاول أن يفهم منهم ما الذى يأتى بالحظ السعيد .. فقالوا : رأس رجل أبيض .

وتضايق التاجر الإنجليزى وكتب فى مذكراته : من الغريب أن هذا صحيح ففى هذا اليوم تشاجر اثنان من البحارة ، وقام واحد إلى الآخر وقطع رأسه وألقى به فى الماء . ورآه الزنوج وظهرت التعاسة على وجوههم وفى ذلك اليوم هبت الرياح غربية فى قوة وهدوء واتجهت السفن كلها إلى عبور المحيط .

ولكن التاجر الإنجليزى تنبه إلى أن عدد الزنوج ليس كافيا ، فعاد إلى الشاطئ مرة أخرى ، ونزل هو ورجاله يوم ٢١ يونيو سنة ١٥٦٨ ، وقرر أن يقوم بحملة واسعة لصيد أكبر عدد ممكن .. وتصدى له ملك هو أحد شيوخ القبائل .. يقال له ملك الأشواك الحمراء . وتم التفاهم بين الإثنين على محاصرة قبائل أخرى وكانت خطة التاجر الإنجليزى أن يتعاون مع الملك ثم يلقى القبض عليه هو ورجاله أيضا .

وعلى مدى عشرة أيام سقط قتلى وجرحى وأسرى .. وبلغ عدد الغنائم أكثر من ٥٠٠ من النساء والرجال والأطفال ، أما الرجال البيض فقد أحرقوا البيوت المصنوعة من سعف النخيل ومات منهم أربعة وجرح أربعون أما الملك نفسه فقد هرب ومعه رجل أبيض ويقال إثنان ولم يعثر لهما على أثر بعد ذلك .. وحاول التاجر الإنجليزى أن يستردهما ولكن قلبه لم يطاوعه فى أن يضيع هذه الغنائم من أجل اثنين من البيض .

وفى يوم ١٢ أغسطس واجهتهم عاصفة رهيبة .. عالية الموج .. مزقت أشرعة السفن وأطاحت بالأسرى من العبيد إلى الماء ؛ بلا عودة ، وكانت

التعليمات لدى الأسبان ألايقدموا طعاما أو شرابا للإنجليز .. ولكن الجزر الصغيرة التى مروا بها قرب الشاطئ الأمريكى ظنتهم من الأسبان، فقدموا لهم الطعام، ولكن المـاء تسرب إلى قاع السفن ، وبالقرب من جزر كوبا قرر التاجر الإنجليزى إصلاح سفنه ، ورست السفن ، وقبل أن ترسو السفن قيد الأسرى بالحبال والسلاسل .. وقبل أن يهبط رجاله إلى الأرض أمسك واحدا من الزنوج وقطع ذراعه اليمنى .. ثم اليسرى .. والزنوج يصرخون .. وبعد ذلك ربطه بحبل .. وفى الحبل حجر كبير .. وألقى به فى المـاء .. لعله يريد أن يقول إنه سوف يفعل ذلك مرة أخرى و٥٧٦ مرة .. عدد الأسرى من الزنوج .. إذا حاول واحد منهم الهرب .. ولم يهرب واحد منهم .. وفى الليل فوجئ بواحد من رجاله قد هجم عليه فى غرفته وفى يده سكين .. يقول سيرجون هوكنز .. وكانت لحظة لا توصف : إنه واحد من رجالى .. أنا الذى أتيت به .. وأنا الذى أتيت به من الريف وأعطيته الكثير .. وجعلت منه شيئا هاما .. لم أصدق عينى ، ونظرت إلى الكأس التى أمامى .. كانت فارغة جافة ، ومعنى ذلك أننى لم أشرب بعد ، لست مخمورا .. إذن ما هذا الذى أمامى .. واحد من أعز رجالى .. ما ذا يريد منى ؟ أن يقتلنى ؟ لمـاذا ؟ هل أخطأ الطريق إلى واحد آخر غيرى .. وبسرعة .. أطحت بالكأس فى وجهه .. فنزف منه الدم فورا ولكنه ظل فى مكانه ، وتخيلت أن وراءه رجالا آخرين من البيض ، ومن السود وقلت له .. ماذا جرى لك ؟ قال : أريد أن أهبط إلى الشاطئ ولا أعود ، فقلت : أهبط ولا داعى لأن تعود .. قال : وأريد ثلاثة آخرين معى .. قلت : خذ ثلاثة .. أو خمسة .. قال : وعشرة من السود قلت : خذهم . .

يقول التاجر الإنجليزى فى مذكراته ولم أنم تلك الليلة ، لا خوفا منه أو من أحد .. ولكن حزنا على الموقف فهذا رجل أحسنت إليه كثيرا ، وأساء إلى كثيرا ، وغيرت بعض مبادئى .. لا داعى لأن تحسن إلى أحد .. أى أحد .. ومن الآن .

وكان لابد أن يبحر التاجر الإنجليزى .. ودخل فى خليج المكسيك وهبت عاصفة ، ولم يكن أمامه إلا ذلك الميناء الذى نزل فيه البحار كورتيس وظنه الناس إلها ، وظن الناس أن التاجر الإنجليزى من أسبانيا فقدموا له الطعام والشراب ، وجاء حاكم المدينة بجيشه ، وعرف منهم أن الأسطول الأسبانى سوف يرسو فى الميناء بعد أيام ..

وأصلح التاجر الإنجليزى سفنه .. ولكنه لم يستطيع أن يبيع زنجيا واحدا.. وقرر الهرب

وفى اليوم التالى جاء الأسطول الأسبانى قبل أن يهرب بسفنه . ونزل الأسبان وقدموا له ما يحتاج من معونة ثم نصحوه إذا عاد إلى الجنوب أن يلجأ إلى إحدى الجزر ، فهى بريطانية وفى استطاعته أن يبقى فيها كما يشاء ومعنى ذلك أنه من الأفضل أن يبحر الآن .. فالأوامر عندهم لا تعاون مع الإنجليز فى أى بحر أو على أى أرض أو لأى سبب ..

ولكن التاجر الإنجليزى كان شديد الذكاء فأخذ يتشكك فى هذا السلوك الودى المريب ، ثم إنه لاحظ أن عددا كبيرا من الناس يصعدون إلى السفن الأسبانية وأن القليلين ينزلون ، وكان ذلك يوم الخميس ٢٣ سبتمبر ، ولاحظ أيضا أن الأسلحة تنتقل من سفينة إلى سفينة .. ان هناك تدبيرا أو عملية تنطلق فى أى وقت . وعند الفجر قرر الهرب .. وفى هذه اللحظة انطلقت النيران الأسبانية ، واشتعلت النيران فى ثلاث من سفن التاجر الإنجليزى وتركها بما عليها ومن عليها .. إذن لقد كان فى نية الأسبان الاستيلاء على هؤلاء الزنوج دون مقابل .. ولكن التاجر الماكر هرب .. وقبل هروبه أغرق إثنتين من سفن الأسبان .

وجاء الليل ، وقرر الإنجليز الاستسلام للأسبان ، فقد مضى عليهم فى البحر وقت طويل .. لا طعام ولا ماء ، بعضهم مات من الجوع .. وبعضهم قرر النزول إلى الشاطئ بأى ثمن .

ولكن واحدا من الإنجليز قرر هذه المرة أن ينهى هذا العذاب ، فذهب إلى التاجر الإنجليزى وهدده بالقتل فورا إذا لم تتجه كل السفن إلى أقرب أرض بحثا عن الطعام ، وقبل أن يفتح فمه بكلمة قال : أنت محاصر ولا رأى لك .. وإنما جئت ألقى عليك تعليماتى .

واتجهت السفن إلى الشاطئ ونزل مائتان من البيض . وهم كل الذين بقوا على ظهر سفن التاجر الإنجليزى ونزل بعض الزنوج .. مئات الزنوج ، وهؤلاء الذين نزلوا كانت معهم فئران وقطط وكلاب وقرود وببغاوات وكان فى استطاعتهم أن يذبحوها ويأكلوها ولكنهم لم يفعلوا . أما الأرض التى اختاروها فى الجزء الجنوبى من خليج المكسيك ، كان ذلك يوم ٨ أكتوبر ، لقد قرروا البقاء لا عودة إلى انجلترا بعد ذلك ، لقد تعبوا أما التاجر فلم يتعب .. وكانوا يسمونه الرجل (اللوح) أى اللوح الخشبى الذى يطفو ولا يغرق أبدا ..

وبقى معه من الرجال خمسون .. طلب إليهم أن ينزلوا إلى الشاطئ ويأتوا ببعض الماء والطعام .. فصادوا بعض الحيوانات . وأتوا ببعض الثمار والأعشاب التى لا طعم لها ، بعض هذه الأعشاب يبعث على النوم العميق لا أحد يعرف اسم هذه النباتات حتى الآن وعندما حاول رجاله العودة إلى السفن هبت العواصف ، فأقاموا على الشاطئ حتى الصباح .. وظلت العاصفة طول النهار ، فباتوا ليلة أخرى ، وقرر بعضهم ألا يعود . أما الثلاثون الذين عادوا ، فلم تكد أقدامهم تلمس السفن حتى عادت العاصفة إلى الهبوب .. أما السفينة (يسوع) فقد مزقت العواصف شراعها . وأطارت بالكثير من حاجاتها وأدواتها الخشبية ورجالها أيضا .

وفى يوم ١١ اكتوبر سنة ١٥٦٨ اتجه التاجر الإنجليزى إلى عرض المحيط ، معه طعام قليل ، وشدد على رجاله أن يقتصدوا فى الطعام والشراب

وكان سيرجون هوكنز هذا يلقى برجاله الموتى أو أنصاف الموتى إلى الماء وهو يقول فى مذكراته أن موظفى يعرفه الكثيرون من قباطنة السفن فى قلب الكوارث . . ان رجلا واحدا ينقص سوف يوفر الطعام ويخفف الوزن هذه القاعدة معروفة ولكن أحدا لا يصرح بها .

واستطاع أن يصل إلى أسبانيا يوم ٣١ ديسمبر ان العيون ترمقه بحذر وخوف شديد ، فهو انجليزى والأسبان يشكون فيه ، ولا يحبون التعامل معه ، ولكنه الآن عائد بسفن خالية من السود ومن البيض فأكثرهم هرب .. وأكثرهم غرق ، وهو يريد أن يستعيد قوته بمساندة الملكة التى يمدها بمعلومات عن تحركات الأسطول الأسبانى فى المحيط وفى أفريقيا وفى المكسيك ثم أكمل رحلته إلى انجلترا ووصلها يوم ٢٥ يناير سنة ١٥٦٩ م .

وعاد من هذه الرحلة الطويلة دون أن يبيع رجلا واحدا .

وبقى فترة فى هدوء ، ولكنه لم يبعد عن البحر ، بل إنه بعد عشرين عاما عاد قبطانا للسفينة الحربية (نصر) واشترك فى المعركة البحرية الشهيرة ضد الأسطول الأسبانى واستحق من الملكة الكثير من النياشين .

هذا الرجل سيرجون هوكنز مات سنة ١٥٨٥ م .

ولكنه دخل التاريخ من عدة أبواب ويقول .. من باب الغرور والمؤرخون يقولون من باب تجارة الرقيق .. والسجلات الرسمية تقول من باب البطولة البحرية .. والأسبان يقولون بل دخله من قلب الملكة .

يبحث عن مدينة
رسمتها
الرياح بالرمال

هز كتفيه كثيرا وهو يقرأ هذه العبارة: وجدت الباب ولم أجد المفتاح.. وجدت الطريق ولم أجد الساقين .. وجدت الساقين ولم أجد القدمين .. وجدت النهاية التى لم أجدها شيئا ..

وكان صاحب هذه العبارة أحد المغامرين البرتغاليين الذى داخ وهو يبحث عن ثعبان نصفه أبيض ونصفه أسود وله رأسان . واحد يرى فى الليل والآخر يرى فى النهار .. رأس يلدغ ، والرأس الآخر يبتلع .

أما صاحب الكتفين الذى لا يتعب من السخرية بمخاوف الناس ومتاعبهم فهو المقدم فوست . ضابط إنجليزى كثير الإطلاع .. قوى الإرادة . مسحوب من أنفه إلى شئ عجيب فى أمريكا .. الجنوبية .. يقول فى مذكراته الصراحة لا تبهر إلا عشرات الناس .

أما الغموض فهو الطعام المفضل عند الملايين ، حتى لو كان مسموما فالناس يفضلون الموت وعندهم أمل فى أن يعرفوا ، على أن يشبعوا معرفة وعلما وليس لديهم أمل فى شئ هو أبعد من ذلك .

والمقدم فوست .. أو المقدم فوفو كما يسميه أصدقاؤه ولد فى سنة ١٨٦٨ . والتحق بالجيش الإنجليزى وعمل فى سيلان ومالطه . وعمل جاسوسا فى شمال أفريقيا .. وفى سنة ١٩٠٥ بدأ هذا الدوران المجنون فى مجاهل أمريكا الجنوبية . وراح ينقب فى الأحراش ويقلب فى وحل المستنقعات .. ويمسك الطيور . ويطارد الزواحف ويجمع أنياب الوحوش ومخالب الطيور .. ويضعها الواحد إلى جوار الآخر ويرسم ويسجل ويزن ويحدد أماكنها على

الخريطة . وبعد ذلك عمــل لحساب حكومات بوليفيا وبيرو والبرازيل ولا أحد يعرف بالضبط كيف أقنع هذه الحكومات بالعمل لحسابها .. فلا أحد أدرك بعد ذلك ما هو الشئ الذى يبحث عنه : انه مجهول يبحث عن مجهول فى غابات وبحيرات وأنهار مجهولة .

حتى جاءت سنة ١٩٢٤ انها السنة الحاسمة .. سنة الضياع والتيه وقبل سفره إلى أمريكا اللاتينية كتب فى مذكراته يقول : منذ أربع وعشرين سنة وأنا أدور وأفتش وأتعب . ومنذ ٢٤ عاما وأنا رجل متزوج أمضيت خمس سنوات فى الحرب الكبرى .. الحرب العالمية الأولى . . وعشر سنوات فى الغابات . . وتسع سنوات زوجا وإنى انتهز هــذه الفرصة لأعتذر لزوجتى . لقد تركتها كثيرا وطويلا .. وإذا قدر لى بعد ذلك أن أنجح فى أى شئ فالفضل لهـا .. لقد كانت سيدة قادرة على الفهم العميق والصبر المرير .. لقد رضيت أن تكون زوجة لرجل اختار لهـا الحياة ، واختار أوراق الشجر والحشرات كفنا له .. أما قبره فبطون الوحوش الضارية .

كانت أولى رحلاته إلى أمريكا سنة ١٩٠٦ وفى هذه القارة وجد الجلال والرعب .. وجد الخيال والفزع .. وجد الحياة تنهش الحياة .. وجد الإنسان أكثر وحشية من الوحوش .. فى ذلك الوقت كانت شركات المطاط اليهودية تبيع الرقيق وتذبح الهنود الحمر وتلقى بهم للوحوش إذا ترددوا لحظة فى حمل المطاط الذى يسيل من الأشجار .

ان الذى رآه فى غابات الأمازون أعنف مما وجده اليهود بعد ذلك فى معسكرات النازى .. وفى غابات الأمازون توجد الأفاعى المشهورة .. أناكوندا التى تبلغ طولها ثمانين قدما والتى تلهث وتنفث السم ثم تلدغ ... مخيفة إذا اقتربت ومخيفة إذا ابتعدت .. وفى نهر الأمازون توجد الأسماك السامة .. وفى النهر ثعابين كهربية إذا لمست أحدا صعقته . . وهناك أسماك أخرى صغيرة طولهـا بوصتان تأكل الجسم بعد أن تتسلل داخله فى سرعة خاطفة .. وهذه

الأسماك لا تتحرك إلا بالألوف .. وفى لحظات يتحول أى جسم إلى هيكل عظمى .. وعملية تحويل اللحم إلى عظم تستغرق عشر دقائق بالضبط .

وهناك ثعابين أخرى تتجه إلى حيث يكون الدم .. قد كانت هذه اللعبة المفضلة للتجار اليهود .. فإنهم يأتون بالهندى الأحمر ويسلخون جانبا من ساقه ثم يلقون به فى النهر .. وفى لحظات يصبح هيكلا عظميا ..

فإذا رفع المقدم فوست رأسه إلى السماء كان لابد أن ينحنى قليلا ، فهناك أنواع من العناكب فى حجم الكف هذه العناكب سامة .. وعند الغروب تظهر سحب سوداء من الذباب والبعوض وكلها سامة أيضا .

وإذا امتدت اليد إلى الفاكهة ذات الألوان البهيجة .. هذه الفاكهة سامة أيضا . ومن العجيب أن هناك علاقة بين رائحة الفاكهة وبين حشرات وزواحف الغابة فلا يكاد الإنسان يذوق هذه الفاكهة حتى تجئ بسرعة حشرات وزواحف تلتف حول الضحية ويموت الإنسان ، ولكن حياته تمتد فى حياة الحيوانات الأخرى .. ولم يصل المقدم فوست إلى قرية إلا وجد أهلها مرضى أو نياما أو موتى ..

فأهل القرى فى غابات الأمازون يمصون أنواعا من عيدان القصب غنية بالكوكايين . ولذلك فهم فى حالة دوخة أو غيبوبة ومهما أصابتهم الأمراض أو الأوجاع فإنهم لا يشعرون بها – منتهى السعادة أن يموت الإنسان وهو لا يعرف أنه يموت .. لقد وصل المقدم فوست إلى هذه المناطق التى يأكل فيها القوى الضعيف .. والتى يذبح فيها الإنسان الأبيض الإنسان الأحمر من أجل المطاط . فإذا وقع إنسان أبيض فى أيدى الهنود الحمر ذبحوه أو ألقوا به فى الماء .. أو علقوه على الشجر .. أو احتفظوا به أسيرا ليباهوا به القبائل الأخرى .

وفى هذا الجو الغريب المريب أمضى المقدم فوست أروع سنوات حياته ..

إنه يريد أن يعرف كل شئ .. يريد أن يعود ليقول للناس ماذا رأى وكيف رأى . ولكن ما أكثر الذى رآه وما أقل الذى يعرفه .

ولكن فى سنة ١٩٢٤ قرر أن يبحث عن شئ محدد . فعندما كان يزور المكتبة العامة فى مدينة ريو دى جانيرو عثر على مخطوطة تقول إن بحارا برتغاليا مجهولا فى سنة ١٧٥٣ قد رأى مدينة فى قلب الغابة . هذه المدينة ليس فيها أحد . ولكن فيها الملايين من الخفافيش والأفاعى . وهذه المدينة لها بيوت من طابقين . ولها قلاع .. ولسبب غير معروف اختفت وهجرها الناس . حتى الهنود الحمر لم يذهبوا إليها . ولا سمعوا عنها ويقول البحار البرتغالى إنه وجد فيها عملات أجنبية ذهبية .. وأنه دخلها هو ورجاله بحذر شديد .. ولكن لم يجد أحدا وقرر البحار البرتغالى العودة إلى الشاطئ وبعث برسالة لم تصل إلى الملك ، ولكن هذه الرسالة لم تصل إلى يديه اختفت سنوات طويلة إلى أن عثر عليها المقدم فوست .. هذه الوثيقة هزته من أعماقه . فقرر أن يذهب إلى حيث هذه المدينة . فهو من المؤمنين بأن هناك حضارة قديمة سبقت..وبأن هناك أجناسا بشرية مختلفة قد عاشت وازدهرت . وفجأة اختفت كأنما حكم عليها بالإعدام .. أو جاءت طيور وتلقفتها واختفت بها وراء السحاب .. أو هاجرت أو اضطرت إلى الهجرة .. لا أحد يعرف بالضبط .. ولذلك فهو الذى جاء ليعرف مهما كان الثمن .

وآمن المقدم فوست أن هذه المدينة التى عثر عليها البحار البرتغالى لها وجود فعلا .. وأنه وحده سوف يهتدى إليها .. وهنا سوف يجد العالم مادة جديدة للكلام .. ومبررا لتكريمه ونهاية لعذابه وراحته بعد ذلك كزوج وأب .

وفى سنة ١٩٢٥ أرسل المقدم فوست خطابا يقول فيه : نحن بخير .. لا خوف علينا . . أنا وابنى فى حالة جيدة فهو يشكو من أورام ضخمة فى إحدى ساقيه .

إذن لقد سافر المقدم فوست ومعه ابنه جاك وكذلك صديقه ريمل . الثلاثة يبحثون عن مدينة تبدو عند الغروب ذهبية وعند الشروق فضية وعند الظهر رمادية .. ولكن هناك موسيقى تجئ من جوانبها .. أرضها حجرية وأشجارها من الأفاعى .. وطيورها من الخفافيش .. ولكن ليس بها أحد ..أما رائحتها فعطرية .. وهذه الرائحة هى رسول الموت .. فقد حذر البحار البرتغالى من هذه الرائحة التى تجلب النوم إلى الأبد .. ويقال أن هذه الرائحة تجئ لأن هناك عددا من الطيور ترفرف بجناحيها فوق الشجر . فتهب رائحة الزهور . هذه الرائحة تأتى بالنوم فإذا جاء تحركت الأفاعى والعناكب والخفافيش .. ثم انهالت هذه الطيور تنهش الأفاعى بعد ذلك .

وجاءت رسالة من المقدم فوست فى نهاية سنة ١٩٢٥ تقول .. نحن بخير لولا أننى شديد القلق على ولدى جاك إنه يشكو من تورم فى عينه اليسرى ووضع عليها عسل نحل .. ويبدوأنها تحسنت بعض الشئ .. ولكن النحل لا يجذب الذباب ولا البعوض .. ولكنه يجذب أنواعا من الطيور الجارحة .. ولذلك فنحن فى كل ليلة ندفن أنفسنا تحت شبكة كثيفة .. فقد اعتدنا نحن الثلاثة على أن نغطى جروحنا وأورامنا بعسل النحل .. ونلعقه بعد ذلك .. لأننا نخاف أن نضع عليه الماء .. فالماء مسموم وكانت هذه آخر رسالة جاءت من المقدم فوست .. ومن ذلك الوقت لم يسمع به أو عنه أحد من الناس اختفى فى الأوراق والأشجار والطيور والزواحف والوحوش والهنود الحمر .

ولكنه فى سنة ١٩٢٧ م أعلن مهندس فرنسي وزوجته أنهما رأيا رجلا كبيرا فى السن ممزق الثياب مريضا . إدعى أنه هو المقدم فوست .. ولم يشأ المهندس الفرنسى واسمه كوتر يقبل أن يحمله معه .. لأنه لم يكن يعرف شيئا عن مغامرة الموت التى قام بها المقدم فوست هو وابنه وصديقه .

ولما سئل المهندس الفرنسى عن أوصاف هذا الرجل الكبير فى السن

جاءت هذه الأوصاف غير مطابقة لما هو معروف عن ملامح المقدم فوست . خصوصا أنه أشقر الشعر .

وفى سنة ١٩٢٨ قام أحد المغامرين الأمريكان . فسار فى نفس الطريق الذى تخيل أن فوست قد سار فيه .. ولم يعد هذا المغامر الأمريكى واسمه دبوت .

وفى سنة ١٩٣٠ حاولت صحيفة سويسرية أن تجد حلا لهذا اللغز ولكن فشلت كل خطواتها الأولى ..

وفى سنة ١٩٣٢ جاء صياد سويسرى اسمه ستافات راتين واتجه إلى نفس المناطق التى ارتادها فوست . وعاد الصياد السويسرى يقول إنه علم من أوثق المصادر أن فوست أسير عند بعض قبائل الهنود الحمر .. وأنه رآه وتحدث إليه .. ولكن عندما وصفه للناس . أعلنت أسرة فوست أن هذه الصفات لا تنطبق عليه .

وفى سنة ١٩٣٦ أعلنت سيدة أمريكية أنها رأت ثلاثة من البيض فى أعالى نهر الأمازون يرتدون ملابس الهنود الحمر . واحد منهم زعيم والآخر طبيب وأصغرهم سنا هو شيخ قبيلة وله عدد من الزوجات والأولاد .. وأنهم عاجزون عن الهروب تماما .. فكل المناطق مليئة بالقبائل المتوحشة وأن واحدا منهم قد أعطاها قميصه وهو يقول .. سوف يعرفوننى بهذا القميص .

ولكن أسرة فوست أنكرت القميص ونفت أن ملامحه مطابقة لملامح فوست وابنه .

وفى سنة ١٩٣٧ استطاع أحد الصيادين أن يعثر على طفل أبيض وأتى به . وقدمه لأسرة فوست على أنه ابن فوست نفسه .. ولكن الأسرة رفضته .

وفى سنة ١٩٥١ أعلن شيخ قبيلة هندية وهو على فراش الموت أنه هو الذى أعدم ثلاثة .. وأنه يمكن العثور على بقايا هؤلاء الثلاثة تحت الشجرة

الذهبية .. وذهب عدد من علماء الآثار الإنجليز .. وفتشوا المكان . ووجدوا ثلاثة هياكل عظمية .. ولكن كشف الأشعة أثبت أن هذه الهياكل ليست لفوست أو إبنه أو لصديقه .

وفى سنة ١٩٥٢ جاءت فتاة من الهنود الحمر تعمل راقصة فى إحدى المدن وأعلنت أنها إبنة فوست .. وأن والدها قد منحها خاتمه وقدمت الخاتم .. وكان الخاتم أوروبيا . ولكنه من النوع الذى من الممكن أن يشتريه أى إنسان فى أى ميناء أوروبى وليست للخاتم أية مزايا فريدة .. وأعلنت أسرة فوست أنه فعلا كان يضع مثل هذا الخاتم .. أما بقية قصة الفتاة فهى أنها اضطرت إلى أن تقتل والدها . لأنه ترك أمها وتزوج فتاة أخرى .. وأن قبيلتها لا تؤمن بتعدد الزوجات .. وأنها فخورة بالدفاع عن شرف أمها .. وأن أخاها عندما حاول أن يقتل أمها اضطرت إلى أن تضع له السم .. وهى سعيدة بالدفاع عن أمها لدرجة أن تقتل أباها وأخاها .. أما صديق فوست فقد اضطرت هذه الفتاة إلى أن تضحى به فقد كان مريضا .. ورأت أن إلقائه للتماسيح هو منتهى الرحمة به .. وهى بذلك قد أراحت الجميع .

وبعد أن روت الراقصة هذه المغامرة عادت إلى الرقص .. وتروى هذه الملحمة للناس على أنها قصة حياتها وأنها هكذا مسكينة يتيمة اضطرت إلى أن تفقد أباها وأخاها وأن تترك أمها فى المدينة لإسعاد الأشقياء والمخمورين.

ومن الغريب أن هذه المنطقة التى ضاع فيها المقدم فوست قد حلقت فوقها الطائرات واقتربت منها ورسمتها وصورتها وحددتها بالضبط .. ولم تجد فيها أى أثر لهذه المدينة .. ولكن بعض علماء الجغرافية قد اهتدوا إلى أن هذه المنطقة بها عواصف رملية .. هذه العواصف عندما تلتف حول الأشجار والهضاب تعطى صورة لمدينة رمادية كالحة اللون .. وليس بعيدا أن يكون الرحالة البرتغالى قد راح هو أيضا ضحية هذه اللوحة الرملية الذهبية .

وفى سنة ١٩٥٤ عثر أحد علماء الآثار على خطاب بعث به المقدم فوست بتاريخ ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٥ م ، يقول فيه نحن بخير ولكنى قلق على ساقى وعينى اليمنى فكلتاهما ملتهبتان .. ولم ينفع معهما عسل النحل ولا عصير جوز الهند .. وشديد القلق لأن فتاة صغيرة عمرها تسع سنوات هندية حمراء تعيش بيننا .. وتأكل معنا وعندما يجئ الليل تختفى وتنام بعيدا عنا .. ولا تنطق بكلمة واحدة منذ أربعين يوما .. حاولت أن أفهم منها شيئا ولكنى فشلت .. ولا ضرر منها .. ولكن هذه الفتاة كانت هى السبب .. ولكن لا خوف علينا ..

إذن لقد استدرجه المجهول أو جاء وراءه .. وألقى به إلى الهاوية طعاما سائغا سمينا لملايين الكائنات الصغيرة التى يجب أن تعيش وأن تمتد بها الحياة .. فليس الإنسان شيئا هاما.. وإنما مجرد حيوان أو حياة .. لقمة تطيل عمر حشرة أخرى ثانية أو دقيقة .

ولا يزال اختفاء المقدم فوست لغزا ولعله لم يعد لغزا .. لقد اختفى فى بطن حيوان آخر .. وانتهى الإثنان فى بطن حيوان ثالث .. إلى ما لا نهاية .

الرجال ينتقمون

من أبنائهم أيضا !

السعادة لا تتحقق بالجريمة . ولذلك فقد عدل نهائيا عن أن يمسك سكينا ويقتل زوجته ، ثم إن هذه الجريمة سوف تلد له جريمة أخرى وهى أن تجعل ابنه الوحيد يتيما حتى الموت . لكن كيف يقتل من كان ثمرة من ثمار شجاعته . كان شجاعا هذا معروف . والشجاعة موضة كل عصر . والمرأة الجميلة تقف فى نهاية طريق كل رجل شجاع ولكن هذا ما حدث .

فى يوم ١٤ يناير سنة ١٩٠٤ وفى مدينة جنوه دارت معركة بين أحد الفلاحين وبين أحد النبلاء ، والمعركة شكلها تقليدى فالنبيل قد شتم أحد الفلاحين ، وهذا أمر عادى ، ومن المألوف أن يضع الفلاح رأسه فى الأرض ويمضى أو ينحنى على يد النبيل ويقبلها امتنانا فهذا شرف له ولأولاده أن يشتمه أحد النبلاء ، ولكن فى هذه المرة اختلف الوضع تماما فقد رفع الفلاح رأسه ورفض هذه الشتيمة وقال .. لا حق لك فى أن تشتمنى . من حقك أن تطردنى من الأرض فأتركها لك فى صمت .

وقبل أن يمضى فى كلامه انهالت عليه كرابيج النبيل . فما كان من الفلاح إلا أن سحب النبيل من كرباجه وأسقطه من فوق حصانه ، والفلاحون من حوله يصرخون لأنهم يعرفون النتيجة مقدما ولكن هذا الفلاح أنطونيو بيافولا وقف فى مكانه ، إنه يائس ، وليس أشجع من اليائسين . وهرب الفلاحون وانطلق النبيل يأتى برجاله ، ومضت ساعة وساعتان ولم يحضر أحد ، ولكن أنطونيو اختصر الطريق فبدلا من أن يذهب إلى حقله قرر أن يترك الحقل والبلد الذى أهين فيه ، إنه لا يملك إلا شيئا واحدا فقط : كرامته . والذى يملك كرامته يملك الكثير من الأرض التى يعمل فيها ويطرد منها فى أسرع وقت .

وعرفت القرية والقرى المجاورة تفاصيل ما حدث وأضافوا إلى هذه التفاصيل آمالهم وأحلامهم فى الخلاص من ظلم النبلاء . وليس أبرع من المظلومين فى اختراع قصص بطولاتهم .

وليس أسعد منهم وهم يتخيلون إنهزام الظالمين ، وليس أحرص منهم على إخفاء هذه البطولات فى أغانيهم ونكتهم

وجاءته سيدة عجوز ، مجرد صدفة وقالت له: أنت انطونيو . قال: نعم وماذا تريدين أنت أيضا ؟ قالت إننى سأموت، وعندى إبنة وحيدة جميلة . وتمنيت أن تكون إبنتى فى خدمة رجل عنده كرامة . وضحك أنطونيو ولكن الكرامة ليست لها أبواب .. ولا نوافذ .. انها كرامة فى الهواء .

وقالت العجوز : من عنده كرامة عنده أبواب ونوافذ تحميه وتحمى زوجته وأولاده .. سوف تكون نوافذك من حديد وأبوابك من الجرانيت إذا كانت امرأتك جميلة .

كلام غريب من امرأة غريبة ، ولكنها صادقة فابنتها جميلة ، وقد سمعت العجوز بمعركة أنطونيو والنبيل ، وأحس أنطونيو أن هذه الفتاة الجميلة قد هبطت من السماء .. لابد من السماء ، وإلا فكيف هى جميلة هكذا وكيف أنها لم تلفت نظر أحد النبلاء أو الأغنياء ، لابد أن هذه المرأة قد خرجت من الأرض ، فشعر بشئ من الفزع .. وظن أنها عفريتة .. وأن هذه هى إبنتها .. ويبدو أن الفتاة أدركت بذكائها ذلك فقالت له : إننى مثلك دخلت فى معارك كثيرة وكسبتها بالفرار .. إننى فررت مع أمى ومعنا واحدة ثالثة وهى كرامتى .

إذن عقدت الكرامة زواجهما .. وعاشوا معا فى مدينة جميلة صغيرة أسمها بورتوفينو ، وهو يعمل عند أحد التجار ، وزوجته لا تعمل شيئاً ومضت سنوات بلا حوادث . الحادثة الوحيدة هى أن زوجته أنجبت طفلا وأطلقوا عليه اسم برافو .. أى برافو أنطونيو .

وكان ميلاد هذا الطفل نوعا من الهتاف المستمر لشجاعة الأب فالإبن اسمه برافو أنطونيو .. أى برافو إذا ذهب .. وبرافوا إذا جاء .. وبرافو أبا وزوجا وعاملا .

وما من جنة إلا يظهر فيها شيطان .. وظهر الشيطان إنه ابن أحد التجار. لقد جاء يدق باب أنطونيو لسبب وجيه وهو أن سفينة قد رست فى الميناء وأن والده محتاج لمساعدته..سبب معقول . والسفينة موجودة فى الميناء . وحمولتها كبيرة ،وفى حاجة إلى رجال كثيرين . وهو رجل معروف بشهامته وقوته . ولم يكن أنطونيو فى البيت . وظهرت الزوجة،وطال وقوفها مع الشاب وأقفلت الباب بسرعة .. وكان أنطونيو بالصدفة يرقب المنظر من بعيد وغضب وثار وارتفع الدم فى رأسه وأحس كأن كرابيج النبيل قد لسعته من جديد . وانه لم ينتقم بما فيه الكفاية . ودق الباب . إنه كان أكثر كلاما وغضبا وسخطا . وحاولت زوجته أن تقول إن هذا الشاب جميل ، وانه جميل فعلا ، ولكنه يبعث على الضحك لأنه يتهته ، ولذلك حاولت أن تفهم منه أكثر من مرة ، وكانت تمسك نفسها من الضحك بصعوبة وأن الشاب قد غضب ، ولم يكن فى وسعها أن تقفل الباب فى وجهه . ولا كان من الطبيعى أن تسمع دقات الباب ولا تفتح .. ولابد أن تسمعه ما دام يطلب منها الاستعانة بزوجها .. ثم إنها مثل زوجها تعيش به ومعه على كرامة واحدة كرامته كرامتها ، وكرامتها كرامته وانه لم يحدث فى السنوات السبع الماضية أن وضعا حدودا للكرامة .. هذه هى أول مرة ..

وكانت الأحداث التى جاءت بعد ذلك غريبة .. فمن بين عشرين احتمالا جاء تصرف أنطونيو شيئا لا يخطر على البال .. انه دخل البيت .. وأنهض ابنه الصغير من النوم .. وأخذه من يده .. وهو لا يزال يمسح النوم عن عينيه وذهب به إلى الميناء .. وركب إحدى السفن .. واختفى فى الأفق .

ولم يكن من السهل فى ذلك الوقت أن يعرف إنسان أين يذهب أى

إنسان .. فالبحر واسع .. والموانى كثيرة والناس أحرار يذهبون إلى أى مكان وبأى شكل ولأية فترة من الوقت وعلى أى حال .. وفى الجو الواسع تتسلل أنطونيو وابنه برافو .

ونزل الإثنان فى جزيرة صقلية .. وتنقلا بين أطرافها وجبالها ووديانها وحدائقها .. واختفى أنطونيو وراء ملابس رعاة البقر .. والفلاحين .. وحاول أن يكون قسيسا ولكنه لم يستطع .. فهو لا يعرف الكثير من أشياء كثيرة جدا .. من بينها الدين . فهو لم يذهب إلى الكنيسة إلا مرات قليلة ومضطرا .ثم قرر ألا يذهب إلى الكنيسة بعد ذلك .. لأنه فى كل مرة يذهب مع ابنه برافو يتعرض لقضايا لا يعرف الإجابة عنها . ففى إحدى المرات سأله ابنه : كيف يصحو الناس من الموت .

وكان جواب الأب : لا أعرف

وقال الابن : ولكنك قلت لى أن أمى ماتت .

ورد الأب : نعم ماتت .

وقال الابن : ولكن متى تصحو من النوم .

وقال الأب : القسيس يتكلم عن أناس من نوع خاص لا يعملون فى فلاحة الأرض .. ولا يقطعون الصخور ولا يعيشون فى جزيرة صقلية ..

قال الابن : ولكن أمى لا تعيش فى صقلية إذن سوف تصحو من الموت
وقال الأب : سوف تصحو ولكن لن تجئ إلى هنا .

— ولكن لماذا ؟

— لأن الطريق طويل وصعب ..

— ولكن نحن جئنا إلى هنا ..

— لأننا رجال .

— لقد كان على المركب الذى جئنا به إلى هنا عدد كبير من النساء والأطفال ..

— اسكت.. ولن نذهب إلى الكنيسة بعد ذلك .

— فإذا ذهبت ..

— فستكون وحدك .. لن أذهب معك ؟

وكان الأب أنطونيو حريصا على أن يكون بعيدا عن الموانى حتى لايرى ابنه السفن .. وأن يكون بعيدا عن الكنائس حتى لا يسأله ابنه كثيرا عن الحياة والموت .. أوعن حياة أمه أو موتها .. وربما سأله عن سبب تركه لأمه .. ولكن من الصعب أن يعيش الإنسان فى جزيرة ولا يرى البحر من كل جانب ، ومن الصعب أن يكون الإنسان فى إيطاليا الكاتوليكية ولا يجد مئات الكنائس وألوف القساوسة .

وقرر الأب أن يعمل يوم الأحد من كل أسبوع . وظن بعض الناس أنه يهودى .. واليهودى إنسان كريه فى جزيرة صقلية ، ولكن الأب أكد للجميع أنه مسيحى كاثوليكى ولكن عنده هموم خاصة وحاول الناس أن يعرفوا همومه الخاصة .. وكان لابد أن يقول.. فإذا لم يقل اخترعوا له القصص

فإذا اخترعوها نشروها وصدقوها . وعليه بعد ذلك أن يدافع عنها إذا استطاع ، ولن يستطيع . وقرر الأب والابن الذى أصبح فى السادسة والعشرين من عمره أن يدافعا عن وجودهما فالناس جميعا يشكون فى حقيقة أمرهما . وفى يوم قال الأب أنطونيو لابنه : اسمع يا برافو بصراحة .. نحن الآن متهمان من كل الناس .. فهم يقولون إننا لصوص هاربون من العدالة .. وأنت تعرف الحقيقة الآن .. فلسنا لصوصا ، وإنما أنا رجل عصبى . وفى لحظة غضبى خطفتك من أمك وحرمتك منها وعذبتها من بعدك .. هذا كل ما حدث وأنت رجل . وعليك أن تظل كذلك وأنت متعلم وأنا لم أتعلم .. وأنت تكتب وأنا

لا أعرف القراءة والكتابة . وتستطيع أن تعيش ظالما وأن تعيش مظلوما. وحياتك فى يدك . بعد أن كانت فى يدى .. وغدا سوف تصبح حياتى أيضا فى يدك .. والباب مفتوح لنا نحن الإثنين .. إما أن تخرج .. وإما أن أخرج .

وقال الابن .. بل نخرج معا .

وانتقل الأب وابنه إلى أحد الموانى الصغيرة فى جزيرة صقلية .. الأسماء لا تهم .. إنما الأحداث هى التى تهم بعد ذلك . وهذا ما رواه برافو أنطونيو فى قصته الجميلة التى عنوانها (كل الوجوه لا أعرفها) والتى صدرت فى أبريل سنة ١٩٣٠ والتى أشار إليها الأديب الإيطالى كورتسرو ملبارته وقال: لولا أننى أعرف بعض أحداثها .ماصدقتها .. ولكننى عرفت المؤلف وعرفت أباه .. وسمعت عن حياتهما فى صقلية وانحنى إعجابا بالفن والصبر والجمال .

لم يعرفِ الأب بالضبط ما الذى قرره الابن ولكن الابن قرر أن يجعل لحياته هدفا واحدا . أن يجد أمه أن يستردها أن يعتذر لها . أن يراها مرة أخرى مع أبيه .. وأن يعيشوا فى بيت واحد .. حدث هذا كثيرا للمهاجرين والهاربين والغاضبين ومعجزات السماء لا تنتهى . والمفتاح السحرى للسماء هو الأصبع الصغيرة فى يد كل أم .

ولم يشأ أن يقول شيئا من ذلك لوالده . ولما سأله أبوه إن كان يريد أن يتزوج . كان جوابه ليس الآن .. وكان الأب يلح على ابنه أن يتزوج ولكن الإبن لم يفهم إلحاح الأب . وكان الأب يطلب إلى ابنه أن يسكن كل منهما فى شقة خاصة . ليكون أكثر حرية . هو أكثر حرية ، والأب كذلك . ووافق الابن وأحس أن والده يريدأن يكون على راحته . وكان سعيدا بأن رغبة أبيه فى الحياة والاستمتاع قد عاودته ووجدها الابن فرصة لكى يغيب عن الأب أياما ويعود .. وكان الأب سعيدا بذلك .

يقول برافو أنطونيو فى قصته ولكن أبى لم يعرف بالضبط ماذا أفعله .. إننى أقضى الليالى أقابل البحارة والمسافرين .. وأسألهم واحدا واحدا عن سيدة لهـا صفاتى وملامحى .. ثم أعطيهم صورتى وأعرضها على كبار السن .. وعلى النساء بصفة خاصة .. وأطلب إليهم أن يسألوا إن كانت سيدة مريضة أو كفيفة تجلس على الميناء تنتظر عودة وحيدها .. وان كانت هذه السيدة تضع على رأسها بنطلونا صغيرا أحمر اللون .. هو بنطلونى .

ويقول برافو .. والذى لم يعرفه أبى أننى كنت أبكى ليلا ونهارا على أمى .. لا أعرف ما الذى أبكيه ولا ما الذى أبكى عليه .. اننى لم أعرفها .. لم أشعر بها .. لا أعرف .. ولكن نافورة – لا أعرف – من الدموع تفيض فى عينى .. هذه النافورة تنبع من أعماق غزيرية لا سيطرة لى عليها .. إن أمى هى التى تعصرنى من داخلى .. كأننى أنا الذى ولدت أمى وليست هى التى ولدتنى .. لو كانت أمى بعد أن ولدتنى عادت فاستقرت فى أحشائى فأنا ألدها كل يوم دمعة .. دمعة .

ويقول : وكلما رآنى أبى ذابلا ضربنى على خدى وهو يقول ترفق بنفسك فالفتيات كثيرات والخمر كماء البحر .. لا نهاية للخمر ولا نهاية للنساء .. وكنت أضحك ، فأبى لا يعرف الحقيقة ، وإن كان سعيدا لسعادتى .

وفى يوم ٢٧ مايو سنة ١٩٢٩ وكان الجو حارا . وكان برافو يجلس فى بيته ، جاءت سيدة تقول له إنها وجدت امرأة تبكى على غياب طفلها ، وأن هذه المرأة قد حضرت إلى الجزيرة ، وقفز برافو ليراها ، ورآها وسألها : هل أنت أمى ؟ قالت : نعم يا ولدى . وعانقها وعانقته وبكى ونظر إلى ملابسها .. الملابس ممزقة والوجه شاحب والجوع والعطش والمرض والحرمان كل ذلك بارز فى وجنتيها وعروق يديها .. وحملها إلى أحد محلات الملابس ، واشترى لهـا كل ما تحتاجه ، وكان فخورا يقول لكل واحد : إحدى المعجزات .. أمى بعد عشرات السنين .. أمى .. إنها أجمل أم .

وكان برافو فى ذلك الوقت يعمل فى إحدى شركات الفاكهة .. وأقسم أن يضع التفاح تحت قدمى أمه لتسير عليه .. وأن تتدحرج فوقه كما يفعل الأطفال فى صقلية فى موسم الفاكهة .. إنهم يضعون التفاح الأخضر تحتهم وينزلقون عليه .

وقرر برافو أن يقدم أمه لأبيه وهى فى أحسن حالاتها .. يريد أن يجعلها مفاجأة له .. يريد أن يراها عروسا وبعد شهرين من حياتها الهادئة الهانئة دعا أباه إلى البيت . وبعد أن تناول العشاء وشرب الأب .. وشرب الأبن قال : أبى عندى لك عروس .. أجمل عروس فى الدنيا .. وقدم أمه له .

وراح برافو يحكى لأبيه كيف عثر عليها .. وكم عدد البحارة الذين حدثهم .. وكم عدد المسافرين والمسافرات ، وكم أنفق من المال .. وكم بكى .. وكم ذهب إلى الكنيسة وكم صلى لله أن يخصه بمعجزة واحدة ..

ولكن الأب لم يفرح لهذه المفاجأة وأدرك الابن أن الزمن لم يمسح ما بين الأبوين .. والأب معذور .. وعندما نظر إلى الأم وجدها قد انزعجت فأدرك أن الذى فى قلبها لم يلتئم .. ولكن سوف يسوى ما بينها وبينه من خلافات . وأنه قادر على ذلك . والذى يعجز عنه الزمن يحققه الأطفال وإذا لم يستطع أن يجمع بينهما فى بيت واحد .. فإنه وحده سيكون ملتقى حبهما وعطفهما .. سوف يكون أبوه وأمه ذراعين تتدليان بعيدتين ولكن فى جسم واحد ممكن .. حدث هذا كثيرا ..

وفى اليوم التالى عاد برافو إلى البيت . ولم يجد أمه . وذهب إلى بيت أبيه فلم يجدها . هربت ؟ ولكن لماذا ؟

وجاءت العجوز التى أتت له بأمه وقالت: اسمع يابنى .. هذه السيدة ليست أمك ولكن لها ابن مثلك خطفه البحارة ويقال إنهم أخذوه إلى أمريكا . ليست أمك . وحاولت أن أوضح لك أكثر من مرة ولكنك لم تسمعنى .

وجاء الأب ليقول له : أنت لم تعطنى فرصة .. لقد ظننت أننى مخمور وظننت أن كرامتى ما تزال تنزف دما .. أنا عندى لك مفاجأة .. أرجوك أن تسمعنى هذه المرة حتى لا يحدث ما حدث مرة أخرى .

يقول برافو فى قصته: كل شئ قد اتخذ ثوبا آخر .. وطعما آخر .. أين الحقيقة وأين الكذب .. لا أعرف ولا يهم أيضا .. ماذا جرى فى داخلى .. أين قلبى .. وأين عقلى كل شئ تعطل . أنا فى حالة صمت .. أو أنا الصمت نفسه .. لم أعد قادرا على سماع شئ أو قول شئ .. لقد جاء أبى ومعه سيدة قد غطت رأسها .. هذه هى أمى .. أما بقية القصة فأحداثها عادية .

لقد جاءت الأم إلى الجزيرة .. اهتدت بإحساسها بغريزتها والتقت بالأب . وخدعها الأب بقوله : إن ابنه غاضب عليها ، وأنه قرر أن يقتلها .. وأن الأب يحاول أن يهدئ من غضبه وأن الابن قرر أن يمزقها ويضع قطعة من لحمها على كل ميناء إنتقاما لشرف الأب . منتهى النذالة من الأب وكذلك قرر الأب أن يلتقى بزوجته سرا .. وأن يتركها فى بيت بعض الجيران .. وخافت الأم أن تلتقى بابنها . وإن كانت سعيدة برؤيته وبحيويته وشبابه .. وقلبها يؤكد لها غير ذلك .. فهى ترى ابنها يذهب إلى الكنيسة وتراه صادقا محبوبا كريما .. والقلق الذى تراه على وجهه ليس الرغبة فى الإنتقام . ولكنه قلق من يبحث عن شئ ضائع .. قلق العاشق وليس قلق القاتل .. ولكن الأب يروى لها كل يوم قصة كاذبة .

خمس عشرة سنة .. بأيامها وساعاتها ودقائقها والأم ترى ابنها وتنتظره وترقبه وتبكى على المسافة القصيرة جدا بينهما ولا تقوى على أن تلمسه .. إنها أقصى درجات العذاب .

ولما رأى الأب أن ابنه انهار بعد هرب السيدة التى ادعت أنها أمه .. وأسعدته شهورا طويلة .. قرر أن يكشف عن الأم الحقيقية . وأقسم الأب . وأقسمت الأم .. وبكى الجميع .. وحار الابن . ولم يستطع أن يسأل ..

ولكن لماذا ؟ وكيف صبرت ؟ وكيف صبر وكيف استطاع أن يكذب كل هذه السنوات .. كيف .. إن شيئا من ذلك لم يحدث .. ولو حدث ما صدقه أحد .. انه الإنتقام الرهيب من الأب ؟ إنها الغيرة المحرقة .. فالأب يغار من الأم أن تحظى بكل حنان الابن .

وتنتهى قصة برافو أنطونيو بهذه العبارة .. حتى هذه الفرحة لم تتم وإن كان أبى يتوقع للقصة نهاية أخرى فقد انتحر أبى .. لقد عاقب نفسه على جريمة تعذيب ابن وأمه .. تعذيب إثنين يقتربان ولا يريان .. يقتربان ولا يسمعان .. عذبنى أياما .. وعذبها ألوف الأيام .. لم أستطع أن أبكى على رجل ــ ولا أقول أبى ــ وضعنا نحن الاثنين فى سجن من نوع غريب .. لكى يتمتع بعذاب الجميع .. غريب أن أرى أمى كثيرا .. نعم رأيتها كثيرا .. ولم تقع عينى على وجهها .. ولم ألاحظ هذا الشبه التام بينها وبينى .. لم ألاحظ ذلك .. لقد رسم لها أبى صورة أخرى .. وانطبعت صورتها المزورة فى رأسى .. ونسيت صورتى فيها .. انتهت القصة .. بأن غاب عنا واحد وكأنه مكتوب علينا نحن الثلاثة أن نعيش دائما إثنين يفتقدان ثالثا .. أو يحزنان عليه .

طعام البذور والجذور
على جبل اليأس!

الباب المفتوح يغرى الرؤوس بأن تطل . والفم المفتوح يدخله التراب . ولذلك ليس له الحق فى الشكوى لأنه عرض قضيته على الناس . فأصبح الناس طرفا لهم رأى ، ولـكنه على أحد إذا أراد لقضيته أن ينفرد بحلها . فيجب الا يعرضها على أحد من الناس . ولـكنه لم يفلح فهو يتحدث بصوت مرتفع والناس جميعا يسمعون شكواه . وماداموا قد سمعوا فلابد أن يتكلموا . وإذا تكلموا فلابد أن يسمعهم وأن يدخل فى نقاش معهم . وأن يقنعهم والا ..

أما بقية هذه الجملة فقد عاش بطل هذه الرحلة يعانى منها . . والا يسكت والا يرحل عن هذه البلاد والا يكف عن طلب المساحة ومن المجلس البلدى ولـكنه لم يسكت . ولم يسكت ،وقد تنقل هذا الرجل بين جوانب القارة الاسترالية شرقا وغربا . عدة مرات . ولم يبق الا أن يقطعها من الجنوب إلى الشمال — منتهى الطموح والجرأة .

وقد تحدد له يوم فى شهر أعسطس سنة ١٨٦٠ فقد كان على رأس بعثة من الأوربيين والهنود . عشرة من البيض وثلاثة من الهنود . معهم خيولهم وجمالهم وكلها احضرت من الهند . ومعها كل ما هو ضرورى لرحلة طويلة . الرجل اسمه روبرت بيرك ايرلندى ولد قبل ذلك بأربعين سنة وكان جنديا فى سلاح الفرسان المجرى فى الجيش النمساوى . وفى سنة ١٨٤٨ عمل فى البوليس الملكى الايرلندى . وفى سنة ١٨٥٢ عمل فى البوليس الاسترالى . وعندما نشبت الحرب فى شبه جزيرة القرم سافر إلى بريطانيا ليتطوع فيها . ولـكنه وصل متأخرا فعاد إلى العمل فى البوليس . ولـكنه لم يطق البقاء

فى مكان واحد . ولذلك تقرر أن يبحث عن شئ جديد لا يعرفه . . وكان معه رجل آخر اسمه وليام ولز طبيب . جاء إلى استراليـــا يبحث عن الذهب . وهو من المهتمين بالمعادن وبالأفلاك أيضا . وقد عمل مديرا لمصلحة المساحة فى استراليا . واتفق الإثنان على المغامرة بأى ثمن .

وكانت التعليمات التى لديهم الاتجاه إلى الشمال بشرط أن يتركو علامة فى كل مكان يذهبون إليه . أن يتركوا جيرا أبيض على الأشجار . أن يدقوا علامات من الخشب أو من الحديد دليلا على أنهم جاءوا وأقاموا وتركوا أثراً . أو فتحوا طريقا أمينا من الجنوب إلى الشمال .

وقد تركوا مدينة ملبورن يوم ٢٠ أغسطس سنة ١٨٦٠ واتجهوا إلى الشمال فوصلوا إلى إحدى مدن ولاية ولز الجديدة يوم ٢٣ سبتمبر . لم يجدوا مشقة وأقاموا أول محطة وكتبوا على هذه المحطة الصغيرة يوم الوصول ويوم الرحيل وتركوا مذكرة موجزة بما سوف يفعلون بعد ذلك . ثم اتجهوا إلى الوديان الجبلية . واتفق بيرك مع رجل من تجار الماشية على أن يلحق به لأنه يعرف الطريق أفضل منه . . ثم بعث إليه بعدد من رجاله . وطلب إليه أن يسبقه . وأن يترك هو أيضا أثرا فى كل مكان يذهب إليه وكان عليه أن يترفق بالخيول والجمال حتى لا تموت منه فى الطريق فهى تقوم بمهمتين أن تمشى وأن تحمل على ظهرها الرجال والطعام .

وفى يوم ٢٠ نوفمبر أقام محطة : كوخا من الخشب رقم ٦٣ وانحدرت بهم الأرض والصحراء الصخرية القاسية إلى واد . . ومازال الوادى يضيق حتى كاد يخنقهم . وهربوا من الوادى . فقد هبت عليهم عواصف من الفئران . . بمئات الألوف . . والفئران تجئ وسط الرمال تعمى البصر . . ويفاجأ كل إنسان بأن جزأ من لحمه قد خطف منه . . وأن دماءه تسيل وكذلك الخيول والجمال . . وفى ساعة واحدة اختفى كل ما معهم من طعام وهربت الجمال والخيول . . وبعد هذه الساعة وقف الرجال والحيوانات فى ذهول . لقد

اختفى كل شئ . . حتى الحبال والملابس والأوراق . . كان عليهم أن يعودوا إلى أقرب مدينة يعيش فيها الزنوج ليستعيروا طعاما أو شرابا أو حبالا ليربطوا بها الخيول والجمال .

واهتدوا إلى أحد مخيمات الزنوج وقدموا لهم بعض الأحجار الملونة مقابل بعض الأسماك الجافة . . وبعض المـــاء أيضا . وعاونهم الزنوج على استعادة الخيول والجمال .

ويقول وليام فى مذكراته لهذا اليوم . . يوم جاف . فلا ماء ولا طعام . . وقد هرب منا ثلاثة من الجمال ولم نستطع أن نهتدى إليها . . فهى لم تحتمل العطش الشديد . ولا ندرى أن كانت هربت وأصابها الجنون أو أن الزنوج اخذوها تمهيدا لذبحها بعد ذلك . وكانت هذه أكبر كارثة وقعت لنا . وكان علينا أن نتحملها بروح رياضية . فليست هذه أول هزائمنا . . فقد جاءت بعدها هزائم كثيرة .

ويقول أيضا : مشى الزنوج وراءنا لا يريدون شيئا . . وليست لديهم أية نزعات عدوانية . ولـكن منظرهم مخيف فمن الصعب أن تستريح ووراءك أناس يمشون كظلك ، عيونهم واسعة وافواههم باسمة ولا ينطقون بكلمة . . أى أنك لا تعرف بالضبط ما يريدون . ولا توجد وسيلة لأن تعرف وكل حركة يقوم بها تجد عيونا واسعة لامعة قد سقطت عليها . . وأحسسنا أننا محاطون بسهام صامته . شئ مخيف ، فإذاهم جائعون . عصبيون . ولـكن هناك بضعة ملايين من الذئاب لا تدع لنا فرصة لأن نرفع أيدينا من فوق وجوهنا.. ومع الذئاب تراب وفئران وجوع وعطش انها جهنم . . شئ أقسى من جهنم .

وفى يوم الأربعاء ١٩ ديسمبر يقول ولز فى مذكراته : اليوم تمكنت من تسجيل خسوف كوكب المشترى . وأنا رجل سعيد . ولـكى أكون

صادقا فإن هذه السعادة لم تستغرق سوى لحظات بعدها عدت إلى الواقع الأليم .

واختفت جماعة من الزنوج وظهرت جماعة أخرى . . نفس الوجوه نفس العيون . . لا كلمة واحدة . قدموا لهم بعض الأحجار وبعض أعواد الكبريت . . وقدم الزنوج بعض الأسماك الجافة واختفوا ووجد البعض أنفسهم وحدهم تماما فى طريق ضيق . . لا صوت الا حوافر الخيل . . والا بعض الصرخات من الذئاب . .

واقتربوا من الساحل الشرقى لاستراليا . . وكان ذلك فى شهر فبراير . الامطار غزيرة . . سيول ووحل . . الخيول غارقة تماما . . الجمال ترفع رؤوسها بصعوبة . . أما الرجال فهم يصرخون . فقد غطاهم الطين حتى أعناقهم . . كل ذلك حدث فجأة وكأنهم نزلوا فى بحيرة من الوحل .

وفجأة التوى بهم الطريق وارتفع وهبت نسائم من المحيط . . ومعها طيور سعيدة تروح وتجئ ولكن درجة الحرارة منخفضة . . والماء متوافر والأشجار والثمار أيضا . . وهم فى حاجة إلى مأوى . . كل ذلك أمكن توفيره . ولكنهم فى حاجة إلى مزيد من الدفء وليست معهم خمور . . ولكن واحدا من الهنود اهتدى إلى إحدى الأشجار وبسرعة اعتصر ثمارها . . ثم أودعها فى قماش . . وبعد ساعة قدم للجميع شرابا يدور له الرأس . . يقول ولز فى مذكراته: عيب هذا المشروب أنه صداع بلا نشوة ولكن من المهم أن يدوخ الإنسان فى مواجهة الأهوال .

فمن نعم الله على الناس أنهم قبل أن يموتوا لا يشعرون بالموت . . ولو خطفنا الموت الواحد بعد الآخر فلن نشعر باختفاء أحد . . لأننا مأخوذون من أنفسنا . . مسلوبون . . منهوبون فالذى تبقى منا قليل جدا كأن الرمال والذئاب والفئران قد أكلتنا ولم يبق منا أو فينا الا بقايانا .

وما تزال الأرض قاسية والطرق وعرة . . ولا شئ ينتهى . . فكل شئ يبدأ . . الطريق الضيق يجئ بعده طريق واسع . . والوادى يجئ من بعده جبل . . والجبل تجئ من ورائه الصحراء . . والصحراء لا أول لها ولا آخر وكان عليهم أن يبحثوا عن طعام . . فاطلقوا الرصاص على واحد من الجمال . وأكلوا لحمه وكان من الضرورى أن يدجنوا ما تبقى من اللحم والعظم قبل أن تهاجمهم الذئاب أو الكلاب الضالة ثم بعد يومين أطلقوا الرصاص على الجمل الثانى . . وبعد يومين أكلوا الجمل الثالث .

وفى اليوم الرابع شكا أحد الرجال البيض من الدوسنتارية . . وتهاون زملاؤه قائلين . . ليس عنده شئ وفى اليوم الخامس مات . . ولا أحد يعرف بالضبط ما الذى أصابهم .

وبعد أن دفنوهم وصلوا عليهم وتركوا إلى جوارهم علامات باسمائهم وتاريخ الوفاة . . مضوا إلى الشمال .

ولم يبق الا ثلاثة رجال الآن . . اما الباقون فقد ذهبوا مع تاجر الماشية إلى الشمال . ولم يعثروا لهم على أثر .

وفى يوم ٢١ إبريل تساقطو جميعا من التعب وقرروا أن يستريحوا أسبوعا أو شهرا . . واستراحو ثلاثة أسابيع . . ومن الصدف الغريبة أنهم عندما قرروا استئناف الرحلة إلى الشمال وجدوا شجرة عليها علامات بيضاء مكتوبا عليها يوم ٢١ ابريل سنة ١٨٦١ ومعلقة على الشجرة لوحة خشبية تقول : احفروا تحتها .

وحفروا تحتها فوجدوا صندوقا به بعض الأرز والسكر والدقيق والمسامير وحدوات الخيول والحمور وفى الصندوق رسالة تقول . . نحن فى حالة جيدة واصلوا السير وراءنا .

إذن لقد جاء تاجر الماشية فى نفس اليوم إلى هذه المنطقة وترك الصندوق

ورحل إلى الشمال . . وكان معه عشرة جمال وخمسة من الخيول والحيوانات فى حالة جيـــدة .

ويقول ولز فى مذكراته : أما نحن فظللنا نأكل الجذور والبذرو ونعصر أوراق الشجر . . وظهرت علينا الدمامل وكان الذباب يهلكنا ليلا ونهارا . . واهتدينا إلى أن هناك نوعا من الشجر لا يحط عليه الذئاب فتغطينا بأوراق الشجر . . وكان الذباب يهرب من رائحة الشجر . . وتمنيت لو حملنا معنا هذه الأوراق إلى نهاية الرحلة التى لا نعرف لها نهاية . . وكانت أوراق الشجر أول الأمر طوية لينة ناعمة وفجأة جفت الأوراق . وعند جفافها كانت تسقط منها ذرات هى قطع من الشطة . . ومن الغريب أن هذه الأوراق إذا جفت وسقط منها مسحوق الشطة لم تعد تخيف الذباب شئ عجيب .

وأقاموا فى هذه المنطقة التى اطلقوا عليها اسم (جبل اليأس) ثلاثة شهور.. يأكلون البذور ويعصرون الجذور .

فلما كان يوم ٥ يونيو يقول ولز فى مذ كراته فى هذا اليوم كان هلاكنا .. جلسنا نحن الثلاثة نواجه بعضنا البعض . نحن أضعف من أن ينهض واحـــد ويضرب الآخرين بالحذاء على هذا العمل الجنونى الذى قمنا به . . كيف أننا ضللنا الطريق . . كيف أننا قررنا أن نموت أحقر موته . . ما الذى فعلناه بأنفسنا . . نحن الآن عراة حفاة جلد على عظم . . الوجوه كالأرض مشققة والعيون كالوديان غائرة وحركتنا كالهواء مشلولة .. وأنفاسنا كالذئاب صارخة ونحن بقايا أناس كانوا فى نضرة الزهور . . أما الآن فلا كلام ولا أحد يدرى بأحد . . أننا نمشى معا لأننا لا ندرى ما الذى نفعله .. ذبحنا الجمال والخيول ودفنا بعضنا البعض هلكنا . . أو أهلكنا أنفسنا .

ووقع واز بإمضائه عند نهاية هذا السطر . . ثم سقط ميتا .

لم يبق الا رجلان بيرك رئيس البعثة وزميل له اسمه كنج وفى هذا اليوم شكا بيرك من آلام فى ساقه اليمنى وأصبح عاجزا عن الحركة تماما .

يقول كنج فى مذكراته . وعلى الرغم من أن بيرك ضعيفا تماما ، فإن شهيته للطعام كانت مفتوحة واحيانا كانت تظهر على وجهه ابتسامة هزيلة كسيحة من معدتى . . لأن الذى احشره فى بطنى لا يظهر له أى أثر . . كنت أضحك تشجيعا له . . وحرصا على رفع معنوياته .

وفى يوم أول يوليو أحس بيرك بنهايته وطلب من زميله أن يكون إلى جواره حتى يموت . . ثم اعطاه بعض المذكرات وقاله . . اعطها لجمعية الاكتشافات . . ثم قال أيضا إذا مت فلا تدفنى . . اجعلنى على وجه الأرض . وضع المسدس فى يدى اليمنى . . ولا تتركنى إلا إذا تأكدت من أننى مت تماما . . ضع رأسك على قلبى من حين إلى حين . . فقد احتاج إلى كوب من المـــاء فى آخر لحظة . .

وبعدها مات . .

أما الرجل الثالث فراح يبحث عن الزنوج . . يتسول منهم الطعام . . ثم قرر أن يعيش بينهم . وأن يرتدى ملابسهم وأن يبنى لهم بعض الأكواخ فهو لا يستطيع أن يعود . . مضت ثلاثة شهور . . وجاءه الزنوج يقولون أن جماعة من البيض قد ظهروا . . وسارع هو إليهم . . فقد جاءوا للبحث عنه وعن زملائه .

وأنقذوه وعادوا به إلى ملبورن . . وحاولوا أن يجدوا أى أثر للزملاء الذين ماتوا ودفنوا . فقد نزع الزنوج ملابسهم وتركوهم للفناء .. فلم يبق منهم شىء..أو شىء قليل.وهذا الشىء القليل أودعوة الأرض إلى جوار شجرة وكتبوا عليها : مات يوم ٢ سبتمبر سنة ١٨٦١ روبرت بيرك ونشرت الصحف فى استراليا ما حدث وهاجمت بيرك بعنف . . كيف أنه يقوم على رأس بعثة علمية ثم يعتمد على تاجر أغنام لم يعرفه إلا فترة قصيرة ؟ .. كيف أنه أصدر إليه معلومات

شفوية . . كيف أنه لم تكن لديه خطة محددة ؟ كيف أنه لم يدون مذكراته طول هذه الرحلة ؟ كيف لم يخطر على باله أنه قد يموت فى أية لحظة ويكون موته خرابا على الدولة التى أعطته المـــال ولم تستفد منه شيئا ؟

ثم عادت الصحف وهاجمت تاجر الأغنام الذى يعرف الطريق أكثر منهم جميعا ولم يبصرهم بمتاعب الطريق . . ثم كيف انهم أمنوا إليه . . ولم يأمن لهم . . كيف أنه حاول أن يسرق منهم رحلة الموت هذه . .

وبعد ذلك عادت الصحف تقول صحيح أن بيرك مات ودفن فى الطريق.. ولـكنه فتح طريقا إلى الشمال وترك علامات على الأرض . . هذه العلامات سوف تذروها الرياح وتمحوها السيول . . ولـكن الذى تركه فى التاريخ والجغرافيا والاكتشافات لن يمحى . . فقد كان مثالا للشجاعة والجرأة وحسن النية . . كان يعرف الجبال ولا يعرف الرجال .

وبذلك

أصبح الطفل رجلا

فجأة أحس الأبن أن كل شئ فى الدنيا قد انتهى . . لا أحد فى الدنيا . . فراغ هائل . . وصمت مخيف . . ولا يدرى ما الذى يفعله . . فهو لم يتعلم شيئا له قيمة ولا كان من الممكن أن يتعلم . . فهو فى الثالثة عشرة من عمره وأبوه مات فجأة . . وأمه مريضة واخوته الثلاثة صغار ولا يعرف أحد من اين كان أبوه بهذه الأموال القليلة . . فأبوه رجل صامت يخرج ويدخل كالطيف ولكن الشئ المؤكد أنه يكن لأمه عظيم الأحترام ، وحاول أن يتذكر فيما بعد أن كان هناك أى خلاف بين أمه وأبيه فلم يجد وفى نفس الوقت لم يلاحظ أن احدا زارهم ولا سمع واحد من أقاربهم .

وعندما مات أبوه حدثت اشياء كثيرة بسرعة . . جاء الجيران بالقسيس وجاءوا بأناس آخرين . . وحملوا الجثمان ودفنوه . . ثم أتوا له بمفتاح الدكان الذى يبيع فيه الأب عددا من الكتب والمخطوطات القديمة . . وبين الحين والآخر يجئ بعض الناس ومعهم بعض الفاكهة والخضروات أو البيض أو الخبز ويتركوها عند الباب وقد رفعوا قبعاتهم . . ثم ينطلقون دون أن يقول الواحد منهم كلمة واحدة .

وكانت الأم بملابسها السوداء تحنى رأسها وتسبقها إلى الأرض دموعها . وتسحب هذه الأشياء إلى داخل المنزل ولكن لم يدر بين الجميع كلام . ولكن الأبن الأكبر قرر أن يتحدث إلى أمه فهو لم يطق هذا الصمت الطويل وقد سمع كثيرين من الناس أنه رجل . . ويجب أن يكون رجلا . . وأن تعتمد عليه أمه واخوته .

ولـكن تعتمد عليه فى أى شئ ؟ أنه لا يعرف . .

وفى يوم نادته أمه وقالت له بحزم : اسمع ياكارلو أنت رجل وأنا لا أعرف ما الذى تركه أبوك فى دكانه اذهب وابحث ولا تعد الا وفى دكانه شئ لاخوتك . . أنت لم تتعلم بما فيه الكفاية . . ولـكن هذه فرصتك وأن والدك قد كتب مذكرات ولم يكملها . . اقرأ ما كتب أبوك . . فأبوك رجل صابر . . تعذب كثيرا . . وعذابه كان مضاعفا لأنه عذاب فى صمت . . لم يقله لأحد . فهو من أبناء الجبال . . ويرى أن الشكوى عيب . . اقرأ ما كتب اذهب رجلا وعد أكثر رجولة . .

ثم اعطته مفتاح الدكان . .

وذهب الابن كارلو دونساتى يوم ١٤ ابريل سنة ١٨٩٣ إلى دكان أبيه . . فى الدكان ألوف من الـكتب . . وبلغات مختلفة . . وهو لا يفقـه منها أى شئ . . فلم يحدث أن دخل هذه المـكتبة ولا جلس إلى والده ولو فعل فكيف يفهم كل هذه الجبال والمخطوطات الغريبة والعجيبة .

ووجد كارلو فى أحد الأدراج لفة من الأوراق المـالية . . ووجد بعض القطع الذهبية . . ثم وجد صورا من خطابات بعث بها الأب إلى بعض الناس يطالبهم بمال . . وأحس بشئ من الارتياح . . وأعاد الأموال إلى والدته . . ولـكن هذه الـكتب الـكثيرة هى المشكلة . .

ووجد فى أوراق والده خطابا موجها إليه . إذن لم ينس أبوه أن ينصحه أو لم ينس أن يفكر فى أولاده . . يقول الأب فى مذكراته التى جعل عنوانها (إلى أى إنسان يجد هذه الأوراق وإلى ابنى كارلو بصفة خاصة) يقول الأب :

اجعل قدمك صديقك اجعل يدك صديقك . . اجعل نفسك صديقك . . انها مسافة طويلة أن تمد رجلك وأن تفرد ذراعك . . أقرب الناس إليك

نفسك . . فاعتمد عليها . . وارحمها لأن أحدا لا ولن يرحمك . . هذه تجربتى عندما كنت قسيسا وعندما أصبحت تاجرا بعد ذلك . . وبعد أن هاجرت من مدينة تورينو فى الشمال إلى مدينة تارانتو فى الجنوب .

إذن أبوه كانت له تجارب مريرة ولذلك هاجر من شمال إيطاليا إلى جنوبها . . ولكن لم يشأ الأب أن يذكر ماذا حدث له . لعله خجل . . أو لعل الحياة لم تعطه له الفرصة لكى يقول . .

وفى صفحة أخرى يقول : (ياولدى مهما كانت الأسباب . . مهما كانت الظروف . . مهما كانت الضرورة لا تذهب إلى كنوسا . . إذا لم تعرف معنى هذه العبارة فاسأل الناس . . . لا تذهب إلى كنوسا مهما تمزق لسانك من العطش وتحطمت جوانبك من الجوع ومهما جلك العار . . لا تذهب إلى كنوسا . . انها كلمة حكيمة قالها مستشار ألمانيا بسمارك) .

وسأل الأبن عن معنى هذه النصحية الحازمة . . فعرف أن المستشار الألمانى بسمارك أعلن فى البرلمان يوم ١٤ مايو ١٨٧٢ وهو يوجه حديثه إلى بابا روما . . لا . . لن نذهب إلى كنوسا .

وكان يشير بسخرية إلى ما فعله ملك فرنسا هنرى الرابع عندما سار حافى القدمين والصدر والرأس ثلاثة أيام وهو شديد الندم إلى كنوسا حيث يقيم البابا روما جريجورى السابع ، وكان ذلك فى يناير ١٠٧٧ .

إذن أبوه لا يريده أن يحنى رأسه لأى أحد . . مهما كان السبب . . وأن يعتمد على نفسه ولكن ما الذى يفعله . .

يجب أن يفعل شيئا يليق برجل . . وهو رجل . . كل الناس تقول له ذلك وأمه تكرر له ذلك . . ويجب أن تعتمد عليه أسرته الصغيرة . . إذن لابد أن يبيع هذه الكتب ، وأن يشترى غيرها وأن يكسب فى عملية البيع والشراء .

وبدأ هذا الشاب الصغير أعظم تجربة ثقافية تجارية سياحية فى التاريخ .. جلس كارلو دونساتى وأمسك ورقة وقلما .. وكتب اسماء هذه الكتب جميعا ورتبها الواحد إلى جوار الآخر .. ثم عاد فرتبها حسب اسماء المؤلفين .. ثم رتبها حسب الموضوعات .. وعلق فى الدكان قوائم باسماء الكتب ووضع اسهما تشير إلى اماكنها فى أعلى الدكان .. وذهب إلى أحد القساوسة ليتعلم مبادئ اللاتينية واليونانية .. وذهب إلى قسيس آخر ليتعلم مبادئ الانجليزية والألمانية .. وإلى قسيس ثالث يعلمه مبادئ الفرنسية والعربية .

وكان قد قرر أن يعمل طول النهار فى الدكان الذى أغلقه على نفسه .. أما فى الليل فهو يعمل فى تجارة الفاكهة والخضروات وصيد السمك .. ويعود إلى البيت يحمل معه ما كسبه من المال . . وفى الصباح يذهب إلى المكتبة ويغلقها عليه ..

مضت خمس سنوات كاملة لم يبع فيها كارلو كتابا واحدا .. وكانت أمه تراه ولا تسأله . . ولكنها تجد الارهاق على وجهه فتصلى له وتدعوا الله أن يعطيه العافية ..

وكان يخجل أن يقول لأمه شيئا .. ولكن الذى لم يعرفه هذا الشاب الصغير هو أن أمه كانت تتابع من القساوسة .. وكانت تصلى من أجله .. ومضت خمس سنوات أخرى .. لم يبع فيها كتابا ولا دق بابه أحد .. ولا هو تحدث إلى أحد .. وإنما ظهر الارهاق عليه أكثر وأكثر .. وعندما سقط مريضا .. طلبت إليه أمه أن يعطى نفسه بعض الراحة .. وأن لديهم من المال ما يكفيهم شهورا .. فهو كان يعمل واخوته الآن يعملون .. وهى تدير شئون البيت بالحساب الدقيق .. ونام كارلو مريضا ولكن رأسه يدور .. وكانت أمه تجلس إلى جواره حتى ينام .. وكان إذا رآها إلى جواره نام بسرعة .

ومضت خمس سنوات أخرى . . وبعدها أعاد فتح المكتبة .. ولكن احدا لم يذهب إليه .. وكان يتوقع ذلك فذهب إلى قسيس مدينة تارانتو

ثم ذهب إلى العمدة... ثم ذهب إلى بيوت الأثرياء وكانت له طريقة ذكية .. فهو لا يذهب مباشرة إلى القسيس وإنما إلى بعض موظفى الكنيسة يتحدث إليهم عن عظمة هذا القسيس وحكمته . . ويقول لولا أن القسيس ليس لديه الكتاب الفلانى .. إننى رأيت قساوسة روما لا يتركون هذا الكتاب ..

ثم يمضى إلى مكتبته . .

ويفاجأ بأن القسيس جاء يسأل عن الكتاب . . ويبيع له الكتاب وكتابا آخــر وثالثا . .

ويذهب إلى الأغنياء .. ولكنه لا يذهب إليهم مباشرة .. وإنما إلى أصدقائهم .. ليس أصدقاؤهم المثقفون .. وإنما الأدعياء .. والأدعياء أكثر الناس إقبالا على الكتب .. لأنهم حريصون على الظهور والتظاهر .. ويحدثهم عما جاء فى هذه الكتب .. وكيف أن ملوك بريطانيا وفرنسا لا يقرأون إلا هذه الكتب .. وكيف أن الملوك أوصوا بقراءة هذه الكتب سرا حتى لا يعرفها الشعب ..

أما كارلو هذا فقد فعل ما لم يفعله أحد من قبل .. لقد أعطى لنفسه عشر سنوات يقرأ فيها بإمعان ودقة كل ما جاء فى هذه الكتب .. وأن يكتب تلخيصا سريعا لها .. وكان يهتم بأخبار هذه الكتب أكثر من اهتمامه بها .. وكان يهتم بالنوادر التى يسهل على الناس أن يحفظوها أكثر من المواعظ والحكم فليس أسهل من رواية نكتة وليس أصعب من احتمال موعظة وما يزال الرجل المرح محبوبا فى كل وقت .. وما يزال الواعظ والناصح .. مهما كان أمينا، ثقيلا على الأذن وعلى القلب .. ولذلك كان الأب أثقل من العم .. والعم أثقل من الجـــار .

ووجد فى أوراق أبيه أن الناس لا يفهمون إلا ما يرون .. ولا يزنون الناس إلا عن بعد .. فالمظاهر هى كل شئ وأول ما فعله هو أنه أبدل ملابسه .

وأحسن تصفيف شعره وطلاء أظافره .. وتنظيف حذائه واعتاد أن يقول إنه من أسرة فى الشمال وأن خلافات عائلية هى التى دفعت أباه المحب للعلم إلى أن يبدد أمواله من أجل أن ينقل الثقافة إلى الناس .

وراح يعرض نفسه على الفتيات .. وتردد اسمه بين كثير من العائلات على أنه شاب مثقف عالم قرأ مائة ألف كتاب . وتعلم عشرين لغة .. وكان إذا أحد سأله عن ذلك لا يقول لا .. ولايقول نعم .. وإنما تجئ الابتسامة العريضة المتواضعة دليلا على أنه يعرف ما يقرب من هذا العدد ..

وجزء من المظاهر أن يكون مستقيما أى أن يكون صعبا وليس من السهل إغراوه ولا الإيقاع به . . وفجأة وجد نفسه حلما يدوخ الفتيات .. وفجأة وجد عشرات من السيدات يترددن على بيته لأسباب غير مفهومة وفجأة تحولت أمه إلى سيدة شهيرة محبوبة مرغوبة .. طبعا إنه هو الهدف من هذا كله .

لم يعد البيع والشراء مشكلة .. فقد عرف الجميع الطريق إليه ..

ورغم هذا النجاح الواضح فإن لديه مشكلة .. وربما كانت هذه هى المشكلة الوحيدة أمامه .. فى المكتبة كتاب من ستة أجزاء .. وهذا الكتاب مكتوب باليد إلى شخص يقال له (السيد المحترم العظيم الوفى لويجى كاروتشى) متعه الله بالصحة والعافية وأدام عليه هذا الثراء العريض .. كتبت هذا الكتاب فى عشر سنوات بناء على طلبك .. واطمئنانا إلى وصيتك بأن يتلقى أولادى من بعدى الهدية التى وعدتنى بها أمام الله .. أبقاك الله وغفر لك ذنوبك وذنوبى ...الخ .

والكتاب فى أكثر من ألف صفحة ..

ولم يعرف أحد أين هذا السيد كاروتشى .

وكان عليه أن يسأل كل من يلقاه من الناس .. وأخيرا قرر أن يسافر

إلى روما ويسأل الفاتيكان .. فلابد أن لديهم أخبارا عن كل الناس المسيحيين فى إيطاليا وفى العالم .. ولم يكن الأمر فى الفاتيكان سهلا فبدلا من أن يدلوه على واحد بهذا الاسم.. قدموا له ألوفا بهذا الاسم .. وليس من بينهم واحد فى مدينة تارانتو حيث يعيش هو ووالدته وإخوته .. ووضع الأسماء كلها أمامه .. فوجد أن هذه الاسرة .. لسبب غريب غير مفهوم .. قد تفرقت فى كل إيطاليا .. وراح يطالع الأسماء ويضعها بعضها إلى جوار بعض ووجد أنه لابد أن يذهب إلى ثلاثين مدينة . . ثم اختصر هذه المدن إلى عشرين وقرر أن يجد هذا الرجل حيا أوميتا وبعث إلى أمه يقول لها :

« إن أخى الصغير أصبح يعرف الكثير من شأن المكتبة .. فاعتمدى عليه بعض الوقت .. وأنا عند حسن ظنك وكما عودتك سوف أحضر فى مدى سنة .. والله يحفظك » .

وبدأ أغرب وأعجب بحث عن شخص اسمه لويجى فى إيطاليا .. إن البحث عن لويجى مثل البحث عن شخص اسمه محمد فى العالم العربى .

ولكنه تعلم أن يسأل رجال الدين وبعد ذلك يسأل المرابين . . إنهم وحدهم الذين يعرفون كل أسرار الناس ووجد عشرات بهذا الاسم .. مزيدا من الأسماء تنطبق عليهم الأوصاف التى جاءت فى الكتاب المجهول المؤلف .

وقابل رجلا اسمه فعلا لويجى كاروتشى . . إنه تاجر غلال وبسرعة فحصه الرجل من فوق إلى تحت وقال له : أخيرا جئت ياولدى .

وأحس كارلو بسعادة لا حد لها .

وقال له لويجى : ولكن والدك لم يقل لك بقية الشروط . . لا بد أن تتزوج ابنتى الجميلة .. وأن تكون واحدا منا . وتزوج الابنة الجميلة فعلا.. واكتشف بعد شهر أن هذا الرجل لويجى ليس هو الذى قصده الكتاب .. وصارح زوجته بذلك .. وقررت الزوجة أن تواصل البحث معه .. ولكن

كارلو هذه المرة كان أحسن حالا .. فالفتاة غنية وقد عاونته بفلوسها على مواصلة البحث . . وبعث لأمه يقول إنه تزوج وأنه سوف يعود مع عروسه قريبـــا ..

وفى مدينة جنوه وجد رجلا كبيرا فى السن اسمه لويجى .. وروى له قصته .. ولكن هذا الرجل المريض صارحه بأن واحداً له هذا الاسم كان يقيم فى جنوه . . ثم رحل عنها إلى مدينة تارانتو . . وغير اسمه وهو يعيش فى بيت منعزل خارج المدينة يعلم اللغة اللاتينية واليونانية لأولاد الذوات .. وهو رجل طيب راهب .. كان يقرأ كثيرا وقد كلفه بأن يلخص مئات الكتب فى مجلد واحد .. ووعده بذلك مقابل مكافأة قدرها عشرة آلاف جنيه ؟

الصورة الآن واضحة يجب أن يعود كارلو بسرعة بعد أن تنقل أكثر من ثلاث سنوات بين المدن والقرى يبحث عن هذا الرجل لويجى . . لأن هذا الرجل يقيم فى نفس المدينة التى كان يعيش فيها .. ولأن والد كارلو هو مؤلف هذا الكتاب .. وأغرب من ذلك أن هذا الرجل لويجى هو الذى علم كارلو مبادئ اليونانية واللاتينية ولم يشأ أن يقول له شيئا .

وعاد كارلو ومعه عروسه وطفلان صغيران لهما .. ووجد هذا الرجل لويجى فى البيت .. وقام الرجل وقامت أمه وعانقت العروسين والطفلين ولم يكن كارلوا فى حاجة إلى أن يسأل عن شئ مما حدث .. ولم يكن من الصعب عليه أن يعرف أن السيد لويجى كان يلتزم بوصية والد كارلو وهى أن يتركه حتى يصبح رجلا ويتركه حتى يهتدى اليه بنفسه .. بتعبه .. وعذابه .. وليس أسهل من أن تكون طفلا وليس أصعب من أن تكون رجلا .. أبا لأخوته الصغار ثم أبا لأولاده هو .. وعميدا لأسرة هى أمه وأخوته . . وكانت الجائزة المالية تنتظره ولكن الذى كسبه فى البحث عنها أعظم وأعمق من الفلوس نفسها .

ولم يأمن

إلى

واحد منهم

كانت ليلتهم الأخيرة .. شربوا .. رقصوا .. ودع كل واحد منهم أصدقاءه وأقاربه .. وقرروا أن يناموا على ظهر السفينة حتى الصباح . وعند الصباح يفتحون المظروف المقفل ويصلون لله . ثم يتجهون إلى أقرب جزيرة لم يعدأ حدهم يفكر فى شئ .. كل واحد منهم قد فعل ما فى نفسه وزيادة .. وقد سألهم نوح برادلى : هل هناك شئ منحط لم يأته واحد منكم ؟

وضحك الجميع وقالوا ..

– لم نترك رذيلة واحدة ياقبطان ..

وأثناء الليل تعالت الصرخات وحاول البحارة أن ينهضوا من النوم المخمور . وبعضهم يتساند على البعض ويتساءلون :

– من الذى قتل القبطان ؟

وبرز من بينهم واحد مخمور وهو يقول :

– أنا الذى قتلته !

– ولكن لماذا ؟

لقد ارتكبنا كل الرذائل إلا جريمة القتل .. وقد قتلنا الآن، وبذلك سهلنا مهمة السماء .. فنحن جميعا نستحق الجحيم .

وكأنهم فى إحدى المسرحيات الفاجعة فقد عادوا جميعا إلى النوم إنهم سكارى وعندما طلعت الشمس عليهم فى ميناء سيدنى باستراليا فوجئوا بالحقيقة : أن القبطان قتيل حقا .. وليس حلما كما حاول بعضهم أن يقنع البعض الآخر .. ولكن كيف حدث هذا كله .. ومن الذى قتله لا أحد

يعرف بالضبط .. وحاول كل واحد منهم أن يروى قصة مختلفة عن الذى رآه وهو مخمور .. ولكن البوليس لم يأخذ برواية واحد منهم ويقال إن القبطان انتحر .

وفى يوم ١٤ يونيو سنة ١٨٩٧ تنبه أحد البحارة العشرين إلى أنه من الضرورى فتح المظروف الذى تركه القبطان وفتحوا المظروف ووجدوه يقول :

إن هناك كنزا فى جزيرة (الحوت الأزرق) وعليكم أن تقسموه بينكم ولكن إياكم أن تنسوا العم شاروف .

أما العم شاروف فهو رجل فى السبعين من عمره .. وكان بحارا وتقاعد لا لأسباب صحية ، ولكن لأسباب خارجة عن إرادته فقد انكسرت ساقه اليمنى وذراعه اليسرى أيضا . ولكنه رغم ذلك فى صحة جيدة.. ثم إنه إذا شرب لا يتوقف عن الغناء .. وهذا هو أسوأ ما فيه ،، ولكنه هو الذى دفع كل أمواله فى بناء السفينة الشراعية (جنة عدن) التى يعيش عليها هؤلاء البحارة العشرون .. وهذه هى رحلتهم العذراء .. أولى رحلاتهم .

ورغم أن بعض البحارة قد بكى على القبطان ، فإنهم يتهامسون بأن السفينة التى لا يسيل عليها دم لا تطفو على الماء .. فالدماء هى التى تجعلها تقاوم الموج والريح بقوة شيطانية .. وبقيت عندهم مشكلة من الذى سيكون قبطانا .. لم يستغرقوا وقتا طويلا فى التفكير فقد استدعوا العم شاروف صاحب السفينة ليكون فى نفس الوقت قبطانها وجاء العم شاروف .. وشرب وراح يغنى .. واحتمله البحارة .. فهو رئيسهم وصاحب المال وهو أيضا فى غاية القسوة ..

ولم يضيع العم شاروف وقته .. وقرأ المظروف .. ورأى الخريطة .. وطلب إلى البحارة أن يفعلوا كل ما يريدون ليلة أخرى .. أن يشربوا ويرقصوا ويودعوا أحبابهم .. وفعلوا ذلك ونام هو على الشاطئ .. وطلعت

الشمس ولم يجدوا قتيلا .. لقد احتاط العم شاروف وكانت الرياح معتدلة والمحيط هادئا .. العم شاروف كبحار قديم يعرف جيدا معنى رفع الكلفة بينه وبين البحارة ويعرف أن الخمر تذيب الفوارق بين القبطان والبحارة وشرب مع البحارة .. وحاول واحد منهم أن يداعبه ،، فقام إليه وضربه وأسال دمه ووضعه فى السجن .. وحاول بحار آخر أن يدافع عن زميله فضربه العم شاروف وأسال دمه .. وأمر بإيداعه السجن أيضا .

ومضت السفينة (جنة عدن) متجهة إلى الشرق تحاذى شواطئ قارة استراليا وبعد ذلك سوف تتجه إلى الشمال ثم إلى الشرق وسوف تستغرق الرحلة أربعين يوما . إذا كانت الأحوال الجوية مناسبة .

واختار العم شاروف أصغر البحارة سنا . وجعله مساعده . ثم اختار أكبرهم سنا وجعله المساعد الآخر وكان العم شاروف ينام نهارا ويصحو ليلا . ولا يشرب أمام البحارة ولا يشرب معهم .

أما كيف عرف القبطان نوح قصة الكنز هذه فيرجع ذلك إلى قصة قديمة عرفها البحارة قبل ذلك بسبعين عاما إنها قصة جماعة من اللصوص اختلفوا فيما بينهم .. وراحوا يتقاتلون .. ولم يبق منهم إلا رجلان تعبا من البحر فقررا أن ينزلا إلى إحدى الجزر . . وأن يقسما المال وأن ينتظرا إحدى السفن الكبرى لإنقاذهما .. ويقال إن الرجلين أقاما فى هذه الجزيرة عشرين عاما .. ولم تمر سفينة واحدة .. وأخيرا قتل أحدهما الآخر ثم وضع القاتل خريطة للجزيرة ولمكان الكنز فى برميل خشبى وألقى به فى المحيط .. وظل هذا البرميل عائما فى المحيط حوالى الخمسين عاما .. وأخيرا اهتدى إليه أحد أفراد أسرة القبطان نوح ووعده بالمساعدة المادية وساعده .. وحاول نوح أن يأتى إلى هذه الجزيرة وحده ولكن زورقه غرق .. وكاد نوح أن يموت .. وأنقذوه بعد أسبوعين كانا من أقسى أيام حياته .. وساعده فى بناء

هذه السفينة .. ويقال إن العم شاروف هو الذى قتله .. لا أحد يعرف بالضبط ولكن لماذا قتله ؟

يقال إنه كان يعلم أنه لن يستطيع أن يتخلص منه فيما بعد .. ويقال إن شاروف هذا لم يكن فى استطاعته أن يجمع هذا العدد من البحارة الأكفاء .. ويقال إن شاروف هو الذى خيره بين أن يقتل نفسه أو يقتله شاروف .. فاختار القبطان نوح أن يموت بيده .. لقد كان مخمورا لا أحد يعرف بالضبط .

وفى اليوم السابع لرحلة السفينة (جنة عدن) أفرج العم شاروف عن المسجونين .. ثم جمع البحارة جميعا وقال لهم : إننا ذاهبون إلى كنز هذا واضح .. وقبل أن نذهب إلى هناك سوف يكون لكل واحد نصيب مماثل للآخر .. أما أنا شخصيا فزاهد فى المال .. فأنا كما ترون .. لا أصلح لأى شئ ولا أريد المال وكنت أفضل أن أموت على الشاطئ لا أن أكافح الموت هنا .. فقد تعبت من البحر وأتعبت البحر .

وسأله أحد البحارة : ولكن ياقبطان هل تعرف بالضبط كم يزن هذا الكنز ؟ .

وقال القبطان : لا أعرف .. ولا داعى لأن نتعجل فالرحلة طويلة .. والخريطة التى معنا ليست واضحة . ولم يسترح البحارة إلى ما قاله القبطان شاروف .. فليس صادقا ولا ساذجا كما يحاول أن يقنعهم بذلك واكتشف أحد البحارة أن العم شاروف هذا لا يذوق الخمر مطلقا وأنه يتظاهر بأنه مخمور .. فقد راقبه جيدا .. ولاحظ أنه يبلل شفتيه بالخمر . ثم يلقى بالكأس فى أرضية السفينة .. ولاحظ أيضا .. أنه لا ينام على سريره وإنما ينام وراء باب الغرفة الصغيرة التى اختارها .. فإذا قرب أحد من الباب أحس به وتساند بسرعة على سيفه .

وبعد عشرين يوما من الرحلة أصبح واضحا أن العم شاروف كان شرسا ولم يعد يطيق صبرا على المناقشة ولكنه فى نفس الوقت لم يعد يتدخل فى فض المنازعات بين البحارة .. بل إنه كان يغرى البحارة بأن يتشاجروا وأن يتقاتلوا .. وكان فى استطاعته إنقاذ واحد منهم من الموت .. ولكن لم يشأ أن يتدخل . فأطلق واحد من البحارة خنجره إلى رأس زميل له فمات فورا .. ولم يعاقبه العم شاروف على ذلك .. ولكنه قال له .. كنت أفضل أن تستخدم براعتك هذه فى صيد الحيتان لا فى صيد زملائك .

وضحك العم شاروف وهو يلقى بجثة القتيل إلى أسماك القرش .

وليس من الصعب على أحد من البحارة أن يدرك أن العم شاروف قد أصبح الآن إنسانا آخر تماما .. فهو لا يغنى كما كانوا يتوقعون .. ولم يعد يجلس بعيدا عنهم .. يجلس معهم وإليهم .. ويطلب إليهم أن يبعدوا زجاجات الخمر لأنه قد شرب حتى كاد ينتحر .. هكذا يقول .. وهم يعلمون أنه كاذب .. ثم إنه تحول إلى شخص ظريف . . يروى حكايات كثيرة غريبة عن مغامراته فى البحار ومع النساء ويقول : البحار كالنساء ، لا قرار لها ولا أمان لها .. وهى مقبرة الرجال .

وفى اليوم السابع والثلاثين كانت السماء تمطر . . والرياح شديدة تدفع بالشراع يمينا وشمالا ، جمعهم العم شاروف وقال لهم : إننا على مدى يومين فقط من الجزيرة ..

ثم وصف لهم مكان الكنز وسألوه إن كان قد جاء إلى هذه الجزيرة من قبل .. فأجاب بأنه جاء أكثر من مرة ولكنه كما يرون .. لا يستطيع أن يتسلق الأشجار .. فسألوه إن كان من الضرورى أن يتسلق الأشجار أجاب طبعا ضرورى فهناك أخدود شق فى الأرض بسبب الزلازل وهذا الشق قد قسم أحد الكهوف إلى نصفين .. وقال : سوف ترون ذلك بأنفسكم .

ولاحظ البحارة أن العم شاروف قد ظهرت عليه القسوة .. ولاحظوا أيضا أنه كان قد اتفق مع أربعة من البحارة أن يكونوا حرسه الخاص .. كل ذلك تم دون أن يلاحظ أحد . ولاحظوا أيضا أنه جمع السلاح من أيديهم جميعا .. كل الأدوات الحادة كالسكاكين والخناجر والسيوف وحتى الأعواد الحديدية .. كل ذلك جمعه العم شاروف وأخفاه فى مكان ما من السفينة .. ويقال إنه استعان برجاله الأربعة وألقوا بها جميعا فى المحيط .

وفى اليوم التاسع والثلاثين رأوا على مدى البصر بقعة حمراء من الأرض إنها الجزيرة الصغيرة .. وكانت الريح عنيفة .. وأمر العم شاروف بلم أشرعة السفينة .. ولكن الموج كان يدفع السفينة .. فى اتجاه الجزيرة بسرعة غريبة .. وأمر بأن تستدير السفينة قليلا حتى لا تصطدم بالأحجار المرجانية .. وبعد ساعات وصلت السفينة (جنة عدن) إلى أقرب شواطئ الجزيرة ..

وكانت المفاجأة للعم شاروف أن وجد خمسة من البحارة قد التقطوا زورقا صغيرا . . ثم نزلوا فيه . . وجاء ثلاثة آخرون وألقوا بأنفسهم فى الماء . . إذن لقد اتفق هؤلاء الثمانية على الخيانة . . وصرخ واحد من الذين استقروا فى الزورق بأن الخريطة معه . . وأن رجلا مثله لا يستحق إلا الإعدام وسوف يعدمونه .

ولم يهتز العم شاروف . . فقد استعد لهذا الموقف أيضا . . فالخريطة التى حملوها معهم خريطة مزورة أما الخريطة الحقيقية فهى التى أخفاها تحت ملابسه ملاصقة لجلده . . وأما البراميل التى ألقوا بها فى الماء فلم تكن مملوءة بالنبيذ كما كانوا يتصورون لقد استعد أيضا لذلك فملأها من ماء البحر . وتلفت البحارة الذين وقفوا إلى جوار العم شاروف يسألونه أرأيت ماذا فعلوا . .

فقال : رأيت ولكن أرأيتم ماذا فعلت أنا . . فليس عندهم طعام ولا عود

كبريت ولا كوب نبيذ ولا قطَعة لحم . . ولا غطاء ولا سلاح . . وأهم من ذلك ليست معهم خريطة .

وفجأة أصدر العم شاروف أمرا غريبا . . طلب إلى بحارته أن ينشروا أشرعة السفينة وأن يبتعدوا عن الجزيرة ولما سألوا عن السبب قال :

سوف نتركهم حتى يموتوا . .

ولم يفهم الرجال شيئا . .

ولكن إصراره وعناده وصراخه أخافتهم..ولكى يطمئنهم أخرج من تحت ملابسه الخريطة القديمة للكنز ثم طلب إلى واحد من رجاله الأربعة أن يفتح البرميل الذى نسى البحارة أن يلقوا به فى البحر . . وفتح البرميل فلم يجد به إلا ماء البحر . .

وشرب الجميع فى صحة العم شاروف وذكائه وحرصه الشديد . . وظلت السفينة تدور حول الجزيرة أسبوعين كاملين دون أن تقترب منها .

وفى اليوم الخامس عشر قرر العم شاروف أن تتجه السفينة إلى الشاطئ وكان الإعياء واضحا على وجهه . وطلب إلى واحد من رجاله أن يأخذ معه ثلاثة آخرين وأن يهبطوا إلى الجزيرة . . وفجأة لاحظ العم شاروف شيئا غريبا . . وضحك بأعلى صوته . . لقد لاحظ أن الخريطة التى أخرجها من ملابسه قد اختفت . . إذن لقد سرقها واحد من هؤلاء الأربعة الذين اعتمد عليهم . . وكان العم شاروف قد استعد لهذه المفاجأة . . فليست هذه الخريطة إلا ورقة مزورة . .

ولم يكد هؤلاء الأربعة يهبطون إلى الشاطئ حتى هجم منهم ثلاثة على واحد فقتلوه . . ثم استدار اثنان وقتلا الثالث . . وبسرعة طار خنجر من فوق السفينة واستقر فى بطن الرابع . . إن العم شاروف من أمهر الذين يستخدمون الخناجر عن بعد . .

وعندما نزل العم شاروف ومن تبقى من الرجال إلى الشاطئ ، قرروا أن يبيتوا هذه الليلة على الشاطئ فإذا طلع النهار عادوا للبحث عن الكنز وعن هؤلاء الرجال . .

وفى الصباح لم يجدوا الرجال وإنما رأوا من بعيد جثتهم فى أحد الكهوف. أو لعلهم ماتوا من العطش . . أو من الجوع . . أو تشاجروا . . لا أحد يعرف بالضبط . . ولم يهتم أحد بأن يعرف . . فأهم شئ الآن هو الكنز . .

وأصبح من الواضح الآن أن العم شاروف له أربعة من الرجال يحرسونه ليلا ونهارا . . أما عدد البحارة جميعا فأحد عشر رجلا . . منهم أربعة مخلصون للعم شاروف . . والسبعة الباقون لا يأمن جانبهم . . أولا لابد من التخلص منهم . . ولكن من الصعب أن يفعل ذلك .. وإلا فكيف يعود بالسفينة إلى استراليا . . إنه فى حاجة إلى هؤلاء الرجال . . ولكن كيف يعود بهم ومعه الكنز . . إنها إذن رحلة انتحارية . . وإما أن يقتلهم . . وإما أن يقتلوه . . وإذا قتل السبعة فكيف يضمن هؤلاء الأربعة . . وإذا ضمنهم فكم يوما . . ثم ما الذى يفعله إذا لم تأت سفينة لإنقاذهم جميعا . . إنه يعرف قصة الذين جاءوا وأخفوا الكنز وانتظروا طويلا ولم يأتهم إلا الموت . .

أما الذى حدث بعد ذلك فشئ عجيب . . فى يوم ٩ سبتمبر وعلى غير ما يتوقع واحد من البحارة أن سر الكنز قد أصبح معروفا وأنهم لا يستبعدون أن تكون هذه السفينة جاءت تسرق منهم حقهم المشروع . . وبسرعة انطلق البحارة فى اتجاه واحد ..وهم يتضاربون.. ويتقاتلون .. ثم يقتل بعضهم البعض.. وحاول العم شاروف أن يوقفهم ويقول كلها خرائط مزورة . . كلها مزورة إسمعونى . . واختفى الرجال وهم يتسلقون الجبال . . ويهبطون إلى الوديان . . ثم يتجهون إلى شق فى الأرض . . ثم يختفون تماما . .

ويصرخ العم شاروف وهو يقول : كلها مزورة . . اسمعونى . . ولكن . . ولـكن أحدا لم يسمعه . .

فقد بلغ من خبث العم شاروف أن أقنع كل واحد منهم بأنه الرجل الذى اختاره . . ثم أعطاه خريطة وطلب إليه أن يخفيها عن كل زملائه وكانت كل هذه الخرائط مزورة . .

وظل العم شاروف وحده يومين وفى اليوم الثالث قرر أن يشرب ويشرب ثم ينام على صخرة عالية . . حتى إذا ترنح سقط ميتا . .

وفى هذا اليوم دنت السفينة الـكبيرة من الجزيرة . . وبسرعة هبط عدد من البحارة . . واقتربوا من العم شاروف وتصايحوا وهم يقولون إنه فعلا العم شاروف . . إنه ذلك الثعلب . . الشرير .

ولمـا سألوه عن رجاله هز رأسه أنه لا يعرف .. ولما سألوه عن الخريطة هز رأسه قائلا . . لا أعرف . . وفتش البحارة ملابسه . . وجردوه منها . . ثم ألقوا به فى المـاء . .

وفجأة وبسرعة ألقى واحد من البحارة بنفسه وراءه ثم سحبه إلى الشاطئ . . لقد لاحظ على ذراعيه شيئا غريبا . . لقد رسم الخريطة بالوشم على ذراعه . . إنها الخريطة الصحيحة . .

ثم روى لهم كل ما حدث قبل ذلك . .

صمغ الشباب
تجمعه
الأيدي الناعمة!

كلما رآه الناس سألوه : وكيف حال أولادك !

وكان يرد عليهم بقوله : عندما تكره السماء إنسانا تجعله مدرسا !

والناس يتحدثون عن الأطفال الذين يعلمهم . وليسوا أولاده . ولكنه فتح قلبه وبيته لأبناء الفقراء. فقد حرمته الدنيا من نعمة الولد . فكانت له زوجة أحبها . وماتت وهى تلد . ومنذ ذلك الوقت وهو يعطف على الأطفال . ان أهل جزر هاواى ينادونه بالملاك الحارس للأطفال . أو يقولون عنه : أنه بابا نويل .

وفى أحد الأيام اكتشف أن الأطفال الخمسة قد كبروا . فهم يردون على أسئلته . وإذا سخر منهم ، سخروا منه ، انهم تحولوا من ملائكة إلى شياطين . انهم فى تلك المرحلة التى يلعن فيها الآباء أبناءهم ، ويشعرون أن الأبوة لعنة . وأن النعمة هى ألا يتزوج الإنسان . وإذا تزوج ألا يكون أبا . وقال لهم فى إحدى المرات : اسمعوا أيها الأطفال أن أحسن رأى هو ألا يكون للإنسان رأى !

وكأنه ألقى حجرا فى بئر عميقة . وبعد لحظات سمع رد الفعل من الأطفال. قال واحد : هل معنى ذلك أن أحسن سكن هو ألا يكون للإنسان سكن ؟ وقال ثان : هل معنى ذلك أن أحسن شئ هو ألا يملك الإنسان شيئا ؟ وقال ثالث : هل معنى ذلك أن أحسن حياة هى ألا تكون للإنسان حياة ؟

وأدرك المدرس الأمريكى أيوب روزنتال أن هؤلاء الأطفال ليسوا إلا نوعا من النحل أتيحت له فرصة أن يلسع . ولكن كيف تحولوا إلى

ذلك ؟ انه هو الذى شجعهم عليه وعلى كل الناس . بل أنه هو الذى عودهم إذا غاب واحد ألا يسألوا عنه . وإذا طلع النهار ووجدوا أنفسهم قد نقصوا واحدا ألا يسألوا عن ذلك .. نعم هذه اللامبالاة هى التى غرسها فيهم . انه قد اختارهم من الأسر التعيسة . أطعمهم وألبسهم . ثم أعطاهم أسماؤهم وأنساهم آباءهم وأمهاتهم . انهم جميعا أولاده .

وكان أهل الجزيرة يقولون : هذا الرجل ممتاز ولكنه غريب الأطوار . ليس فى المدينة أرق منه .. ولا أكرم منه .. ولكنه لم يفلح فى أن يعلم أطفاله الأدب .. مسكين لقد صدم فى زوجته وفى مولودها المنتظر .

وكان يباهى الناس بأن أولاده يعرفون السباحة .. وأنهم حيتان .. وأنهم يقفزون من أعالى الشجر .. وأنهم يغطسون تحت الماء .. وأنهم سيكونون أعظم بحارة فى المستقبل القريب . وكان الأطفال يعيشون من أجل هذا اليوم .. أما الأطفال الخمسة فأعمارهم تتراوح بين الثانية عشرة والرابعة عشرة !

وجاء يوم ٢٩ يونيو سنة ١٩٠٥ ظهرت السفينة الصغيرة التى اشتراها ونزل أطفاله إلى المحيط وسبحوا حتى السفينة وصعدوا واحدا واحدا . وأيوب يرقبهم من بعيد . ويباركهم ويدعو لهم بالنجاة من الموت . والناس على الشاطئ يبكون على العشرة الحلوة والسنوات الخمس التى مرت خاطفة على هذا الرجل الطيب ..

وودعهم جميعا واتجهوا إلى إحدى جزر هاواى . اشترى فيها أرضا وقرر أن يقيم هناك بعض الوقت . لماذا ؟ لم يشأ أن يذكر أسبابا مقنعة لأحد . ولم يكن فى حاجة إلى أن يشرح لأحد وإذا شرح فلن يقتنع أحد . انه رجل أمريكى غنى طيب القلب وهؤلاء أطفاله ينفق عليهم ويعدهم لمستقبل أفضل .

وفى الليلة الأولى لهذه الرحلة الغامضة جلس الأب أيوب يروى لهم

أساطير جزر هاواى . قال : كان هناك إله أسمه ماواْئى . وكان له خمسة أخوة مثلكم . ولكنهم كانوا يحقدون عليه . انهم مختلفون عنكم . فأنتم لا تحبون أحد ولا تحقدون على أحد . وفى يوم من الأيام ، حمل الأخوة سنانيرهم ليصطادوا سمكا . ونسى الإله ماوائى أن يأتى بطعم لسنارته . وضحك اخوته . وكلما ألقوا بالسنانير خرجت معها الأسماك الضخمة . أما الإلة ماوائى فلم يفلح فى صيد سمكة واحدة . وأخيرا قطع أذنه وجعلها « طعما » لسنارته . وألقى بالسنارة فى الماء .. ثم سحب السنارة وخرج شئ ضخم .. هذا الشئ الضخم هو هذه الجزيرة .

هذه الجزيرة اسمها : كاهولا أو الجزيرة الملعونة .. وهى ملعونة لأنها تقتل الرجال . ولا ترحب إلا بالأطفال . ولذلك سوف يعيش فيها الأطفال حتى إذا صاروا رجالا تركوها إلى جزيرة أخرى .

وبسرعة شيطانية متوقعة قال أحد الأطفال : إذن أنت لن تعيش معنا .

وقال طفل ثان : هذا أفضل .

وقال ثالث : إلا إذا تحولت إلى طفل .. انها فرصة لكى نضربك على قفاك !

وقال رابع : إننا أغلبية وتستطيع أن تفعل ذلك ..

وقال خامس : فما الذى ننتظره الآن ؟

وأدرك أيوب أنه بالفعل أقلية . وأنهم يستطيعون أن يتكاثروا عليه . ولكنه بسرعة ، أمسك عصاه الطويلة وانهال ضربا على الأطفال . وقال : ان من يلقى بنفسه فى الماء سوف أطلق عليه الرصاص فورا !

وكانت مفاجأة للأطفال . ولكنه جاد هذه المرة .

بل انه أكثر من ذلك . فلا هو صاحب قلب رحيم . ولم يتزوج قط . ولاهو محب للأطفال . انه فقط ظل خمس سنوات يرعى سمعته عند الناس

حتى إذا أخذ الأطفال بعيدا عن الجزيرة لم يشك فيه أحد . فما الذى يريده هذا الرجل ؟

الذى يريده هو شئ واحد وهو: لن يضيع وقته فى مداعبة الأطفال ولا إطعامهم . انه سيشرح لهم بالضبط ماذا يريد .

وعندما اقتربت السفينة الصغيرة من الجزيرة الملعونة ، وقف الأب أيوب يقول : ان الغرض من هذه الرحلة هو أن هنا نوعا من الأشجار . . هذه الأشجار لها صمغ . هذا الصمغ يعيد للإنسان شبابه. وهناك تسعة أنواع من الصمغ . والذى أريده الآن هو الأصفر اللون. بشرط ألاتكون فيه بقع سوداء.. وهذا الصمغ موجود على شجرة متوسطة الطول . ويجب أن تقطفه وهو على الشجرة . يجب ألا نقطع الأغصان . وإذا قطفناه وضعناه فى أكياس سوداء عند غروب الشمس وبعد ذلك يجب أن نضعه فى عسل النحل بعد ذلك بساعة واحدة وإلا فسد !

هذا هو الغرض من هذه الرحلة . ولما لاحظ أيوب أن كلماته لم تلق آذانا صاغية أمسك عصاه ومسدسه وانهال ضربا على الأطفال .. وهددهم بالقتل غرقا وشنقا وحرقا . وأنه إذا عاد إلى الجزيرة فسوف يقتل آباءهم وأخوتهم أيضا .

وفى اليوم التالى طلعت الشمس على الأطفال الخمسة وقد ناموا بعضهم إلى جوار بعض والحبال فى سيقانهم والسلاسل فى أيديهم .

ودعاهم إلى تناول الإفطار .. وعاد وشرح خطة العمل .. وأعلن : لا أستطيع أن أهبط معكم إلى أرض هذه الجزيرة فأنتم تعرفون السبب .. ولن تذهبوا جميعا .. أذهبوا إثنين إثنين ..

ثم وصف لهم الطريق ..

عليهم أن يمشوا بجوار الشاطئ .. ثم يتسلقوا صخرة معروفة باسم « إبرة

الموت » .. الصخرة هى الطريق الوحيد إلى داخل قناة جافة . هذه القناة تصعد إلى أعلى الجبل .. وقرب قمة الجبال يوجد طريق إلى اليمين . وفى نهاية الطريق يوجد جسر خشبى . هذا الجسر عليه بعض الجماجم . لا داعى للخوف . ولن يخافوا فقد رأوا هذه الجماجم كثيرا نهارا وليلا . ولذلك فهم على يقين من أنهم لن يخافوا . وسوف يسمعون أصواتا تشبه مواء القطط . ولن يجدوا قططا . ولن يخيفهم ذلك . فقد أسمعهم ذلك عدة مرات .

وسوف تتساقط عليهم أوراق الشجر بغزارة . وهذا لايعنى أى شئ . . فقد عودهم على ذلك أيضا .. وبعد أن يمروا بهذا الجسر سوف تلين الأرض تحت أقدامهم ، وسوف يغوصون فى الرمل أو الطين حتى الركب . ولكن بعد ذلك سيجدون طريقا مرصوفا من الحجارة البيضاء وعلى جانبي الطريق جماجم أيضا .. ولن يخافوا . هو يعلم ذلك . فقد مروا فى طرق مماثلة ولعبوا الاستغماية . وألقوا بالأرز واللحم والفاكهة على الجماجم . دون أن يعرفوا الخوف أو الغرق ، فقد اعتادوا على ذلك من قبل .

يقول أيوب روزنتال فى مذكراته التى نشرت فى نيويورك سنة ١٩١١ بعنوان « الرحلة الملعونة إلى الجزيرة الملعونة » .

« وقد حسبت كل شئ قبل ذلك بسنوات وناقشت كل الاحتمالات ولم أفرط فى طفل من هؤلاء الأطفال . ولكن فى كل مرة كان يحدث شئ لم يخطر لى على بال .. » .

ونزل أول ولدين منهم . وبسرعة اختفيا بين الصخور ثم فى القناة ثم مرا بالجسر الخشبى . ثم اتجها إلى قمة الجبل . تماما كما علمهما . وكل شئ فى مكانه كأنه هو الذى رسمه أو رتبه . وطلع النهار . ولم يعد هذان الطفلان ..

وطلع النهار والأطفال الثلاثة مربوطون بالسلاسل والحبال . وأعاد

إطلاق سراحهم . وتناولوا طعامهم . وكما هى العادة لم يسأل الأطفال عن أخوتهم الذين ذهبوا ولم يعودوا . ولكن القلق كان واضحا على الأب أيوب . وكان حريصا أن يخفى قلقه فى التدخين وفى شرب الخمر . وفى إطلاق النار على الأسماك .. وتخويف من تبقى من الأطفال .

ومضى يوم آخر .. .

وطلب إلى واحد من الأطفال أن يذهب بحثا عن الآخرين . ونزل واختفى . وطلع نهار ثان ولم يعد الثلاثة . وفك السلاسل والحبال من سيقان وأذرع الطفلين الباقيين .

وفى شمس اليوم الثالث فك سراح الطفلين الباقيين . ولكن الإرهاق كان واضحا عليه مهما حاول أن يخفى ذلك .

ولما رآه واحد من الأطفال شديد القلق قال له : يا أبى أيوب .. انهم اتفقوا على ذلك !

وسأل : على أى شئ ؟

قال الطفل : أن يظلوا هناك وألا يعودوا إليك .

— ولكن لماذا ؟!

— لأنك ظهرت على حقيقتك

— ومنذ متى عرفوا حقيقتى ؟

— منذ شهور .

— تقول منذ شهور ؟ ولكن كيف ؟

— لقد سمعوك تتحدث إلى رجل أمريكى آخر وتقول: انك سوف تعود أمريكا كأغنى رجل فى العالم .. وأن هذه المدرسة سوف تقفلها بابا وشباكا إلى الأبد !

ـ هذا صحيح . ولكن أحدا لم يعترف لى بأنه سمع ذلك !

ـ لأنك لم تطلب إلى أحد أن يتحدث إليك .

ـ وأنت قد سمعتنى ؟

ـ أنا الذى سمعتك .. ونقلت ما سمعت إليهم .

ـ إذن أنت السبب ؟

ـ نعم .

ـ ولست خائفا ؟

ـ أنت تعرف أننى لا أخاف ..

وتلفت الأب أيوب حوله فوجد واحدا من الطفلين قد اختفى . فقال أين الطفل الآخر ؟

ـ ذهب إليهم .

ـ وأنت تعرف ذلك ؟

ـ نعم .

ـ ولكن لماذا ؟

ـ لأننى سوف أتركك أيضا !

وانهار الأب أيوب . وسقط فى الزورق . فلم يكن هذا فى حسابه . ثم أنه أنفق ألوف الجنيهات على مشروع إعادة الشباب . وأنفق ألوف الجنيهات على معرفة أحدث الطرق لإذابة صمغ الشباب فى النبيذ . وبذلك يتحول الشمع إلى أكسير للحياة يضعه الناس على شكل قطرات فى طعامهم فيعيد إليهم الشباب . وبعملية حسابية أدرك أنه سوف يكسب مائة ألف جنيه إذا أتى له الأطفال بنصف رطل من الشمع مرة كل عام !

وتقدم الطفل وألقى بمسدس الأب أيوب فى ماء المحيط . ثم راح يعاونه

على التنفس .. وأقعده ووعده بأن يذهب هو إلى إقناع بقية الأطفال بالعودة بشرط أن يترك لهم السفينة الصغيرة وأن يتعهد لأبائهم بأن هذه السفينة ملك لهم .. وإلا اضطروا أن يفضحوه فى الجزيرة .. فهم قد سكنوا خمس سنوات على أشياء كثيرة .

ووعد الأب أيوب ..

ونزل الطفل الخامس . واختفى هو أيضا .

وعاد الأب أيوب يقلب فى كتاب عن أساطير جزر هاواى . ويقرأ الصفحة الواحدة مرة وراء مرة . ويقول : كل شئ مضبوط كما وصفته لهم .. كل شئ فى موضعه .. ولكن فاتنى الكثير .. نسيت أن هؤلاء الشياطين عيونهم أقوى وآذانهم أيضا !

ومضى يومان وثلاثة وأربعة . ولكن أحدا لم يعد . وأفلح الأب أيوب أن يبعد زورقه البخارى عن الجزيرة . وأن يدور حولها .. ولكنه خشى ان قام بدورة كاملة أن ينفذ الوقود . ولذلك ترك الزورق لموج المحيط يدفعه قريباً من الشاطئ ..

ومضى يوم آخر .. ثم عاد إلى نفس المكان .. ويقول الأب أيوب فى مذكراته : أن كل شئ عندى ، ولكنى أريد أن أعرف بالضبط ماذا حدث للأطفال . لو عاد منهم واحد وهلك الباقون . فقط أريد أن أعرف . إننى عرفت منذ النهاية أن مئات قد ماتوا فى هذا الطريق . وان كنت لا أعرف من الذى قتلهم .. أو ماهى الحشرات أو الزواحف أو النباتات المسمومة التى قضت عليهم . لا أعرف .

وكأنه فى حلم .. ظهر أمامه الطفل الأخير الذى ذهب يأتى بهم جميعا . وكان شاحب الوجه . واقترب منه الأب أيوب . وناوله كوبا من الماء . ولاحظ أنه حمل معه ملابس الأطفال الأربعة . ولما سأله طلب إليه الطفل أن يستريح أولا وبعد ذلك يروى قصته ..

وطلع النهار على الأب أيوب الذى لم ينم . وعلى الطفل النائم الملفوف بكل ملابس الأطفال الأربعة وأيقظه الأب أيوب . وأشار الطفل بأنه لن يتحدث إلا فى طريق العودة ..

ان الذى وصفه الأب أيوب صحيح مائة فى المائة : الطريق والقنوات والجسر ولون الأشجار ولون الصمغ . كل ذلك عرفه ووصفه بمنتهى الدقة .

ولكن الأب أيوب لم يعرف شيئا آخر : ان هذه الأشجار لها شوك . هذا الشوك يشبه ناب الثعبان أو ناب العقرب إذا دخل جسم الإنسان كان ساما .

وبعد ذلك جاء الطفل الخامس وروى له كيف أن الأطفال الأربعة تسلقوا أربع أشجار متجاورة .. ثم سقطوا بعد أن أطلق كل واحد منهم صرخة. لقد ارتطمت أيديهم بشوك الشجر. ونزلوا إلى الأرض جثثاهامدة!

ووقف الطفل حزينا . ولكن الأب أيوب كان أكثر حزنا . وفجأة أخرج الطفل شيئا أصفر من ملابسه على شكل كرة صفراء ألقاها فى المحيط وصرخ الأب أيوب وسأله : ما هذا ؟

فأجاب الطفل : انه صمغ الشباب ؟

وانهار الأب أيوب يبكى على مائة ألف جنيه أنفقها من أجل هذه الكرة الصغيرة !

وبعد أيام دخل الأب أيوب أحد المستشفيات . وأقام عدة أسابيع وعند خروجه من المستشفى وجد الطفل الخامس . وتقدم نحوه . واقترب منه وهمس فى أذنه .. ثم أشار إلى والديه ..

وعرف الأب أيوب أنه لابد أن يدفع بضعة ألوف من الجنيهات .. وإلا فضحه هذا الطفل الخامس .. ودفع وسكت الجميع ..

ولكن الأب أيوب هو الذى روى قصته وأوصى أن تنشر بعد وفاته !

مائة يوم يشربون الماء
من رؤوس السمك!

فى قوة الحيول نجمع المـال ، وفى غباء الحمير ننفقه ، هذه العبارة لم يقلها أحد لأحد . وإنما قالهـا قبطان استرالى لنفسه . ولذلك قرر أن يشترى سفينة قديمة ، وأن يجعل لهـا أسما جديدا ، وأن يسافر بها بعد أن يضيف إليها موتورا جديدا أصبح اسم هذه السفينة الشراعية ذات الموتور « ليلى » هذه السفينة قد بنيت سنة ١٩٠٢ وجددت بعد ذلك عدة مرات .

وأخيرا فى يوليو سنة ١٩٦٢ كان لابد أن يقوم برحلة على ظهرها ، وكانت الرحلة الأخيرة ، أما صاحبها الجديد فاسمه داود . واثنان من أبنائه ركبا معه وكل واحد اسمه : داود . وخمسة من البحارة ركبوا وكل واحد اسمه داود . وهؤلاء جميعا لهم رياضة مفضلة هى الملاكمة ، ولذلك عندما يختلفون لأى سبب ، وكثيرا ما فعلوا ، تتحول السفينة الصغيرة إلى حلبة .. ويتساقط عليها الرجال كأنهم أمواج البحر أو صخوره . ولذلك يتدخل القبطان داود بإطلاق الرصاص فى الهواء .معلنا نهاية الجولة الأولى والأخيرة . ولكنهم جميعا قد اتفقوا فيما بينهم على شئ واحد هو ، أن البحر كالمرأة لا أمان له ولا أمان معه . وكل الناس بارعون ماداموا على الشاطئ وكل إنسان يستطيع أن يكون قبطانا ما دام البحر هادئا .. وكذلك كل رجل أعزب يتصور أنه سوف يكون أبرع وأروع زوج ، حتى يتزوج ! ..

جمعهم القبطان داود يوم ٢ يوليو صباحا . وقال لهم : أمامنا مسافة قدرها ٢٢٠ كيلو مترا ، كمرحلة أولى وبعد ذلك أمامنا المحيط نفسه .. أكبر صحراء وحشية . مليئة بالأصوات المرعبة الوحوش الكاسرة . ما رأيكم ؟ ..

قالوا : أنت تأمر ياقبطان ..

وأمر القبطان . وتحركت السفينة ليلى يوم ٤ يوليو . ومنذ اللحظات الأولى كانت الرياح عكسية وكان على البحارة أن يتبادلوا الوقوف وراء الشراع وعند الدفة . وأن يربطوا أنفسهم بالحبال وكل ذلك معروف وبديهى عندهم . وكان فى حسابهم أنهم سوف يصلون إلى جزيرة أسمها « عطا » عند الفجر . ولكن الريح جعلتهم يبلغونها بعد الظهر كانت هذه الجزيرة إحدى جنات المحيط الهادى حتى سنة ١٨٨٠ . ومن معالم هذه الجنة كثرة الثمار وكثرة الفتيات الجميلات . وكثرة المياه التى يجمعونها بطريقة فريدة — مياه المطر طبعا — وكان كل بحار يمنى نفسه بليلة واحدة فى عطا وبعدها يموت . لماذا ؟ لقد كانت تقاليد جزيرة عطا انه إذا نزل الإنسان الغريب عنها . قابلته الفتيات عادة إحدى عشرة فتاة . ويأخذنه إلى بيت الضيافة . ولا يسألنه من هو ولا من أين أتى . وإنما إكرام الضيف واجب . وكل ما يلقى به المحيط هو خير ، فالمحيط يبعث بالسحب وهى ماء . ويبعث بالأسماك وهى لحم . ويبعث بالشمس وهى ضياء . كل شئ يخرج من المحيط هو نعمة لا يردونها . ولذلك فالضيف نعمة من نعم المحيط . فإذا دخل الغريب بيت الضيافة فله أن يختار من بين الفتيات أربعا خادمات له . أو زوجات . وكل ذلك بلا مقابل . ويبقى الضيف يومين أو ثلاثة أو عشرة يأكل ويشرب وفى اليوم الحادى عشر تنتهى فترة الضيافة وتذهب الفتيات لاستقبال ضيوف آخرين لأحد عشر يوما ، وأكثر الضيوف كانوا يجيئون محملين بالهدايا ، وفى هذه الجزيرة نساء من كل لون: سمراوات وصفراوات وشقراوات .. ومن عجائب جنة عطا هذه أن الأغلبية الساحقة من سكان الجزيرة من النساء لماذا ؟ يقال أن هناك نباتا لا يعرفه أحد تأكله المرأة أثناء الضيافة فيكون المولود أنثى . حتى إذا كان توأمين فهما فتاتان ولذلك فعدد الرجال قليل جدا .

وفى نهاية القرن التاسع جاء تجار الرقيق وحملوا الفتيات بالقوة إلى استراليا ونيوزيلندا وأمريكا .. وأصبحت الجزيرة خرابا يبابا . لا أحد فيها . ولا حياة أيضا . وإنما أشجار وطيور ولا قطرة ماء ! .

وعندما هبت الريح على السفينة «ليلى» وبعنف على غير ما توقع القبطان داود قرر أن يحتمى فى هذه الجنة المهجورة . وأرسل ثلاثة من رجاله فى زورق صغير يستكشف الجزيرة . ولم يكد الزورق يقترب من الشعاب المرجانية التى هى عبارة عن سيوف مدببة حتى تحطم . وانشطر إلى نصفين . وتعلق الرجال بالألواح الخشبية ..

ولكن السفينة ليلى اقتربت أكثر لإنقاذ هؤلاء الرجال . وحرص القبطان على أن يقتصد فى استخدام الموتور الديزل . فعن طريق الموتور يمكنه التحكم فى السفينة أكثر من استخدام الشراع .. واقتربت السفينة . وفجأة جاءت موجة عاتية عالية وسددت السفينة إلى إحدى الشعب المرجانية . وبسرعة غريبة تحطمت السفينة وبنفس السرعة تفككت ألواحها الخشبية، كأنها انحلت.. أو كأن السفينة انتحرت وقررت أن تموت هنا فى هذه الجنة التى هى جحيم لهؤلاء الرجال بعد ذلك . انهم لم يقطعوا أكثر من مائتى ميل والآن قد سقطوا جميعا فى الماء . بعضهم تحت السفينة وبعضهم تحت الألواح .. ولكن لحسن الحظ كانت المياه ضحلة نسبيا . فقد بلغت أعناقهم . لذلك كان من السهل عليهم أن يمشوا إلى الشاطئ وعليهم أن يسرعوا أيضا فقد أدمت الصخور أقدامهم وهم يخشون أن تشم أسماك القرش رائحة الدم فتتهاوى عليهم من كل مكان ..

ووقف القبطان يقول : إنه يتوقع أن يهبط الماء عند شروق الشمس فى السادسة صباحا . إذن كان عليهم أن يبيتوا على الشاطئ حتى تطلع الشمس وهم على الشاطئ سأله أحد رجاله : قل لى يا قبطان إنك لم تشرح لنا الغرض من هذه الرحلة ؟ .

ولاحظ القبطان أن السؤال ينطوى على كثير من الاستخفاف . فقال له القبطان : إنما أردت أرضا ثابتة لأسوى حسابى القديم معك . أنت الذى خطفت منى صفقة القمح . وأنت الذى ذهبت إلى أنطوانيت وقلت لها إننى رجل سكير . وأنها يجب ألا تتزوج رجلا مثلى ، وأنت الذى قلت للحاكم إننى أكرهه وأننى كنت صديقا لزوجته .. والآن أنت الذى اخترت ساعة الحساب .. فانهض واقتلنى أو أقتلك ؟ ..

ولم يخطر على بال أحد من الرجال أن هناك ثأرا قديما بين الرجلين . وحاولوا تهدئة الرجلين ، وبسرعة هدأ الإثنان . وهذا دليل على أنه لا ثأر هناك . ولكن القبطان كان فى حالة غضب . وقال ما فى نفسه . وبعد ذلك أصبح فى هدوء الجزيرة ، بعد أن كان فى هياج المحيط . وضحك الجميع . وانتظروا حتى تطلع الشمس وينحسر ماء المحيط ، وبذلك يستطيعون أن ينقذوا ما يمكن انتشاله من السفينة المحطمة ..

وعندما طلع النهار أدرك البحارة جميعا أن هذه هى جزيرة منرفا .. ثمانى جزر معروفة . وهذه الجزر قد أطلق عليها اسم « منرفا » آلهة الحكمة عند الإغريق ، لأن سفينة أسمها منرفا قد غرقت هنا . وقبلها سفن كثيرة ، وبعدها سوف تغرق سفن أيضا .. الوقت يمضى بسرعة . لا ماء . والطعام ليس مشكلة . فالأشجار عليها ثمار ، والبحر ملئ باللحم . أما الماء فهو الكارثة . وإذا نقص الماء أصيب هؤلاء الرجال بالجنون . ولذلك كان عليهم أن يصطادوا أسماك البحر ويشربوا دمها – فالدم هو السائل الوحيد الذى ليس مالحا . وانهال الرجال على البحر يصوبون رماحهم نحو صدره فإذا اصطادوا سمكة قرش . ثقبوا رأسها وراحوا يعتصرون دمها فى أفواههم .

وفجأة نظر واحد منهم واكتشف وراء الأفق بيتا عاليا من طابقين . فصرخ . بيت ! ..

ونظر الجميع ووجدوا شيئا عاليا .. واتهموا أنفسهم . وعندما ذهب

الضباب قليلا . أدركوا أنها سفينة .. فعلا سفينة تبعد عنهم حوالى ثلاثة أميال .. وركب واحد من البحارة على لوح خشبى وراح يجدف حتى وصل إليها . انها سفينة يابانية . هجرها أصحابها لسبب ما . وعاد يروى لبقية البحارة وعادوا جميعا يلتقطون من السفينة ما ينفعهم . آنية للطعام . ومناشير . وراديو إرسال ترانزستور .. ورماحا للصيد وبعض البطاطين . ولكن لا توجد قطرة ماء واحدة . ووجدوا صندوقا به بوية . . واستخدموا هذه البوية فى كتابة بعض العبارات على الألواح الخشبية وتركوها تسبح مع الموج : انقذونا .. نحن سبعة رجال فى جزر منرفا .. تحطمت السفينة انقذونا لا ماء معنا .. وظل الرجال ينظرون ويقلبون عيونهم فى السماء والبحر . لا شئ . راحوا يصلون . يطلبون النجاة من الله . . وحاول واحد منهم أن يقوم بدور القسيس . . فقال له الجميع : اقعد . إلا أنت !

حاول آخر أن يردد على أسماعهم بعض آيات الإنجيل.فقالوا : وأنت أيضا . . إنك طلقت زوجتك ضد تعاليم الكنيسة ! ..

وحاول الابن الأصغر للقبطان داود فقال له أبوه : وأنت أيضا . وسوف أروى لك فيما بعد لماذا لا تجوز صلاتك ؟ ..

ولم يشأ أن يقول له : إنه لقيط .. وأنه هو الذى تبناه عندما كان رضيعا . وإنما ذكر ذلك فى مذكراته التى عنوانها « سبعة اسمهم داود » فى سنة ١٩٦٤ .

وجلسوا وكأنهم يلعنون أنفسهم .. وكأنهم يطلبون إلى الله ألا يبعث لهم بشئ لأنهم لا يستحقون رحمته . وربما كان ذلك هو المبرر المعقول الذى اختارته السماء لتبعث لهم بالنجدة بعد ذلك .. بمائة يوم ! ..

وكان عليهم أن يلتقطوا الأخشاب ويحرقوها فى الليل لعل أحداً يهتدى إليهم . وصدرت لهم الأوامر بأن يدخروا الأخشاب لما هو أهم بعد ذلك .

ومات واحد منهم فجأة ، ومات آخر فجأة . ونقص فيتامين ج جعلهم

عاجزين عن الرؤية وعن المشى . وظهرت الدمامل على أجسامهم . أما جروحهم فلم تعد تلتئم . وإذا اقترب منهم أحد من الماء صرخ قائلا : ملح على جرح – هذه هى جهنم ! ..

وكأن البحر هو الذى أصبح جريحا .. إن أحدا لا يكاد يقترب منه حتى يبصقه على الشاطئ .. أو حتى تنقض عليه الأمواج وكأنها عضلات قوية فتطوحه على الرمال ! ..

وفجأة أضاءت السماء كلها بلون أخضر ثم أصفر ثم وردى .. وظلت كذلك عشر دقائق . ولم ينزعج أحد . فقد نشرت الصحف قبل ذلك أن الأمريكان سوف يطلقون قنبلتهم الجديدة المعروفة باسم « قنبلة الطيف » أو « قنبلة قوس قزح » .. ثم تجدد عندهم الأمل . فقد نشرت مجلة «لايف» الأمريكية أنها سوف توفد بعثة من محرريها ومصوريها إلى هذه المنطقة لتصور الجزر فى ذلك اليوم .. هناك إذن أمل فى أن يروا هؤلاء الغارقين . ولذلك أعادوا إحراق الأخشاب من جديد . ولم يعرف هؤلاء الغارقون أن المجلة الأمريكية عادت فعدلت عن هذه الرحلة لأن تكاليفها ستكون باهظة ..

وأتوا بالموتور الديزل وأفرغوه على الأخشاب واشتعلت النيران . وفجأة مات رجل ثالث . وفى الصباح مات رجل رابع . ولم يبق إلا داود وولداه .

وفى يوم ٢٧ يوليو قرروا أن يفعلوا شيئا . وقف الأب يقول : إن الله يساعد من يساعد نفسه . إذن يجب أن نساعد أنفسنا .

وقرروا أن يصنعوا لأنفسهم زورقا من بقايا سفينتهم والسفينة اليابانية وأطلقوا على هذا الزورق الجديد اسم : صباح الخير .

وبقوة اليائسين من الحياة صنعوا هذه السفينة وهم واقفون على أقدامهم

فوق أحجار كالرماح الدامية . وأمامهم ووراءهم أسماك القرش يأكلونها نيئة ويشربون دمها . أما طول «صباح الخير» فهو ١٨ قدما وعرضها أربعة أقدام ونصف قدم وعمقها قدم ونصف قدم .

وقرروا أن يتجهوا إلى أقرب جزيرة وكانت الجزيرة تبعد عنهم حوالى ١٨٠ ميلا . وتعاون الثلاثة وتناوبوا على توجيه الزورق الشراعى والبخارى أيضا .

وفجأة صرخ واحد منهم يقول : كلُ الأنهار تصب فى الأنهار ، لا البحار امتلأت ولا الأنهار جفت ..

وقال الثانى : كل المياه والثمار تنتهى بالمعدة ، لا المعدة شبعت ولا المياه ولا الثمار انتهت ..

وقال الأب : كل ما كسبته قدمته لزوجتى ، لا أنا اتعظت ولا هى رضيت !

ثم سأل الأب : من علمك حكاية الأنهار والبحار هذه ؟

فقال الابن : إنها آية فى الكتاب المقدس ! ..

وقال الأب : وهل قرأت الكتاب المقدس ؟ ..

فقال الابن : نعم يا أبى .. لا تنس أنك تركتنى فى أحد الأديرة ست سنوات .

وقال الأب : آه .. صحيح .. كنت قد نسيت ذلك ؟ .

ثم عاد يسأله : من الذى قال إن البحر مقبرة الشجعان .. والبر مقبرة الجبناء ! ..

وضحك الابن وقال : لم يقلها أحد قبلك !

هكذا كانت روحهم عالية .. لقد نجوا . ونسوا أن اربعة آخرين قد ماتوا . وأن هؤلاء الأربعة قد دفنوهم على الشاطئ حتى لا تأكلهم الأسماك .. وبعد ذلك يأكلون هذه الأسماك .. إن الخوف من الموت يشغلنا عن التفكير فى الموتى ! ..

وبعد أيام رأوا جزيرة بعيدة .. انها جزيرة الملائكة .. مؤكد هى .. ولكن لن يصلوا إليها قبل ست ساعات فالرياح عنيدة معادية والموج عنيف يطردهم عن الشاطئ .. وفجأة ، فكل شئ يحدث هنا فجأة . جاءت موجة وضربت زورقهم وشطرته إلى نصفين .. ووجد الثلاثة أنفسهم فى الماء . وتعلقوا بالزورق المقلوب .. ثم بالألواح الخشبية .. واتجهوا بقوة أو بما تبقى فيهم من قوة إلى الشاطئ .. ونظر الأب إلى أحد من ولديه فوجده يغرق .. يبدو أنه سقط على رأسه فوق صخرة فمات لتوه .. ونظر الأب إلى الولد الثانى فوجده يترنح هو أيضا .. ولكن الأب اقترب منه .. ودفعه أمامه .. ومازال كذلك حتى وصل الإثنان إلى الشاطئ .. وهو فى غير وعيه ..

فهو لا يعرف من أين جاءته هذه القوة .. ولا الرؤية الواضحة .. ووصل الإثنان إلى الشاطئ .. وبقوة أخرى هب الأب واتجه إلى إحدى أشجار جوز الهند فى الجزيرة وكسرها .. وألقى بمياهها فى فم ابنه .. ثم عاد يقتلع أقدامه من الرمل ليأتى بجوز هند آخر .. ليشربه هو .. ولم يدر الاثنان بعد ذلك أى شئ .. وإنما أفاقا على صوت أقدام وهمس أناس حولهما .. انهم سكان الجزيرة .. لقد التفوا حولهما .. وأعدوا لهما طعاما وشرابا . وملابس يرتديانها .. وعندما نهض الاثنان راحا يرويان قصتهما .. وأهل الجزيرة يريدون أن يتأكدوا من ذلك .. فكانوا يطلبون إلى كل واحد أن يرويها دون أن يتدخل الآخر . وصدقوهما ، واتصلوا بإحدى نقاط المراقبة الأمريكية . وجاءت طائرة وألقت لهما بالماء والطعام . ثم هبطت الطائرة ونزل طبيب يعالج الأب والابن .

وفى الطائرة سأل داود الصغير داود الكبير . ولكنك لم تقل لى لماذا لا تجوز صلاتى يا أبى ؟.. فقال داود الكبير : إنما كنت أداعبك ..

ثم راح يبكيان وهما ينظران من الطائرة إلى السفينة ليلى والسفينة «صباح الخير» . وعلى الذين ماتوا من العطش .. الأب يبكى على ابنه ، والأبن يبكى على أخيه ! ..

المهرجان
الذى روّع الملوك
والرؤساء!

(١)

آه لو كانت شهرزاد معنا فى طهران ، لروت لشهريار أعجب ما رأى وسمع الإنسان فى كل العصور . وبلجاء على لسانها عشرون اسما عالميا لدور الأناقة والتجميل والهندسة والإضاءة..فالذى حدث فى إيران بمناسبة الاحتفال بمرور ٢٥ قرنا على إنشاء كوروش العظيم للامبراطورية الفارسية . لم يره أحد ، ولن يراه ، ولا يجرؤ على أن يكرره . فكل شئ يحسب بملايين الجنيهات ومئات الملايين من الناس !

يومها جاء رجال القصر وقدموا لنا الشاى شربناه فى ملاعق ذهبية .

كان الموعد المحدد للمؤتمر الصحفى الساعة الرابعة وعلينا أن نذهب قبل الموعد بساعة على الأقل . وهذه معاملة خاصة للصحفيين . فقد جرت العادة أن يذهب الناس لأى مكان يذهب إليه الامبراطور قبل وصوله بساعتين على الأقل . ولابد أنهم سوف يقطعون الطرق المزدحمة فى ساعتين أيضا . ومعنى ذلك أن يستعدوا للقاء الامبراطور أو لمجرد الفرجة عليه قبل ذلك بخمس ساعات . والويل للمرأة إذا ذهبت لمقابلة الامبراطور أو الامبراطورة ، فإنها لا تغمض عينيها عن مرآتها طول النهار ..

ولم تكن لنا مشكلة فهناك أتوبيس أنيق يسبقه موتوسيكل تابع للحرس الإمبراطورى يفسح لنا الطريق . والناس على جانبى الطريق يعلمون أننا شخصيات هامة .. ولابد أننا على صلة بهذه الزينات الفخمة فى كل مدن إيران ..

وكنت أنزل فى فندق فرساى . ومعى صحفيون من اليابان والهند ولبنان والسعودية .. وفتيات ورجال التليفزيون الفرنسى الملون ولم تكن هناك أية شروط خاصة فى الملابس . المهم أن تكون قاتمة . وكان يرافقنى شاب إيرانى تعلم اللغة العربية فى العراق . وأدركت خطورة الموقف عندما لاحظت أنه قد بدل الكرافتة التى تشبه السجادة الإيرانية .. فهى عريضة طويلة ونقوشها كبيرة وألوانها صارخة – ربما كانت الألوان هى التى تجعلها أبعد ماتكون عن السجاجيد الإيرانية . وإنما ألوانها أقرب إلى مفارش السفرة . وكانت هذه أول مرة اراه بغير رباط العنق فى عشرة أيام . . ولم يكن مرحا . وعنده أى استعداد لأن أداعبه . إذن الموقف خطير . وهذا طبيعى . فهو شاب إيرانى موظف صغير . شاءت الظروف أن يكون فى حضرة الامبراطور محمد رضا بهلوى شاهنشاه أربا مهرى – أى ملك الملوك حبيب الأربين – وكلمة إيران معناها بلد الأربين .

ومرت بنا السيارة على فندق انتركونتنتال وهناك انضم إلينا صحفيون من أوروبا وأمريكا . ومعهم كاميراتهم وأجهزة التسجيل . ولكن أحدا لم يلفت نظرهم إلى ضرورة الاحتشام فهناك من يرتدى البنطلونات الضيقة . وبنطلونات رعاة البقر . بل هم رعاة بقر بالفعل لأن معهم كاميرات لها قرون وعيون واسعة تدور يمينا وشمالا . حتى الصحفيات ارتدين المينى جيب . والشعر منكوش والعيون أكثر إحمرارا من عيون الكاميرات . فقد جئن مباشرة من البار .

ولابد أن الإمبراطور ، بتجربته الطويلة – امبراطور منذ ثلاثين عاما – قد تعلم كراهية الصحفيين لهذه القيود على حركاتهم فى الشوارع وفى الحوارى ، وتحركاتهم بين ملابسهم أيضا . فهم يفضلون أن تكون القمصان كالأحذية بلا أربطة .

الطريق طويل إلى قصر سعد أباد .. طوله ١٨ كيلو مترا . اسمه شارع بهلوى . الزينات لا يمكن أن توصف . جميلة أنيقة . وفى هذا الشارع مكان إذا وقفت فيه السيارة فإنها ترجع إلى الوراء أى أنها تصعد إلى أعلى مهما كان وزنها — تماما كما يحدث فى طريق صلاح سالم بالقاهرة . الهواء منعش بارد..الأشجار على الجانبين .. وإذا توقفت السيارة عند أية إشارة مرور فإن خرير المياه يمكنك أن تسمعه على جانبى الطريق ، فالماء ينزل من الجبال فى قنوات الحجارة والأسمنت المسلح لتروى الأشجار .. بعض الناس يتوقف يغسل يديه أو منديله .. فالماء نظيف .. أما فى الريف فهم يشربون المياه الجارية .

ولكن لم ألاحظ أية احتياطات أمن . لابد أنهم بلغوا من الرقة فى معاملة الصحفيين درجات لاندرى بها . فكل مجموعة من الصحفيين لهم مرافق . ولابد أنه قد وضع عينه التى لا تنام عليهم هكذا قيل لنا . ولكنا لم نلاحظ أى شئ غير عادى فى تصرفات المرافقين . فهو مثلا لم يلق بنفسه على صدرى لكى يعرف ان كنت أحمل مسدسا . لم يحاول أن يأخذنى بالحضن ، ثم يسحب يديه على جانبى أو على ساق .. إلى آخر الحيل البوليسية للكشف عن وجود أسلحة لا شئ من ذلك .

وعندما اقتربنا من قصر سعد أباد وجدنا عددا كبيرا من الحراس . ولكنهم وقفوا إلى جوار الأسوار العالية ، وتركوا موتوسيكلاتهم لا أحد ينظر إلينا . وإنما كل العيون اتجهت إلى سائق الأتوبيس الذى يركبه الصحفيون . وكان يركبه الدبلوماسيون السفراء والوزاراء توفيرا لجهودهم فى الشوارع بين السيارات وإشارات المرور . ونزلنا من الأتوبيس . ونحن الآن فى داخل الأسوار الأولى للقصر . أشجار عالية عريقة وعتيقة .. عمرها يقدر بعشرات السنين . بعضها تجاوز المائة سنة . الجو أكثر برودة . والهدوء شامل عند الأسوار الثانية للقصر وقف رجال القصر أنفسهم بملابسهم القاتمة ونياشينهم . وكذلك رجال الحرس . ونودى علينا بالاسم . وكان لابد

من مراجعة الأسماء فى كشوف .. والتأكد من الصورة المعلقة على الصدر. والتى توجد منها ست نسخ فى أجهزة الأمن فى إيران ، وقبل هذه اللحظة بعشرين يوما .. ودخلنا السور الثانى للقصر الامبراطورى . الأشجار أكثر أناقة ورشاقة . والبرودة التى تملأ الهواء سببها أن هناك نافورة ترفع الماء فى صمت . والأرض مفروشة بالظلط البنى والأزرق . القصر الذى أمامنا صغير . لابد أنه المكتب الامبراطورى . أو أحد الأجنحة . لا شئ حولنا إلا الأشجار .. وعلينا أن نقطع حوالى مائتى متر .. ثم نصعد الدرج . وندخل القصر . لا داعى مطلقا لأن ننظر فى الأرض . انها سجاجيد عجمية — طبعا— فهذه بلاد العجم إيران . وأنت فى القصر الامبراطورى . ولابد أن هذه السجاجيد من كاشان أو تبريز أو مدينة قم . أو أنها نوع خاص بالامبراطور . يجب استبعاد مثل هذه الأفكار . ولاداعى للنظر إلى السقف . فهذه الثريات نادرة . فنحن فى قصر ملك الملوك .. والأفضل أن نصعد الدرج إلى الطابق الثانى سجاجيد وبعدها سجاجيد وفوق الرأس نجف وبعدها نجف .. لا فائدة من النظر أو من مناقشة أى شئ مع أحد أو مع نفسك . وحمدت الله أننى نسيت كتابا عن السجاجيد الإيرانية قد اشتريته منذ أيام . لا معنى له . الحمد لله .. وأشار رجال القصر إلى قاعة أمامنا . وطلبوا إلينا أن ندخل وأن نجلس . وفهمنا أن الامبراطور سوف يدخل من أحد جانبى هذه القاعة . وأشار بعضنا إلى أنه من الأفضل أن نجلس فى مؤخرة القاعة قدر المستطاع حتى لا نتعرض للأضواء الباهرة التى يستخدمها مصورو السينما والتليفزيون انها فكرة وجيهة ، وكان يجلس إلى جوارى صحفى ألمانى وصحفية من السويد . وأخرج علبة سجائر . ورحنا ندخن جميعا . وتعالت الأصوات والضحكات والنكت . انه جو صحفى . لا قيود على أحد .

وجاء رجل ضخم طويل عريض . ملابسه حمراء ذهبية . ووجه مشدود وملامحه جادة . وأشار ناحيتى . ولم أفهم . ولا كان من الضرورى أن أفهم . لابد أن لديه سببا معقولا . ولكنى لا أجد عندى أن سبب للدهشة .

فنحن الآن فى القصر الامبراطورى وهذا الرجل موظف يؤدى واجبه ، وسوف يكون من واجبه أن يختار لى مقعدا مريحا أو ورقا أو قلما . إنه فى خدمتى .. فنحن فى ضيافة سيده ..

وبعد اشارته هذه جاء رجل آخر يحمل صينية ذهبية .. وعليها فناجين شاى .. آه .. إنه الشاى الذى يجئ بعدنا دائما فى أى مكان نذهب إليه . وعيبه أنه خفيف . ولكنه يجئ فى الوقت المناسب . الوزير يقدمه لك .. والموظف الصغير . وبائع المجوهرات وبائع السجاجيد فالبراد على النار دائما . ولكن الفناجين هذه المرة من نوع لا نظير له .. ذهبية بنية سوداء كبيرة . أما الملعقة التى سارعنا جميعا الواحد بعد الآخر إلى تقليبها فى أيدينا فهى من الذهب الخالص انها مدموغة . الرؤوس ارتفعت لتؤكد ذلك . الدهشة معناها : طبعا .. ان الذى صنع هذه الزينات كلها ، وأنفق هذه الملايين . وعنده هذه الكنوز لابد أن تكون ملاعقه ذهبا .. وسكاكينه أيضا .

وأقسمت بينى وبين نفسى أن أشرب الشاى بالملعقة الذهبية . . مهما أدى ذلك إلى إفساد طعم الشاى . . ولعلى أردت أن أتفلسف فأقول : إن الشاى بالفنجان أمتع وألذ من الشاى بالملعقة الذهبية .

كلام فارغ طبعا . لأن الذين يملكون المعلقة الذهبية يشربون من الفنجان . ولو كانت عندى هذه الملعقة الذهبية لوضعتها فى دولاب ليتفرج عليها الناس . ولا أستخدمها . والإمبراطور يفعل ذلك . . ولكنى شربت الشاى بالملعقة الذهبية . وطلبت المزيد من الشاى . ولا أعرف إن كانت هذه هى النكتة التى يضحك عليها الصحفيون من حولى بلغات أخرى لا أعرفها ليكن . ولكنى شربت شاى الإمبراطور بالملعقة الذهبية وجاء رجل آخر يحمل صينية من ذهب . واقترب الرجل منا . . ورفعنا الصينية إلى أعلى لنتأكد أنها ذهبية . رأينا التمغة . إنها من ذهب . وعلى الصينية بسكوت وجاتوه

وشوك وسكاكين من ذهب . ودارت عمليات حسابية : كم تساوى الشوكة . كم وزنها . والملعقة كم تساوى . . وإذا كان فى القصر ألف شوكة وألف ملعقة . . ومئات الصوانى . . فكم يساوى ذلك . وماذا يحدث لو أصر أحد الحاضرين على أن يأخذ الملعقة تذكارا . فهل يفضحه الإمبراطور فى المؤتمر الصحفى ألم يخطر على بال الإمبراطور ، أو حتى رجال القصر ، لحظة واحدة أن أحدا من الممكن أن ينسى واحدة فى جيبه . .

ودارت مناقشة : ينساها ؟ هذه حيلة مكشوفة . . . وكيف دخلت الملعقة جيبه . . إن واحدا منا لم ينس قط معلقة أو شوكة أو فنجانا فى جيبه . .

ـ نفرض أن أحدا فعل ذلك . . مجرد فرض . ـ ولا حاجة . ـ سوف يتركون له ذلك . . لأنه من العيب إهانة ضيف الإمبراطور . . هذا مؤكد ؟ . طبعا . إذن لماذا ننسى إننا ضيوف الإمبراطور . . ـ إن الملعقة لا تساوى . . فعلا ـ ثم أنها نشاز فى كل بيت ملاعقه من المعادن المختلفة . .

وكان رجال القصر قد اعتادوا على الدهشة فى عيون الزوار . وعلى ما يدور من مناقشات فى كل مرة يقدمون فيها الملاعق الذهبية ، فهم لايهتمون لما يدور حولهم . أو يتظاهرون بذلك . وهم يعرفون جيدا تلك الحركات المكشوفة) . . كان يتعمد الواحد من الزوار أن يلقى الملعقة على الأرض لينتهز فرصة التقاطه لها ، ليتأكد إن كانت عليها تمغة . . وهم يعلمون أن بعض الزوار يختبرون ذكاءهم أو روح المرح عندهم فيقدمون الفنجان ، ثم يتظاهروا بأنهم نسوا الملعقة فى أيديهم أثناء النقاش ولذلك يقف رجال القصر وعيونهم على الفنجان والملعقة . قدرة غريبة اكتسبوها بكثرة الضيوف .

وظهر سكرتير الإمبراطور ينبه الصحفيين إلى أن كل من يريد أن

يسأل يتقدم للأمام ويعلن عن اسم الصحيفة التى يمثلها والبلد الذى جاء منه . وعلى رجال التلفزيون ألا أن يقفوا مباشرة أمام عدسات التلفزيون الإيرانى ، لأن المؤتمر سيذاع على الهواء – أى فى نفس الوقت وبالألوان . . وينقله التلستار إلى جميع أنحاء العالم .

ومضت ساعة ويقال ساعتان . . وحدثت هزة غريبة . وشئ من الفزع والوقار وانحنت الرؤس إلى ما يشبه الركوع – رؤس رجال القصر ، وكل الإيرانيين الموجودين بيننا . . إنه الإمبراطور . لقد جاء من الخلف وليس من الغرف الجانبية . . وليس من اللائق طبعا أن يظهر الإمبراطور من باب جانبى فيفاجأ به الناس . . إنه جاء من نفس الطريق الذى جئنا منه . . الطريق طويل . . ويجب أن يراه الناس من بعيد . . وأن يراهم هو من بعيد أيضا . .

ومر من جوارى . . شاب نحيل . مشدود القامة جدا . كل شئ فيه مشدود : القامة وبشرة الوجه .

ثم جلس الإمبراطور على بعد خطوات . أمامنا على مقعد وتحت الأضواء . . وتزاحم الصحفيون . هوجة مألوفة . الكاميرات التلفزيونية والسينمائية لها صوت الأفاعى وكاميرات الصحف لها فرقعة الأصابع وطلب إلينا سكرتير الإمبراطور أن نبدأ فى الأسئلة . . لا قيود ولا شروط . . والإمبراطور سوف يواجه الجميع . . الآن أستطيع أن أصفه بوضوح . . فبعد أن وجدت نفسى عاجزا عن سماع صوته . فلا توجد ميكروفونات ثم إن أصوات الكاميرات أعلى من صوته ، غيرت مقعدى ووقفت إلى جواره وقد ظن بعض رجال القصر إنى إيرانى فحدثنى بالفارسية . ولم أفهم ولعله أراد أن يقول لى : ارجع قليلا . . أو احتشم أو شيئا من مثل ذلك . .

الإمبراطور نحيف . وإذا جلس بدا قصيرا . ولكن إذا وقف بدا طويلا . لأنه مصلوب الظهر رافع الرأس . . عمره ٥٢ عاما ولكن لاشئ

فى وجهه يدل على ذلك ، فبشرته وردية . فعلا وردية . ولعله اختار لون رباط العنق يتمشى مع لون البشرة ، فالكرافتة لونها أزرق تركوازى وفيها خيوط وردية مثل بشرته تماما . بياض العينين شديد . والسواد أيضا شديد . وملامحه لاتدل على ما يدور فى نفسه فالوجه قد اتخذ سمة واحدة . أما اللغة الفرنسية فسليمة رفيعة . ولغته الإنجليزية أيضا .

ويقال لغته الألمانية والإيطالية . . أما بلغته هو فمتحدث من الدرجة الأولى . .

ومن عاداته فى الكلام أنه يتراجع إلى الوراء . ويعيد شد عوده . مع أن عوده مشدود وهو جالس . ويبتلع ريقه . ولكن شيئا لا يحرجه ولا يثيره . جاءت الأسئلة . وكان من الواضح أنها تدور حول تكاليف هذه المهرجانات أى الاحتفال بمرور ٢٥ قرنا على إنشاء كوروش — أو قوروش — العظيم للامبراطورية الفارسية وكان الإمبراطور يستعد لهذا اليوم . فقد قرأ الصحف كلها . وعرف النقد الذى وجه إليه من كل بلدان العالم — الدول الرأسمالية أكثر من الدول الأشتراكية . بعض الإيرانين يقول فى أذنى : سبب ذلك صداقته للعرب وعدم أعترافه بإسرائيل .

ولذلك من الحكمة أن يبدأ هذا النوع من الأسئلة الصحفيون الإيرانيون . وتوالت أسئلة مندوبى صحيفتى إطلاعات .. وكايهان — إطلاعات معناها الأنباء . وكايهان أو جايهان أو جيهان معناها : الكون أو العالم . وأدرك الصحفيون الأجانب أن الإمبراطور هو الذى قرر أن يختار الأسئلة وأن يختار الإجابة عنها . وأن المؤتمر الصحفى بهذ الشكل موجه فى الدرجة الأولى إلى الشعب الإيرانى (٣٠ مليونا) . وأن هذا هو الذى يهم . وما تقوله الدول الغربية لا يهم بالمرة ..

— سؤال يا ملك الملوك .. كيف تكون إيران مدينة بثلاثة آلاف مليون

دولار ، وتنفق هذه الأموال الباهظة من أجل الاحتفال بذكرى كوروش العظيم مؤسس الامبراطورية الفارسية ..

ولابد أن صاحب السؤال يشير إلى الزينات « الجميلة » على البيوت والشوارع والوزارات والميادين . وكلمة « الجميلة » هذه ليست لأن المصابيح مضاءة ولكن لأن المصابيح عبارة عن لوحات فنية اشترك فيها عشرات من الفنانين الإيرانيين والأجانب . ليست الزينات التى أقامتها الدولة ، وحتى الزينات التى أقامها الشعب . انها ليست متروكة للناس . فليس الناس فنانين . انهم يريدون أن يظهروا شعورهم مهما كلفهم ذلك من مال . ولكن هذا الشعور لا يكفى . لابد أن يوضع فى إطار . وكان هذا الإطار على شكل طاووس . أو على شكل براويز لصور رجال مشاهير .. أو على شكل ريش أو أجنحة .. أو أقواس نصر .. أو كأنه لوحات طويلة من الزجاج مرسوم عليها صور تاريخية جميلة ..

ولابد أنه يقصد الولائم الضخمة الفخمة التى أقيمت للملوك والرؤساء وأريقت فيها أنهار من الشمبانيا والكونياك .. وطار الطاووس من الهند . تسعون طاووسا — وذهبت إلى باريس .. ومن باريس جاءت إلى مدينة الخيام المصنوعة من البلاستيك والجلد والقطيفة الذهبية والفنادق التى أقيمت لأول مرة فى صحارى قاحلة . والغابات التى نقلت .. والجرسونات ٥٠٠ جرسون — من مطعم ماكسيم فى باريس .. وأشياء أخرى عجيبة لم تحدث فى أى عصر من عصور التاريخ .

كل ذلك قد سمعه الأمبراطور وعرفه واستعد له. وهذا المؤتمر قد عقده فى ختام المهرجانات ليوضح للعالم ما حدث .

واعتدل الامبراطور أكثر ليقول : انه يعلم أن بلاده مدينة . ولكن أين توجد الدولة التى لا تقترض من أجل الإصلاح .. ان أغنى دول العالم عليها ديون . ثم أن الصحف قد بالغت فى الأرقام . وهذه عادة صحيفة . وإنما

الذى أنفق على المهرجان أقل من ذلك بكثير وسوف أصدر أوامرى بنشر الأرقام الحقيقية لتكاليف المهرجان .

سؤال من فتاة سويدية : قل لى يا ملك الملوك .. إن هناك آراء مختلفة حول تكاليف المهرجان .

رأى يقول أنه تكلف ٢٠٠ مليون دولار .. ورأى يقول بل ثلاثة آلاف مليون دولار .

ربما كان هذا هو السؤال الوحيد الذى أثار الأمبراطور وضايقه فعلا . فقد تراجع فى مقعده وشد نفسه جدا . ثم عاد ليقول : إننى لم أسمع بمثل هذا الكلام الأحمق الأرعن الظالم . . انكم أنتم فى السويد الذين تحرصون على مهاجمتى . ولا أفهم لماذا . ان كل الدول الرأسمالية تهاجمنى : الدول الاشتراكية لا تهاجمنى . لا أفهم . وليس معقولا طبعا أن يتكلف المهرجان هذه الأموال الطائلة .. اننى أنفقت الكثير على موائد الملوك والرؤساء ولكن لو كانت هذه التكاليف الحقيقية للمآدب فكم كان يتكلف كيلو اللحم ... أو اللبن أو الأرز .. أنت لا تتصورين كم كانت تتكلف الدولة لو جاء كل واحد منهم على حدة .. ستون ملكا ورئيسا ونائبا للرئيس .. اننا خلقنا على احترام الكبير من الناس .. وإذا كانت بلادكم قلقة على إيران .. فأنا أحب أن أطمئنها على إيران وشعب إيران .. أنه بخير .

وطلعت الصحف الإيرانية وليس فيها هذا التعليق الحاد على الصحفية السويدية .. ولكن السفارة السويدية اعتذرت عما بدر من الصحفية السويدية .. وكان الأمبراطور عندما أمر بحذف هذه الكلمات قد تراجع قليلا ، أو كأنه قاله فى مئات الملايين واعتذر عنه فى مئات الألوف . وفعلت السفارة السويدية نفس الشئ .. أحرجته فى مئات الملايين واعتذرت فى مئات الألوف — سياسة .

ثم جاء سؤال خبيث وإن كان صاحبه قد قاله ببساطة ، قال : ياملك الملوك لماذا هذه الجيوش الكثيرة التى تكلفكم الكثير من ملايين الجنيهات .

واستعاد الأمبراطور السؤال لعله أراد أن يقول لنا وللمستمعين أن صاحب السؤال أمريكى ..

وكان رد الأمبراطور : : لأنه من الصعب أن يكون الإنسان ملكا لشعب ضعيف . وأن جيشنا قوى . ومن أقوى الجيوش فى الشرق الأوسط .

والسؤال خبيث لأن صاحبه يريد أن يقول بشكل آخر ، مادمت تعد جيشا فأنت فى حاجة إلى المال .. وإذا كنت فى حاجة إلى المال ، فلماذا تنفقه على الحفلات والولائم التى لا معنى لها .

وكان رد الأمبراطور أن الجيش ضرورى وأن احترام رؤساء الدول ضرورى . وأن رسالة إيران هى أن تذكر العالم بضرورة أن تكوت هناك حقوق ومبادئ . واحترام المبادئ .. واحترام ذكرى أول رجل وضع حقوقا نلإنسان واحترام الأديان .

ويشتد ويعتد بنفسه ليقول : ولولا انى ملك على هذه البلاد لانهارت أنا أعلم بذلك ، لا عن غرور . ولكن عن يقين . وأنا لست مغروا . أنا ملئ بالتواضع . لولاى لجاء متطرف من ايمين أو من اليسار وخرب هذه البلاد فى الدفاع عن نفسه .

ـ سؤال يا ملك الملوك : هل فى نيتك أن تنزل عن العرش لابنك .

ـ فى نيتى ولكن ليس الآن . وإنما سوف أفعل ما فعله والدى ، وسوف أعنى بابنى وأعلمه وأرشده ليكون ملكا واعيا عادلا . وعندما يبلغ هذه السن سوف أعتزل ، فليس الملك ترفا إنه تعب أكثر مما تتصورون ..

وهذا ما فعله كوروش أيضا . فقد نزل عن الملك لابنه، ثم ذهب هو على رأس جيش يحارب فى بلاد بعيدة .

وبعد ذلك جاءت أسئلة كثيرة شكلية ..

وأحس الجميع أن المهم قد قيل للأمبراطور وقاله الأمبراطور .. وجاء شئ من البرود خيم على الموجودين .. وعندما تثاءب أحد الصحفيين أحس الجميع أنه يشبه صياح الديك .. وأن النهار قد طلع .. وأن على كل واحد أن يعود إلى الحياة الطبيعية .. أى الحياة التى ليس فيها هذا الحرج .. بعيدا عن الجاذبية الملكية أو القوة الطاردة لنا من رجال القصر أو هكذا كان إحساسنا ..

وانتهى المؤتمر الصحفى .. وأجاب الامبراطور عن عشرين سؤالا بدقة وصراحة وفصاحة رجل الدولة وليس تاج الدولة .. فهو الذى فجر « الثورة البيضاء » فى بلاده .. قبل أن تنفجر فيه .. وكان ذلك عملا ذكيا .. وهو الذى فرض الإصلاح من فوق ، حتى لا تجئ ثورة فتفرضه من تحت .

وكان الطريق إلى حدائق القصر أقصر . وكانت الخطوات أسرع .. والهواء أكثر خفة .. وكانت الأجسام فى وزن ريش الطاووس .. انتهى كل شئ .. قال الامبراطور كل ما فى نفسه على مئات الملايين من الناس ولشعبه هو .. وخلعت الكرافتات على أبواب القصر ..

وركبنا السيارة وبدأنا نتساءل : ومتى يرفعون هذه الزينات من الشوارع ؟

وكان الجواب إن الامبراطور قد اختار هذا الوقت بالذات لحكمه . وقد كان من المفروض أن تحتفل إيران بمرور ٢٥قرنا على ذكرى كوروش سنة ١٩٥٩ ، ثم أجل هذا الاحتفال إلى سنة ١٩٦١ وأخيرا بعد أن توج الامبراطور على بلاده فى أكتوبر سنة ١٩٦٧ قرر أن يجعل الحفلات فى أكتوبر سنة ١٩٧١ .. ففى هذا الشهر يحتفل بمرور ٢٥ قرنا على ذكرى كوروش٢٠٠,٠٠ سنة على إنشاء مدينة طهران وعيد ميلاده الثانى والخمسين وعيد الميلاد الثالث والثلاثين للامبراطورة فرح وعيد الميلاد العاشر لولى

العهد وعيد تتويجه الخامس – كل ذلك فى أيام متقاربة .. وبذلك تظل هذه الزينات على جانبى الشوارع كل هذه المدة .. وإن كنا قد لاحظنا أن بعض الزينات قد أطفئت من الشوارع قبل عيد ميلاد الامبراطور بيوم واحد – وهو عيد السلام – ثم أعيدت فى اليوم التالى لكى يدرك الناس هذه المناسبة القومية أما عيد السلام – فهو عيد شاق . إذ أن الامبراطور يتلقى التهنئة باليد من الوزراء ورجال السلك الدبلوماسى . وينتهز الامبراطور هذه الفرصة ويتحدث .. وكذلك الامبراطورة قالت لى حرم سفيرنا فى طهران سميح أنور أن الأمبراطورة فى عيد السلام الماضى قالت لها أنا أسفة للدوشة التى نسببها لكم .. ولذلك اقترح عليك أن تتقدمى بشكوى للحكومة ضدنا .

وكانت الامبراطورة تشير إلى أن بيت السفير المصرى قريب من القصر الأمبراطور . وأن طائرة الامبراطور الهليكوبتر التى ينتقل بها من مكان إلى مكان تحدث هذه الدوشة . . كل يوم وأنه لا أمل فى أن يسكن الامبراطور بعيدا من بيت السفير .

***

ولابد أن الحكومة الإيرانية ، بكل أجهزتها قد استراحت تماما أو أخذت نفساً عندما بدأ الملوك يسافرون من طهران عائدين إلى بلادهم . . فقد كان هؤلاء الملوك أعباء ثقيلة على أجهزة الأمن ، فقد كانت هناك إجراءات شديدة جدا ، وقوات من البوليس السرى فى كل مكان حتى لا يفسد المهرجان .. ولو حدث شئ ما ، لنسى الناس المهرجان ولذكروا هذه الحماقة ..

ولابد أن الامبراطور ورجاله قد انزعجوا عندما قرأوا لكاتب فى صحيفة فرنسية يتمنى أن يذهب أى شاب مجنون ويلقى بالقنابل على مدينة الخيام

حيث الملوك والرؤساء وبذلك يستريح العالم من ملوك الذهب والحديد . والبترول والسلاح .

ولم تقترب طائرة أو سيارة من مدينة الخيام بالقرب من شيراز إلا بعد أن تمر فى حصار بعد حصار بعد حصار .. ثلاث دوائر أمن دقيقة وعنيفة ، وفى كثير من الأحيان تتشدد إلى درجة الخروج عن الذوق — ولكنها التعليمات .

لابد أن الدولة قد استراحت ..

ولذلك فأنا أجد عذرا معقولا لرجال السفارة الإيرانية فى مصر .. فقد قال لى الصديق على أكبر كسمانى المستشار الصحفى : إننا نبعث برقيات إلى وزارة الخارجية ولكنها لا ترد ..

وقال لى الدكتور ظالمى وكيل وزارة الخارجية الإيرانية : معه حق .. ان كل أجهزة الدولة وكبرائها قد انتقلوا إلى مدينة شيراز . ونحن معذورون .

ولم يكن من السهل طبعا أن أجد أحدا فى استقبالى فى مطار « عمر أياد » بطهران .. أعرف ذلك ، وأعذر وزارتى الإعلام والخارجية فالدولة كلها مشغولة بأشياء كثيرة ، ولذلك عندما سافرت إلى طهران كنت أعلم علم اليقين أن رحلتى هذه يمكن أن توضع تحت عنوان : عائشة فى سوق الغزل .. كما يقول المثل الشعبى .. أى أن أحدا لا يدرى بى . وأنه من الصعب أن أن أجد فندقا . فهناك مئات الألوف من الزوار والرسميين وأنه لا مكان لأحد فى أى مكان وأنه من الأفضل أن أعدل عن السفر وأن أذهب إلى الفرجة على هذه الزينات بعد نهاية المهرجان أى بعد العيد . . وأنه : أيه يعنى ياشيخ أقعد بلا دوشه .. وإذا كنت تريد أن تبحث عن مكان تستريح فيه من كل ما حدث لك هذا العام ، فاذهب إلى لبنان .. آه إلى إيطاليا يا أخى .. أو سافر إلى إحدى الجزر اليونانية أو الأسبانية ولا من شاف ولا من درى ..
— والله فكرة .

آه أسافر إلى أوروبا وأتفرج على التليفزيون فكل مهرجانات إيران مذاعة على العالم كله فى وقت واحد .

***

ولكن ليس قبل أن أسافر إلى إيران .. ووجدت لى مكانا فى الطائرة بصعوبة شديدة وكان من الضرورى أن أتوقف فى الكويت بضع ساعات وبعدها أسافر إلى إيران .. ساعة واحدة من الكويت إلى طهران ، وكان يوما طويلا مرهقا . والتعليمات أن أذهب إلى الكويت قبل موعد الطائرة بساعتين ، لماذا . لعل له علاقة بإجراءات الأمن الإيرانية لاأعرف . . ربما وكان المطار باهر الضوء . . وهو قطعة من العذاب للعيون الساهرة المكدودة . وفى الطائرة نمت وفى مطار طهران اكتشفت أن البالطو الذى على ذراعى لم تكن له ضرورة . . انها معلومات خاطئة التى سمعتها فى القاهرة قالوا : هناك برودة .

ربما كانوا يقصدون : المقابلة .. أو المعاملة وليس الجو .. وفعلا كانت هناك حرارة فى الجو ، وبرودة فيما عدا ذلك . .

نزل الناس . كلهم إيرانيون . جميعا .. اللافتات كلها بحروف عربية طبعا . وتحت لافتة كمرك – أى جمرك .. دخلت . . وانتظرت الحقائب وجاءت . وسألت عن واحد من رجال الصحافة . أو مكتب وزارة الأعلام . وجاء رجل من بعده رجل ، واحد مهذب رقيق جدا اسمه : نظمى .. أو ناظمى . انه يدور حول نفسه – هذا تعبيره – من شدة التعب فهو لم يبرح هذا المطار منذ أيام المهرجان .. وكأننى عندما ذهبت إليه يدلنى على فندق طلب منى أن أدله على سرير لكى ينام . ومع ذلك حاول أن يجد لى فندقا . وأخيرا وجد فندق (سميراميس) واعتذر عنه .. وقال : انه ليس من الدرجة الأولى . ولكن أنت تعرف وأنا أعرف أن الفنادق كلها مشغولة . صحيح أن الناس عند وصولى إلى طهران كانوا جميعا فى مدينة (برسبوليس)

حيث مدينة الخيام الخيالية .. ولكن سوف يعودون إلى الفنادق أو بالعربى الفنادق مشغولة رغم أن نزلاءها فى مكان آخر — فنادق الدرجة الأولى طبعا . ولكن الدوخة لا تهم المهم أن أجد مكانا أستريح فيه ساعة أو ساعتين قبل أن أسافر إلى مدينة الخيام ..

ووعدنى بأن أحدا من وزارة الاعلام سوف يتصل بى عندما أصحو من النوم ، وسوف يحجز لى فى الطائرة المسافرة إلى مدينة شيراز فى آخر اليوم . وبعينين أكثر احمرارا من عينيه . حاولت أن أشكره . فقد كنت أحمل البالطو وحقيبة فى يدى والحقيبة الأخرى فى اليد الثانية .

وكانت الساعة السادسة صباحا .. الهواء فى الشارع وأمام المطار منعش .. لم يكن حارا كما تصورت . ولكن اضطراب المشاعر فى نفسى هو الذى أربك جهاز التكييف الموجود فى جسمى .. ان هذه الورقة الصغيرة التى فى يدى والمكتوب عليها اسم الفندق وإمضاء ناظمى هذا ، قد خفضت درجة الحرارة .

وناديت أحد التاكسيات .. عندما تقدم ناحيتى رجل قصير القامة سمين بكرش ويتحدث باللغة العربية : انت فلان ..

قلت نعم قال : لقد رأيتك وأنت تنزل من سلم الطائرة — فقلت إنه هو .. تلغرافك وصلنى تعال معى ..

ثم التفت إلى الرجل الرقيق ناظمى وقال له باللغة الفارسية ما ترجمه لى بعد ذلك : كتر خيرك . روح أنت نام ياحبيبى .. أنا عندى لوكاندة ينام فيها ساعة أو ساعتين .. وأنا حاحطه فى الطيارة .. كتر خيرك .. روح نام وحمل هذا الرجل الذى بلغ السبعين من عمره حقيبة ثقيلة وسحبنى بما تبقى لديه من قوة .. ووجدت نفسى فى سيارته .. وقبل أن أدخل السيارة قال : جاءتنى برقيتك .

ووصلته البرقية وخرج الرجل من أحد الكباريهات بعد أن شرب عشرين فنجان قهوة . وجاء لينتظرنى فى المطار . وفى الطريق إلى الفندق عرفت أنه يحب مصر . وأن له إبنة تعيش هنا . وأنها متزوجة وأن له إبنا فى أمريكا وأن له شقة فى القاهرة كلفها عشرة آلاف جنيه ديكورات ولوحات . وأنه يجئ إلى القاهرة ليتعاقد مع الراقصات . وأن راقصة مصرية موجودة فى طهران الآن . . وأنه مليونير . وأنه فى صحة جيدة وأنه لايطلب من الله إلاالستر . وأنه مبسوط خالص. وأنه يحب الناس، ولذلك فله أصدقاء فى كل الدنيا . وأنا اعتقد أنه على حق فى حبه للناس . فأنا شخصيا لا أعرف لو جاءتنى برقية من هذا النوع : هل أذهب ؟ وإذا ذهبت فهل أكون راضيا سعيدا ؟

وهل تكون هناك أية قوة باقية فى جسمى أو فى نفسى لكى أجلس أتحدث ساعتين أخريين أثناء تناول الإفطار ..

ذهب تاكى هذا إلى فند الكروان .. الشوارع مزدانة . وأنا أعرف السبب طبعا ومر على نصب تذكارى شكله غريب . وقال أنه متحف . ونطق اسمه . وعرفت فيما بعد أنه نطق الاسم خطأ . النصب التذكارى اسمه — شاهياد — أى نصب تذكارى للشاه . وهو عمل هندسى لشاب إيرانى هذا النصب التذكارى على شكل قاعدة برج به مصاعد كهربية ومتحف تحت ومطعم فوق — والكويت أيضا تبنى برجا مثل برج القاهرة وفى قمته مطعم .

ونظر تاكى إلى ناحية من السيارة وقال : سوف أذهب إلى شارع الفردوسى. وسألته : هل تعرف الفردوسى ؟

— لا .. لكن لازم راجل عظيم ..

والفردوسى هو الشاعر الإيرانى الكبير مؤلف كتاب « الشاهنامة » أى (كتاب الملوك) وسير الملوك من أقدم العصور .. وفيه الكثير من الأساطير القديمة .

***

والمحلات كلها مغلقة .. والشوارع نظيفة ناعمة .. ودخلت السيارة شارعاً ضيقاً .. ووقفت أمام الفندق .. ونادى بعض الموظفين .. وأصدر إليهم أوامره .. واتجهت إلى المطعم . ونادى بالفارسية . وأصدر أوامره . وسأل : ماذا تريد .

وضحك هو قائلا : طبعا تريد أن تنام .. بعدين .. بعد الفطور وجاء الشاى والجبنة والزبد .. والخبز .. وكان معجبا بالطعام جدا . أكل الخبز وشرب الشاى وأكل الزبد وطلب المزيد .. فأكل الخبز والجبنة والزبد .. ثم قال : جميل عارف إزيه .. بيشتغل إيه ؟ قلت : كويس انه أحد نواب رئيس تحرير آخر ساعة .. قال : جميل روحه حلوه خالص .. أنا لما أروح مصر لازم أسهر معاه .. أو .. نسهر للصبح .. أنت ما تعرفش تاكى لما يكون مبسوط بيعمل إيه ولا بيقول إيه .. أوه تاكى .. ما فيش زيه فى الدنيا كلها .. الحمد لله جوزت بنتى .. وجوزت ابنى .. وعندى خمسون فدانا فى مصر وعمارتين .. الحمد لله .. وأنا مبسوط خالص وصحتى كويسة .. الدنيا حلوة . الواحد مش لازم يزعل نفسه .. شوف ماحدش واخد منها حاجة اسأل جميل عارف .. اسأل وهو يقول لك .

وعرفت فيما بعد أنه أكبر فشار . ولعنت جميل عارف ولياليه مع الخواجة تاكى .. وأريد أن أنام .. لا أنا أريد الشاى ولا القهوة ولا أى شئ آخر . أنام فقط يا خواجة .

– أنت لازم تنام – ياريت . – طيب لازم تشرب قهوة . هنا فيه نوع من القهوة . تأخذه من هنا . . وبعدين تاكل رز بلبن مع الملايكة . .

– الله يلعنك ياجميل .

– ليه .. تشتم جميل ؟

– كنت عاوزه ييجى هنا يتفرج على العذاب إللى أنا فيه .

– عذاب .. لا .. عيب ياخبيبى . . أنت هنا حتنبسط خالص .. البلد حلوه . الناس كويسين .. قوم نام .. – الله يخليك يا خواجة تاكى .. – وإذا عزت أى حاجة . أنا نايم هنا لحد الساعة الرابعة .. اطلبنى الساعة الخامسة . – شكرا .. ومعنى ذلك أنه سوف ينام ١٢ ساعة ومن الذى يستطيع أن يجئ إلى طهران ويبقى فيها ١٢ ساعة دون أن يسارع إلى مدينة الخيام الخيالية .. وبعد ذلك ليكن ما يكون ..

ولكن لابد أن أنام .. الغرفة لا بأس بها .. السرير غير مريح . لا يهم .. تركت ملابسى على الأرض . ونمت .. واكتشفت الغرفة . الستائر ثقيلة . الغرفة باردة .

لاصوت لا أحد وأخيرا جاءت الأصوات من بعيد .. أطفال .. وأمهات .. كم الساعة الآن . لابد أنها تجاوزت منتصف النهار . وأنظر فى الساعة ثم أضعها على أذنى .. انها تدور .. اننا فى الثامنة صباحا . عال جدا لقد نمت ساعتين وفى غاية الانتعاش . الآن أستطيع أن أفعل أى شئ . معى فلوس إيرانية . تأكدت من عددها . وفى الإمكان أن أطلب السفارة المصرية ولابد أن أعرف شيئا . كيف انتقل إلى فندق آخر أحسن حالا .. وأن أذهب إلى الملوك والرؤساء واتصلت بالسفارة المصرية . وطلبت الملحق الصحفى وأخيرا جاء صوت رقيق مطمئن . إنه الأستاذ على ماهر . وكانت هذه الصلة بداية سلسلة من الاتصالات الأكيدة . والخطوات المحسوبة . فبعد أن عرفت السفارة بمكانى . أصبح كل شئ سهلا . وتوالت وجوه رجال السفارة الواحد بعد الآخر الأساتذة : محمود شكرى .. والمستشار يحيى رفعت .. ثم السفير سميح أنور .

إلّا المياه المعدنية..
وفساتين الامبراطورة

(٢)

استطاع امبراطور إيران أن يقيم وسط النار والشرار الذى أحرق الحدود بين الدول وأشعل النار فى أعصاب العواصم أن يقيم فرحا ليس له نظير فى كل العصور .. وأن يعطى هؤلاء الناس الرؤساء أجازة بالقوة .. وأن يجعل فى الإمكان أن يتجاور فى الأكل والنوم أكثر الناس عداوة واختلافا بمناسبة ذكرى أكثر الدول تسامحا ... واستطاع الامبراطور أن يواجه العالم وشعبه بمنتهى الهدوء والارتياح . صاحب هذا المولد هو : كوروش . فمن أجله أقيمت الاحتفالات والزينات ودعى إلى إيران الملوك والرؤساء والأمراء ..

هذا الرجل هو أول من أنشأ الامبراطورية الفارسية . وأول من نادى بحقوق الإنسان ولكنه فى نفس الوقت هو أعظم رجل دعاية عرفه التاريخ . فهو قد سبق المؤرخين وسجل تاريخه هو بيده . ويقال إن هذا الرجل كان شجاعا وطيبا فى نفس الوقت . كان قويا ورحيما .

ويقال إن والديه ألقيا به فى الجبال فأرضعته كلبة .

ويقال إنه وهو طفل كان يلعب مع عدد من زملائه ثم اختاروه ملكا عليهم . وإذا به يحكم على واحد من الأطفال بالضرب العنيف . ويتولى هو كل هذه العقوبة .

ويقال إنه كان بعيد النظر فقد نصب ابنه قمبيز على العرش وهو مازال طفلا . وذهب فى إحدى حملاته ولم يعد . لقد مات . أو قتلوه .

ويقال إنه عندما ذهب للاستيلاء على مدينة بابل قرر ألا يقتل أحدا بسلاحه . وكل ما فعله أنه جفف مياه النهر ليستولى على الشعب وهو ميت من العطش . ويقال إن سبب تجفيف مياه النهر أنه كان يعبر النهر وسار وراءه بعض خيوله . وقد سقط واحد من هذه الخيول فى الماء من شدة الإرهاق . ومات الحصان . وقرر كوروش أن ينتقم من ماء النهر : فجففه .

يصفه المؤرخ هيرودوت أنه ملك عظيم شجاع . .

ويصفه الفيلسوف أكزنوفون : إنه بعيد النظر ومتسامح . ويصفه المؤلف المسرحى اسكيلوس بأنه ليس بين الفارسيين واحد مثله فى حزمه وعزمه . .

والتوراة فى سفر أشعياء تقول : هكذا قال الرب لمسيحه كوروش الذى أمسكت بيمينه لادوس أمامه أمما وأحفاد ملوك . . لأفتح أمامه الأبواب لكى تعرف انى الرب الذى يدعوك باسمك . .

وسفر « دانيال » يقول : ليكثر سلامكم . . الكل يرتعد أمامه . .

وسفر عزرا يقول : وفى السنة الأولى لكوروش . أوصانى الرب أن ابنى له بيتا فى أورشليم . .

لقد عاش كوروش ومات فى القرن السادس قبل الميلاد . وهذا القرن يسمونه : القرن الذهبى . ففيه ولد كوروش وولد الزعيم الدينى كونفوشيوس فى الصين .

وفى الهند ولد الزعيم بوذا . . وفى اليونان ولد أبو التشريع سولون . وفى إيران ولد الزعيم الدينى زرادشت . وكان كوروش يؤمن بالديانة الزرادشتية أى بعبادة النور . الشمس والنجوم والنار . . ولا تزال الديانة الزرادشتية واحدة من الديانات الرسمية الأربع فى إيران : الإسلام والمسيحية واليهودية والزرادشتية وعندما ذهب كوروش إلى بابل استولى عليها وسجل

كلمة مشهورة بقيت على اسطوانة من الفخار . ترجمة هذه الاسطوانة تؤكد أن الرجل هو الذى أرسى حقوق الإنسان والتسامح الدينى . ولم ينس طبعا أن ينصب نفسه ملك الملوك . ومنذ أيامه وملوك إيران يحملون لقب « ملك الملوك » أى – شاهنشاه ..

الاسطوانة عثرت عليها بعثة بريطانية بالقرب من بابل جنوبى العراق سنة ١٨٧٩ . وبمناسبة احتفالات إيران الأخيرة أتى د . بارنت أمين المتحف البريطانى بها على سبيل الإعارة ، وإن كانت الصحف الإيرانية تطالب بالاستيلاء عليها . وقد وضعت فى متحف « شاهياد » . وحمل الملوك والرؤساء بين هداياهم من شاه إيران نموذجا صغيرا لاسطوانة كوروش .

تقول الاسطوانة : « أنا كوروش العظيم .. عندما أتيت إلى بابل وأنا فى كامل قوتى أقيمت حكومتى فيها بين الأفراح والابتهاجات والاحتفالات وكانت الجيوش التى لا يحصى عددها لا تلقى فى هذه المدينة أيه مقاومة ، ولم أسمح لأى إنسان أن ينشر الخوف والرعب فى أرض سومر وأكاد (العراق) .. لقد حرمت الحلال أهل بابل . وبنيت بيوتهم المهدمة ، وأنهيت سوء حالتهم ، وأعدت جميع الناس من .. إلى مدن « شور » وشوس وأكاد وأشتونا وزبعمان ونيورنو ودر حتى أرض كيوتيوم (الأتراك والمغول) وما وراء نهر دجلة التى تعرضت معابدهم المقدسة للمذابح ، وكذلك الآلهة التى كانت بينهم ، أعدتهم جميعا إلى أماكن سكناهم . لقد جمعت جميع ساكنيها وأعدت لهم بيوتهم » .

ولذلك تغنت التوراة بهذا الرجل لأنه أعاد اليهود إلى فلسطين وأنقذهم من الأسر فى بابل ..

وتحولت وتحورت كلمة « كوروش » إلى كوروس وكريس .. وكريست – أى المسيح – ووصفته التوراة بأنه المسيح .

وفى سنة ١٩٥٨ أصبح معروفا أن أنسب سنة للاحتفال بمرور ٢٥ قرنا على إنشاء الامبراطورية الفارسية هو سنة ١٩٦٢ . ولذلك قرر اليونسكو الاحتفال بذكرى كوروش فيما بين ٦٢ و ١٩٦٣ .. ولكن تصادف أن شاهنشاه إيران قد أعد هذا العام ليفجر ثورته البيضاء . أى الإصلاح الشعب الاجتماعى والسياسى من فوق ، يفرضه على الشعب ، قبل أن يفرضه عليه فتكون بذلك ثورة حمراء . ولذلك تأجلت إقامة هذا المهرجان .

فعاد اليونسكو فى دورته الحادية عشرة فى نوفمبر سنة ١٩٧٠ واتخذ قراره رقم ٤٧٢٣ بأن يكون المهرجان فى سنة ١٩٧١ ..

وكذلك قرر المؤتمر الدولى للمستشرقين الذى انعقد فى استراليا .. وقررت إيران أن تكون سنتها الجديدة هى سنة كوروش — السنة التى بدأت يوم ٢١ مارس سنة ١٩٧١ .

وتشكلت لجنة يرأسها ملوك ورؤساء ٦٩ دولة للاحتفال بمرور ٢٥ قرنا على صدور أول وثيقة لحقوق الإنسان والتسامح بين الناس .

واتخذ الاحتفال رمزا لذلك : اسطوانة كوروش المصنوعة من الطين وحولها اللون الأزرق الملكى محددة بخمس وعشرين زهرة . أى خمسة وعشرين قرنا .

أما مكان الاحتفال فسوف يكون فى مدينة برسبوليس (أى مدينة الفرس) . وفى هذه المدينة التى تبعد عن المدينة شيراز بستين كيلو مترا .. توجد بقايا القصر الملكى لكوروش .. وقصر الضيافة .. والقصر الشتوى .. لم يبق من هذه المدينة شئ .. إلا شيئا قليلا جدا . ولابد أن هذه المدينة بأعمدتها القليلة تهز الزائر الأوروبى . وتلخبط عقل الزائر الأمريكى .. ولكن الزائر المصرى لا تهز شعرة فيه .. فعندنا آثار أضخم وأعظم وأفخم من كل هذه الآثار .. ولكن ليس هنا مجال للمفاخرة والمقارنة ..

ولكى يقام هذا الاحتفال العظيم ، كان لابد من إقامة مدينة جديدة .. وتصبح هذه المدينة الجديدة رمزا للحاضر فى قلب هذا الماضى .. أو دعوة لأبناء العصر الحديث للاحتفال بالماضى . ولذلك عندما تحدث امبراطور إيران إلى ضيوفه قال لهم : يا سادة أنتم ضيوف على التاريخ – وهذا صحيح . .

وقد أزيلت الآثار على مساحات من الأرض شاسعة .. حوالى ٥٠٠ فدان .. وقبل ذلك رصف طريق طوله أكثر من ١٢٠ كيلو مترا . ونقلت ألوف الأشجار إلى هذه المنطقة .. نعم غابة كاملة .. هذه الغابة نقلها مهندسون زراعيون فرنسيون . لتكون مدينة الخيام فى حمى هذه الغابة .. وتكون بعيدة عن العيون .. وتكون سياجا منيعا للملوك والرؤساء ..

أما الطرق التى فتحت ورصفت فلم يكن لها قبل ذلك أى وجود .. كانت دروبا على الأرض الصحراوية . هذه الدروب هى بقايا الطريق المعروف باسم طريق الحرير . أى الذى يمتد من أوروبا إلى بكين عاصمة الحرير ، من ألوف السنين .

وإذا كانت هناك أشجار تمتد على جانب من الطريق فقد اقتضت اعتبارات الأمن العام قطعها بحيث لا يزيد ارتفاعها عن متر ونصف متر ..

وأهم من ذلك أن هذه المنطقة – برسبوليس – تحيط بها الجبال والصحارى الملتهبة فكان من الضرورى اخلاؤها تماما من الثعابين والزواحف ولذلك جاءت الطائرات الهليكوبتر ترش هذه المنطقة بالمبيدات الحشرية .

واستغرق ذلك ستة شهور . حتى قضى تماما على الثعابين والعقارب والأبراص قال لى خبراء الثعابين فى « معهد الرازى » انهم هم الذين تولوا القضاء على الثعابين . خوفا على حياة الملوك والرؤساء .. وانهم اضطروا

فى بعض الأحيان إلى النزول من الطائرات والتأكد من وفاة الأفاعى .. فكانوا يقفون أمام الجحور ويضعون الفئران فى هذه الجحور ثم ينتظرون .. وكانت الفئران مربوطة بأسلاك رفيعة ثم يسحبونها بعد ذلك .. وكانت الفئران تخرج سليمة .

ويقال إن هذه المنطقة شهيرة بثعابينها ولذلك كان من الضرورى القضاء عليها أولا .

أما عدد الثعابين فيبلغ حوالى عشرين ألفا .. وقبل بناء مدينة الخيام هذه ، ألقت الحكومة القبض على عدد كبير من المشبوهين . ومن الغريب أن يبلغ عددهم حوالى ٢٥٠٠ شخص . وقد سئل الامبراطور فى مؤتمره الصحفى : لماذا لم يتمكن أهل هذه المنطقة من رؤية المهرجانات ؟ ولم يكن الامبراطور فى حاجة إلى جواب .. ولو كنت منه لقلت : إنهم سيتفرجون عليها فى التليفزيون الملون .. وهى متعة عظيمة جدا . ولابد أن أول شئ سيفعله الامبراطور هو أن يتفرج عليها فى التليفزيون فهى أمتع وأروع .

وشاءت اعتبارات الأمن أيضا إبعاد بعض الناس من قراهم وبيوتهم بالقرب من هذه المنطقة أما الغاضبون أو الساخطون على ذلك فكثيرون وهم من كل بلد وكل مكان وكل عصر يفعلون نفس الشيء فلا يستطيع أحد ولا استطاع أن يرضى الناس كل الوقت أو حتى بعض الوقت .

أما الاستعراضات العسكرية فقد صممها الامبراطور نفسه ومع قواد جيشه . واتفقوا على أن يقدموا عروضا عسكرية للحياة البرية والبحرية أيام كوروش العظيم – أو كوروس الثانى وأن تكون لهم نفس الملابس وأن تكون لحاهم طويلة . أما الملابس فكانت زاهية أنيقة جدا .

وتناقشوا فى مسألة لحية كل جندى .. وتقدمت شركة يابانية بأنها على استعداد لإمداد الجيش باللحى الصناعية ..

ولكن الأمبراطور أصدر أوامره للجنود بأن يطلقوا الحاهم . وأطلقوا لحاهم ستة أشهر .

أما الزينات فقد تولاها مهندس إنجليزى هذا المهندس من مواليد قرية الشاعر فيتز جيرالد الذى ترجم رباعيات الخيام إلى الإنجليزية .. هذا المهندس الإنجليزى اسمه ونتون أرفين وهو الذى صمم الزينات الجميلة الرائعة .. هو الذى صمم الأشجار والطواويس وريش الطواويس الملونة . وقد عرف هذا المهندس يوم صمم زينات شارع فى لندن يوم الكريسماس سنة ١٩٦٦ ..

ان هذا المهندس الإنجليزى وحده قد صمم زينات طولها ٩٢ كيلو مترا .. أما المصابيح فقد قدمتها شركة فيلبس العالمية واستخدم أسلاكا كهربية طولها ٤٠٠ كيلو متر .. وزنتها ١٤٠ طنا .. أما عدد المصابيح الكهربائية التى استخدمها فهى مليون مصباح .

أما الحرس الامبراطورى فقد صممت ملابسه مؤسسة لانفان — إحدى دور الأزياء الشهيرة وتكلفت البدلة الواحدة ٢٥٠٠ جنيه .. ففيها خيوط من الذهب طولها خمسة كيلومترات .. وكان عدد رجال الحرس الامبراطورى ثلاثة آلاف رجل ..

وهذه المنطقة التى أقيمت فيها مدينة الخيام كانت صحراء جرداء .. لا يعرفها أحد إلا من كتب التاريخ .. ولم يكن يزورها أحد إلا علماء الآثار .. ولا يدرون عنها أى شئ . ولكن الحكومة الإيرانية طبعت كتيبا وصورا ولوحات فنية جميلة أنيقة بأكثر من مليون جنيه ..

وأقامت فندقين من أروع فنادق الدنيا .. الفندق الأول اسمه كوروش ..

والفندق الثانى اسمه داريوش . وفندق داريوش هذا من طابق واحد . ولكن مظهره الخارجى قديم جدا .. ومن الداخل حديث إلى أقصى درجة .

إن أوراق التواليت وردية اللون وفى نعومة الحرير ومتانة القماش ــ ولدرجة أن الصابون معطر بالرائحة الجديدة ــآنفينى ــ أى اللا متناهى . ولدرجة أن طفاية السجاير ذهبية اللون وتغريك بأن تحتفظ بها ــ أكثر الناس فعل ذلك.

وهذه الفنادق وغيرها سوف تبقى بعد ذلك فى خدمة السائحين . أما ملابس موظفى الفنادق الجديدة فمن تصميم كريستيان ديور . وواضح أن الملابس أوســع من الشبان الصغــار الذين يرتدونها . . ولكنها أنيقة جــدا . سألت مدير فندق كوروش : انهم فى غاية السرعة وفى غاية البطء أيضا .. يردون على نداءات الناس بسرعة . ولكن يحققون رغباتهم ببطء ..

وهنا أحس الرجل أننى أجنبى مثله فقال : انهم تمرنوا لمدة شهرين فقط .. وعدد الضيوف أكثر مما يحتمل الفندق .. وهم لم يذوقوا النوم من شهور .

وهو جاء من فيينا لإدارة هذا الفندق وللاعتذار عن كل تقصير يراه الزائر .. ولكن هذا التقصير لا يهم فهو طبيعى .. ولكن الفندق أقيم .. والخدمات ممتازة والأطعمة جيدة . ولن يتكرر ما حدث من هذا العدد الهـائل من الملوك والرؤساء وحاشيتهم التى تبلغ المئات .

وحول هذه المنطقة كلها جيش يحرسها من بعيد .. ويشدد الحراسة إلى أقصى درجة وأكثر من ذلك .. إن كل ملك أو رئيس دولة له مرافق . هذا المرافق على اتصال لاسلكى الكترونى بحارس آخر خارج مدينة الخيام ليلا ونهارا .. وغير مسموح لأية طائرة أن تقترب من هذه المنطقة لا ليلا ولا نهارا . ربما فقط طائرة الامبراطور التى يتنقل بها بين هذه المنطقة وطهران لاستقبال الملوك والرؤساء على أن تهبط الطائرة بعيدا عن منطقة الخيام ..

أما الصحفيون ورجال الأعلام . فقد جاءوا جميعا على حسابهم . ولم توجه الدعوة إلا لإثنين فقط هما : لورد تمسون صاحب صحيفة التيمس البريطانية .. وصحفى أمريكى يرأس مجلس إدارة صحيفة التايم الأمريكية . هذان الإثنان فقط . أما بقية الصحفيين فقد جاءوا على حساب مؤسساتهم الصحفية . وإن كانت إيران قد وضعت كل التسهيلات الممكنة تحت تصرفهم

الاتصالات اللاسلكية والبرقيات .. وكان على كل صحفى أن يبعث بست صور إلى السفارة الإيرانية فى بلده .

والسفارة تبعث بخمس صور إلى وزارة الخارجية وإلى القصر الامبراطورى ووزارة الاعلام ولابد أن تكون للصحفى صورة ملونة بالبلاستيك موقعة بإمضاء السكرتير الخاص للامبراطور ورئيس الحرس الامبراطورى ولابد أن يضعها على صدره . وإلا وجد من يسحبه برفق وبلا مناقشة إلى خارج المكان . حدث ذلك مرة واحدة . وكان السبب أن أحد الصحفيين الأمريكان قد خلع البول أوفر من شدة الحر . فاقترب منه أحد الحراس ونبهه إلى ذلك ولكن الصحفى مشغول بالتصوير . وأشار إلى البول أوفر ولكن الحارس لم يستمع إلى الإشارة ولم يكن فى استطاعة الصحفى أن يلتفت فأشار برجله إلى البول أوفر .. فظل الحارس يمسك القميص فى وضعه السليم طول الوقت إلى أن تم التصوير . واعتذر الصحفى الأمريكى مبتسما ولم يبتسم الحارس الامبراطورى .

والامبراطور شديد التمسك بالبروتوكول وهو متشدد فى ذلك إلى أقصى درجة ولابد من وضع النياشين فى المقابلات الرسمية .

وقد سمعت من أحد الأمراء العرب الذى قابل الامبراطور أن رجال المراسم نبهوه إلى ضرورة وضع النياشين . ولكن الأمير احتار أين يضعها وهو يرتدى جلبابا أبيض . قالوا له : لابد أن تضعها على الجلباب .

وقال الأمير : ليست عندى نياشين .. وإذا وضعتها فإنها سوف تسحب الجلباب إلى أسفل وتمزقه .. وأصروا ..

وفى يوم اللقاء لم يجدوا النياشين .. وسلم على الامبراطور وهو يقول : أنا أتيت بالنياشين فى يدى ، لأنى لم أجد لها مكانا على صدرى ..

وضحك الامبراطور . ولكنه لم يقل مثلا : ياراجل ولا يهمك .

وطبعا لم يفعل ذلك ..

أما مدينة الخيام نفسها فهى أحدث ما اخترعه الإنسان فى العصر الحديث .

صحيح أن الناس يستخدمون الخيام فى معسكراتهم .. أو فى نزهاتهم .. أو يضعون فيها الكهرباء وأجهزة التكييف فى بعض إمارات الخليج .

وسوف تستخدمها ألمانيا فى الدورة الأوليمبية القادمة فى مدينة ميونيخ لحماية اللاعبين والمشاهدين من تساقط الجليد ، ولكن مثل هذه الخيام التى أقامها الامبراطور فى مدينة برسبوليس ، فشئ لا نظير له فى التاريخ .. وأنه أقام ٥٩ خيمة .

وأقام خيمتين كبيرتين للحفلات .. الأرض التى عليها الخيام مساحتها ٢٥٠ فدانا .. وبين هذه الخيام طرقات واسعة مزروعة .. نقل إليها الزرع ..

وهذه الخيام على شكل زهرة ذات خمس ورقات .. والخيام مصنوعة من البلاستيك غير القابل للاحتراق . والذى يستطيع أن يواجه الريح بشرط ألا تزيد سرعتها على ١٢٠ كيلو مترا فى الساعة .

وبعد طبقة البلاستيك توجد طبقة من الجلد ..

وتحت الجلد توجد طبقة من القطيفة .. والديكورات الداخلية تتغير من واحدة إلى واحدة .. أى بما يتفق مع ذوق وتاريخ الضيف الكبير الذى ينزل فيها ..

ولكن الخيام من الخارج يغلب عليها اللون الأزرق الامبراطورى .. واللون البنى الذهبى أيضا – وهو لون الامبراطور والإمبراطورة .

هذه الخيام استغرق صنعها ستة شهور واشتغل فى إعدادها وتركيبها أكثر من ثلاثة آلاف عامل .

والخيام من تصميم وإعداد شركة يانس الفرنسية المشهورة بصناعة المطاط .

وفى الوقت الذى أقيمت فيه مدينة الخيام حرص الامبراطور على أن يبنى للشعب ٢٥٠٠ مدرسة وأن يدخل النور إلى ٢٥٠٠ قرية .

وأن تتبنى زوجته أسرة مكونة من ٢٥ طفلا جاءوا من كل المقاطعات الإيرانية . وكل خيمة مكونة من غرفتين للنوم .. ودورتين للمياه . واحدة للسيدات والأخرى للرجال . على باب دورة مياه السيدات مرسوم وردة . وعلى باب دورة المياه الأخرى مرسوم سيجار .

وقد تضايقت الامبراطورة فرح من هذين الرسمين .. ورأت فى ذلك جليطة وقلة ذوق ولكن سيبقى كل شئ كما هو ..

وكل خيمة مكيفة الهواء .. أو على الأصح فيها تدفئة . فالجو نهارا حار وفى الليل شديد البرودة . وكثير من الزوار الآسيويين والأفريقيين قد شكوا من برودة الخيام ليلا ..

ولكن الخيمة من الداخل مزدانة بألوان هادئة .. تتفق مع مزاج الضيف الكبير . ولا يوجد شئ يذكر الضيف بأنه فى إيران . وأنه ضيف على ملك الملوك ، وأنه من الخير له أن يغتنم هذه الفرصة ويشعر بالارتياح .

وإلى جوار سرير الضيف توجد نسخة من « رباعيات عمر الخيام » بالإنجليزية . ويوجد دفتر صغير مكتوب عليه : إياك أن تنسى .. وفى هذا

الدفتر توجد المواعيد الضرورية . وتوجد أرقام التليفونات التى يحتاج إليها .. وخصوصا خيمة الطعام أو الخدمات .

إن الحياة القصيرة فى مدينة الخيام تشبه الحياة فوق القمر .. فالأرض كلها صحراوية قاحلة .. أما الخيام فهى أشبه بسفن الفضاء الباهرة الألوان المحكمة المكيفة الهواء ..

والتى تجعلك على صلة بأناس كثيرين فى خدمتك لأن عيونهم عليك طول الوقت ..

حتى الملوك والرؤساء كانوا فى حالة انبهار لما يرون مع أنهم يعيشون فى قمة كل شئ فى بلادهم . ولكن الفخامة والأناقة والذوق والمفاجأة قد جعلتهم لايفيقون من هذا الذهول . إن صور بعض الملوك تجعلك تحس أن شاهنشاه إيران قد حولهم جميعا إلى أطفال ولا ينقصهم إلا المراجيح .. بعضهم كان يتمرجح . وبعضهم كان يركب الخيل . وبعضهم كان يضع مقعده خارج الخيمة ويمتص الآيس كريم ..

ان إمبراطور إيران استطاع أن يعزل هؤلاء السادة عن كل مصائب الدنيا التى تصيب غيرهم .. عن الحروب الباردة والساخنة ..

عن المصائب الداخلية فى بلادهم .. عن أوجاعهم الجسمية والنفسية . وجاءوا وأكلوا وشربوا وعاشوا وضحكوا ونسوا .. وعادوا إلى كل ما ينتظرهم فى بلادهم ..

وكل شئ فى الخيام مصنوع فى فرنسا .. الشئ الوحيد الإيرانى هو المياه المعدنية فقط .. أما عدا ذلك ففرنسى ..

والامبراطورة محبة لفرنسا . فقد تعلمت فى مدرسة الفنون الجميلة فى باريس . كان المفروض أن تكون مهندسة ديكور . ولقيها الامبراطور

فى السفارة الإيرانية بباريس أعجب بها سأل عمن تكون هذه الفتاة : قالوا : يتيمة .. أبوها مات وخالها يعولها .. وأحبها وتزوجها .. وهى مثله تتكلم الفرنسية بطلاقة . فقد تعلم هو فى سويسرا . ومربية أطفالها فرنسية . وهى قد أحدثت فى القصر ما أحدثته جاكلين كنيدى فى البيت الأبيض : أدخلت الذوق الفرنسى ..

وكذلك الطعام فقد جاء من مطاعم ماكسيم فى باريس . وهو أشهر وأغلى مطعم فى العالم والذين استطاعوا أن يدخلوا ويخرجوا منه محترمين قليلون جدا .. وعدد السفرجية الذين يقدمون الطعام ١٢٠ .. والذين يعدون الطعام فى داخل خيمة الطعام ١٢٠ .. والذين يقدمون النبيذ والشمبانيا والقهوة والشاى مائة والذين يديرون تقديم الطعام أربعون . . والذين يخدمون السيدات عشرون ..

أما مفارش السرير فهى من صنع بورتو ، أعظم شركة فرنسية للمنسوجات ..

أما الأطباق فهى من صنع ليموج .. وأما الأكواب فمن الكريستال من صنع باكارا ..

وهناك خيمة للتجميل .. هذه الخيمة بإثنين من الحلاقين هما : الكسندر وكاريتا وقد جاء الإثنان وقاما بتسريح شعور السيدات .. وكان كل منهما يحمل معه ٤٠٠ كيلو جرام من الشعر المستعار وأربعين كيلو من البنس . ومائة كيلو من أدوات التجميل وألف زوج من الرموش الصناعية والأظافر الصناعية .. وكان هناك أكثر من أربعين سشوارا (جهاز تجفيف) ..

أما أدوات التجميل كلها فقد أعدتها شركة اليزابيث أردن . وتقول الامبراطورة فرح أنها هدية منها وعلى سبيل الإعلان ..

وقدمت شركة اليزابيث أردن نوعا من الكريم المصنوع من عسل النحل والبيض ولبن الحمير وخلاصة الخيار وعصير بعض الأبصال . لأول مرة وأطلقت عليه اسم برسبوليس . بعض هذا الكريم يستخدم للوجه .. والبعض الآخر لدهان الساقين ..

أما الأشجار المضاءة حول الخيام وعددها ٣٦٠٠ شجرة فقد قدمتها شركة ترينو الفرنسية هذه الأشجار كلها نقلت من فرنسا ..

وعلى مدخل كل خيمة يوجد على الأقل : عشرة من السفرجية فى انتظار أية اشارة .. ومن المفروض أن يقيم فى هذه الخيام : الملوك والرؤساء والأمراء ورؤساء الوزارات ومندوبو الملوك والرؤساء .

وقد ظلت مدينة باريس تعمل أكثر من تسنة ونصف سنة ومعها ٤٢ دارا للأزياء والأناقة والديكور والبلاستيك والأعمال الكهربائية .. كما أن شركة بورتو التى صممت المفارش والمراتب والمخدات قد أعادت هذا التصميم مرتين . وهى نفس الشركة التى اعتمدت عليها جاكلين أوناسيس (كنيدى سابقا) فى تغيير معالم البيت الأبيض .

أما هذه الخيام التى أعدت للضيوف الكبار (٥٩ خيمة) فقد روعى فى تسكينها تطبيق ما ورد فى اتفاقية فيينا سنة ١٨١٥ الخاصة بالبروتوكول .. ولذلك غضب بعض الرؤساء بل أن بعضهم لم يشأ أن يحضر منعا لهذا الحرج .. فرئيس جمهورية فرنسا بعث برئيس وزرائه شابان دلماس الذى جاء هو وعروسه ـ وإن كان رئيس جمهورية فرنسا ليس فى حاجة إلى حضور الاحتفال فقد سبقته إلى إيران فرنسا كلها .

وامبراطور اليابان بعث بأخيه .. وتطبيقا للبروتوكول وجد مندوب البابا الكاردينال فون فورستنبرج نفسه فى أحد الفنادق لأنه لا يرقى إلى مستوى مندوبى الملوك والرؤساء .. ولما غضب . أسكنوه إحدى الخيام فقال : أما أنا فأنسى ، ولكن الفاتيكان لن ينسى ذلك .

أما رئيس مجلس النواب الألمانى فون هاسل فقد أنزلوه جناحا فى فندق كوروش ، وغضب وسحبوا خيمته وأعطوها للأميرة بلقيس أميرة أفغانستان ..

وكذلك تضايق بعض الملوك والرؤساء من أن نائب رئيس جمهورية الولايات المتحدة قد انتقل من شيراز إلى مدينة الخيام فى طائرة هليكوبتر بينما انتقلوا هم جميعا فى سيارات مرسيدس مكيفة أو فى الأتوبيسات .

وفى الترتيب يجئ ملك لينوسوتو قبل الرئيس بودجورنى رئيس الاتحاد السوفيتى . ولكن الامبراطور حريص على حرفية البروتوكول ولا يقبل فيه أى تغيير أو تعديل .. ويبدو أن الملوك والرؤساء ينسون ذلك أو يحبون أن ينسوا ذلك ..

وكان من الصعب إرضاء هذا العدد الهائل من ممثلى ٦٩ دوله : إمبراطور و٩ ملوك و٥ ملكات و١٣ أميرا و ٨ أميرات ، و١٦ رئيس دولة و٣ رؤساء وزارة و ٤ نواب رئيس جمهورية ووزيران للخارجية واثنان من من حكام العموم واثنان من السلاطين و ٩ من أمراء الخليج ..

والعالم كله كان يتوقع أن نرى الأمبراطورة فرح وقد ارتديت أشيك ما قدمته دور الأزياء العالمية .. وأن تضع كل مجوهرات التاج على رأسها ..

ولكن المفاجأة : أن الأمبراطورة فرح قد اختارت مدام ذو الفقار خياطة خاصة لها ..واختارت كل الأقمشة المشغولة باليد من جميع المقاطعات الإيرانية .. كل الأقمشة وكل التفصيلات وكل الشغل .. بينما كانت الأميرات الإيرانيات حريصات على أن يظهرن بفساتين من صنع ديور ولانفان .. ويحرصن على أن يظهرن علامتى ديور ولانفان فى رقة الفستان .. أميرة واحدة هى التى وضعت علامة ديور على شكل حرف « د » على جانب من الكم الأيسر ..

أما الأحذية والشنط التى حملتها الإمبراطورة فرح فقد كانت كلها من فرنسا .. والولاعة الذهبية المرصعة بالماس فرنسية أيضا .. وهى هدية لها فى عيد ميلادها السابق . والشئ الذى تخجل منه الامبراطورة فرح حقا — وهذه الكلمة من عندها وبالفرنسية — فهى انها ترأس جمعيات مكافحة السرطان والتدخين ومع ذلك فهى تدخن كثيرا وسرا .

وقبل أن يسألها أحد عن سر هذا الإسراف يكون جوابها : أن تكون الإنسانة ملكة ليس متعة طول الوقت .. ان متعتى الحقيقية كانت مرة واحدة ولا يمكن أن توصف أو تنسى يوم أنجبت ولى العهد . وأنا منذ ذلك الوقت أعيش فى ظل هذه التجربة الشخصية والقومية أيضا ..

وقد صبغت الأمبراطورة فرح شعرها باللون الأصفر الميال إلى الأحمر .. فقد كان شعرها أسود تماما . أما سبب ذلك فهى ترى أن الشعر الأسود يجعل ملامحها أكثر بروزا ، خصوصا بعد أن نقص وزنها جدا . أما اللون الأحمر فجعل ملامحها أقل قسوة .. وهى لا تنصح أحدا بأن يكون نحيفا جدا إلا إذا كان ملكا أو ملكة .. لماذا ؟ لم تقل .

وهى شديدة الاعتزاز بقوميتها وأناقتها القومية أيضا . ولذلك دعت إلى مائدتها الكبرى يوم عيد ميلادها كل الفنانين المسئولين عن أناقتها .. أى الذين صمموا فساتينها التى ارتدتها فى مهرجان برسبوليس (٢٢ فستانا)

وقد أهدت الامبرطورة بعض التصميمات الإيرانية للأميرات ..

ولابد أن كل الضيوف قد قدموا الهدايا للأمبراطور والأمبراطورة بمناسبة هذا المهرجان الفريد فى التاريخ ..

أما السيد حسين الشافعى فقد أهدى الامبراطور تمثالا للإله أوزوريس .. وهو تمثال نادر . وأهدى الامبراطورة عقدا من حجر الأميتيست يتوسطه الطفل حوروس وقد وضع إصبعه فى فمه ..

أما الرئيس الهندى فقد أهدى ولى العهد مفتاحا من الذهب لقطار كبير يتسع لخمسين طفلا . القطار مكتوب عليه : إيران – الهند وبالعكس ..

وقد تلقى الملوك والرؤساء هدايا من السجاجيد الشهيرة باسم « نايين » وهى من الصوف والحرير . أكثرها حرير .. وهى أغلى وأجمل أنواع السجاجيد ..

وكانت الحكومة الإيرانية قد طلبت إلى الملوك والرؤساء أن يبعثوا بصورهم . بعضهم أرسل . وقد صنعت إيران لوحات من السجاجيد عليها هذه الصورة . معظم هذه اللوحات صنعت فى شيراز .. وقد وجد رئيس وزراء فرنسا شابان دلماس فى خيمته صورة للرئيس ديجول من السجاد .. مصر لم تبعث بصورة ..

ولكن السيد حسين الشافعى قد تلقى سجادة نايين من رئيس الوزراء .. وهناك هدايا أخرى حملها الضيوف الكبار معهم من بينها : رباعيات الخيام وكتاب « شاهنامه » أى كتاب الملوك للشاعر الإيرانى الفردوسى .. ونموذج من الفخار لاسطوانة كوروش .. وكتاب « أرض الملوك » المطبوع طبعا أنيقا جدا عن الحياة فى إيران القديمة وعلى الرغم من أن يوم الاحتفال والليلة الكبيرة وبرنامج « الصوت والضوء » ومدة الإقامة فى مدينة الخيام كانت معروفة قبل ذلك بشهور ، فإن الملوك والرؤساء . لم يحضروا فى الوقت المحدد . بعضهم جاء قبل الموعد بأيام .. وبعضهم ظل عبئا على أجهزة الأمن بعد المهرجان بأيام ..

وقد فتحت عدسات الكاميرات التليفزيونية الملونة والسينما عيونها الباردة الدقيقة على خيمة الحفلات فى الليلة الأولى لأكبر مهرجان وعيد ميلاد عرفها الإنسان فى كل العصور فى هده الليلة التى ٥٠٠ شخص ضيوف الامبراطور والامبراطورة حول مائدة واحدة كبيرة و ٢٦ مائدة ليحتفلوا بأكبر عيد ميلاد ..

عيد ميلاد كوروش (٢٥٠٠ سنة) عيد ميلاد الامبراطور (٥٢ سنة).. عيد ميلاد الامبراطورة (٣٣ سنة) وقد وضعت أمامهم تورتة وزنها ٣٣ كيلوجراما .. وعيد ميلاد ولى العهد (١٠ سنوات) وعيد ميلاد مدينة طهران (٢٠٠ سنة) .

ولم ير أحد من الملوك والرؤساء والنواب شيئا كهذا لا فى الماضى .. ولا فى الحاضر .. ولا الموسيقى .. ولا الأزياء .. ولا الأسماء العالمية فى الأناقة والسياسة والبترول والصناعة .. ولا حدثث مثل هذه النوادر الطريفة والسخيفة .

انها ليلة فى عمر كل واحد منهم . ليلة بألف ليلة .

الليلة الكبيرة
في
الخيمة الكبيرة

(٣)

أكثر المدعوين فى استطاعتهم أن يأكلوا الكافيار الذهبى . . وأن يذبحوا الطاووس . . وأن يجعلوا الخمر تسيل أنهارا . . ولكن أحدا لا يستطيع أن يفعل ذلك بهذا الجمال والأناقة والجرأة .

لاأحد يستطيع أن يدخل التاريخ على أنه صاحب أعظم وأغلى وأشيك مائدة تحت أفخم خيمة وبملايين الجنيهات ، وعلى مشهد من مئات الملايين من الناس فى كل مكان ، لا يفكرون إلا فى شئ واحد هو متى وأين يجئ الموت بالأشعة الذرية .

الشمس طلعت مبكرة على مدينة الخيام . .

فالمنطقة صحراوية . . والسماء صافية . . بينما فى أماكن أخرى من العالم باردة كثيفة السحب . بعض الملوك أحس أنه فى كوكب آخر . الكاميرات ظهرت على أكتاف الكثيرين يحاولون أن ينتهزوا الفرصة ويصوروا العالم الجديد . . وكانت الإمبراطورة تؤكد لهم أن كل شئ سوف يبقى فى مكانه على الأقل إلى نهاية أيام المهرجان : الشمس والرمال والآثار . .

أمر الملك أن يتناول طعام إفطاره أمام الخيمة . . وبسرعة جاءت مناضد جميلة عليها مفارش وردية . . ومقاعد لبنية اللون ونصب كل شئ أمام باب الخيمة . . وجاء العيش المحمر الساخن والزبد والمربى والشاى وضحك وهو يقول للجرسون الفرنسى : لم تصل صحف الصباح بعد .

وكأن الجرسون كان يتوقع هذه النكتة فقدم له راديو يابانيا ضخما ليستمع إلى آخر نشرات الأنباء من إذاعة لندن . .

ولابد أن الملك أحس أن هذه النكتة ليست فى محلها . . فكلاهما ، هو والجرسون أجنبيان فعاد يقول .. بل متعة عظيمة ألا يقرأ الإنسان الصحف وألا يرى الصحفيين .

وكان الصمت إتفاقا على هذا المعنى .

أما زوجة الرئيس سنجور فكانت أول سيدة تذهب إلى صالون التجميل فى صباح يوم المهرجان . . أما صالون التجميل فيشرف عليه الحلاق الفرنسى المشهور الكسندر والأختان الأسبانيتان روز ومارى كاريتا وهناك عدد كبير من الحلاقين . . تسعة من الرجال وأربع من الفتيات .

وعندما دخلت حرم الرئيس سنجور تقدم منها الكسندر . . وانحنى وجاءت فتاة وجلست معها . . وأشار إلى جانب من الصالون وجلست حرم الرئيس سنجور . . ودار الكلام عن الجو . . وبعد الجو عن الشعر الطويل وذلك العصر الذهبى الذى لم يظهر فيه الحلاق . . وكانت زوجة الرئيس سنجور رقيقة فقالت : بل العصر الذهبى هو الذى ظهر فيه الحلاق . . فهو صانع الجمال . . وقالت إنه الرجل الذى يصنع الجمال للرجل أيضا .

وطال الحديث ولم تشأ أن تسأل أحدا إن كان فى الإمكان أن تسوى شعرها وتصنع حماما من الزيت وأن تغير فورمته . .

وانحنت الرؤوس كلها . . وجلست على المقعد ولكن الكلام مايزال دائرا . . ومنعها حياؤها أن تستعجلهم ولكن الذى لم تكن تعرفه ، ولم يشأ أحد أن يقول لها ذلك هو أن كل أدوات التجميل لم تصل بعد من باريس (٤٠٠ كيلوجرام) للحلاق الكسندر ومثلها للأختين كاريتا.. ولكن أثناء جلوس حرم الرئيس سنجور جاءت كل هذه الأدوات.من باريس . . وبسرعة بدأت عمليات فك الصناديق وإخراج السشوارات وزجاجات العطور والكريمات . . ولم تشعر هى بذلك .

ثم جاءت الإمبراطورة فرح إلى صالون كاريتا ومعها ابنتها ليلى ، وجلست الأميرة الصغيرة : ملامحها إيرانية تماما ووجهها أبيض وعيناها شديدتا السواد والبياض . . وبسرعة جلست الأميرة الصغيرة على المقعد وطلبت إليها أمها أن تقول صباح الخير لكل الموجودين .. وقالت . . ثم طلبت إليها امها أن تستأذن إن كان فى إمكانها أن تجلس بعد أن جلست . . قالت وتقدمت مارى كاريتا . . وسألت ما الذى تريده أن تفعله لشعرها . . وطلبت الأميرة الصغيرة أن يكون شعرها مثل شعر ماما وضحك الجميع . .

وخرجت الأميرة بعد ربع ساعة ونسيت أن تشكر مارى كاريتا . . فعادت بها أمها مرة أخرى لتشكر كاريتا . . وفعلت . .

وظهر فجأة كلب الإمبراطور هيلاسلاسى يلعب بين الخيام . . وكانت تداعبه زوجة الرئيس الهندى جيرى ويبدو أنها تحب الكلاب وانتهز الأمراء الأوروبيون هذه الفرصة ليلتقطوا صورا للكلب وهو يمشى أمام الإمبراطور . .

وفى هذه الأثناء دخلت عربية صغيرة كهربية تحمل علبة من البلاستيك وفى داخلها زهرة غريبة الشكل والحجم . . والتفت العيون حولها . . ولم يكن من السهل على أحد من رجال الحرس الإمبراطورى أن يشرح لهذه العيون المتطلعة معنى هذا الإهتمام الشديد بالزهرة . .

أما الزهرة فقد جاءت من سيلان فقد اكتشف علماء الزهور فى سيلان نوعا جديدا من الأبصال أطلقوا عليه أسم « تيوليب فرح » تيمنا باسم الإمبراطورة . . وفى عيد ميلادها . فأول أيام المهرجان يصادف عيد ميلاد الإمبراطورة الثالث والثلاثين .

وسيارة أخرى تجئ بسرعة . . وتدخل فى هدوء . . ينزل ضابط من الحرس الوطنى ومعه مظروف كبير . يسأل عن خيمة الأمير فيليب زوج

ملكة بريطانيا وابنة الأمير آن لقد حمل إليها صورا لبعض خيول ملك إيران . وقد اختارت الأميرة واحدا من هذه الخيول . . واتوا لها بصور هذا الحصان الذى ركبته وبعثت لأمها ملكة إنجلترا بصورة لها وهى على ظهر الحصان وتحتها هذه العبارة « العاصفة فوق النار » . .

أما النار فهو اسم الحصان . .

وأما العاصفة فهذا هو الاسم الذى اختارته لنفسها . .

وخارج مدينة الخيام جلس الصحفيون بكاميراتهم الكبيرة الطويلة . . بعضهم ارتقى أعمدة مدينة برسبوليس من الصباح الباكر ليلتقط صورا لأغرب مجموعة بشرية . . ملوك ورؤساء فى مكان واحد . . ومن جميع أطراف الأرض . . إن أحدا لا يعرف ما الذى يفعله هؤلاء الناس فى صباح كل يوم . . ماذا يلبسون ؟ ماذا يأكلون ؟ ماذا يشربون ؟ . . أى نوع من الحياة فى هذه الخيام التى كأنها بقيت فوق سطح القمر . . كل شئ مأمون . . حتى لو سقط زرار من جاكتة جرسون يظهر على الأرض باهرا . . إن الإمبراطور حريص على ألا يضيع شئ . .

ظهرت فابيولا . . وطاردتها عدسات المصورين . . وبعد لحظات عادت إلى خيمتها لتغير ملابسها ولكن لم يكتشف أحد ما الذى دعاها إلى ذلك . . راح الصحفيون ينادون زميلاتهم الصحفيات ويسألونهن إن كن قد لاحظن شيئا خطأ فى ملابسها . . لا شئ . .

وظهر رئيس الوزراء وعروسه . . إنها لا تضع المساحيق على وجهها . . ولم تشأ أن ترفع حاجبيها فحاجباها غليظان كأنها إيرانية وبشرتها ناعمة مشدودة . . وبسرعة التف حولها الصحفيون الفرنسيون والتليفزيون الفرنسى . الصحافة الفرنسية مفضلة على غيرها من الصحف العالمية . . وقد غضبت كل الصحف العالمية.. بعض الصحف الأمريكية قاطعت المهرجان لعنته قبل

تراه وبعد أن رأته ، بعض الصحف الأمريكية قالت إن رئيس وزراء فرنسا كان مكشرا عندما رأى صحفيا أمريكيا ولكنه عند ما سمعه يتكلم الفرنسية بطلاقة رحب به مع أنه كان أمريكيا إذا كانت هذه نكتة فهى سخيفة .

أما الملك بودوان فقد ذهب فى ساعة مبكرة للفرجة على الآثار المجاورة . ووراءه أميران إيطاليان عروسان .. لا أحد يعرفهما ولذلك كان الصحفيون يسألون من هما ؟ فيقال لهما أميران من إيطاليا .

ويتساءل الصحفيون من إيطاليا . . ياه . . وهل ما يزال فى إيطاليا أمراء .

فيقال : فى كل مكان أمراء .

ولا يجد واحد من الصحفيين سببا معقولا لكتابة إسمى الأميرين ..

ثم يتغامزون على الصحفيين الألمان ويقولون لهم

هذان قد أخذا خيمة رئيس مجلس النواب الألمانى .

وفى برودة الصباح تتقلص هذه النكتة وتتجه العيون إلى خيام أخرى ..

ومن الأبواب المفتوحة للخيام تظهر ألوانها الداخلية ..

فخيمة مستر اجينو نائب رئيس الولايات المتحدة يغلب عليها اللون الأزرق ..

وخيمة رئيس وزراء فرنسا شابان دلماس يغلب عليها اللون الرمادى ..

وخيمة الرئيس بودجورنى يغلب عليها اللون الأخضر .

أما الملك ليسوتو واسمه موشوشو الثانى فقد كان يلقى اهتماما خاصا من الصحفيين فهو ملك قد قفز من المجهول لم يسمع عنه أحد شيئا خارج أفريقيا . فقط ذهب لزيارة البابا بيوس السادس فعرف العالم أنه كاثوليكى .. وعندما ذهبت إحدى قريباته لتشترى بعض القبعات من شارع فنيتو بروما لم تجد معها مبلغا كافيا من المال .. ولو حدث ذلك فى لندن ، لوجدت الفتاة

معاملة رقيقة جدا من البائع الإنجليزى .. ولكن فى روما يختلف الموقف تماما.. فقد اعتاد الإيطاليون على مثل هذه الحيل .. ولكن سائق سيارتها تدخل وفى يده بطاقة وزارة الخارجية الإيطالية .. ويقول إنها أميرة من إحدى الأسر المالكة الأفريقية .

فقط هنا عرف البوليس والصحف شيئا عن الملك موشوشو الثانى ..

وفى صباح يوم المهرجان طلب الملك موشوشو لبن البقر .. وأتوا له بلبن ساخن كما طلب .. ولكنه قبل أن يقربه من فمه .. قال لا .. هذا لبن ماعز .. ولم يفهم الجرسون الفرنسى فهو لا يفرق بين هذا وذاك .. وجاء جرسون آخر يستوضح الأمر فقال له الملك موشوشو الثانى هذا لبن ماعز .. أنا متأكد من ذلك . . أريد لبن بقر .. إذا لم يوجد فإننى أفضل لبن الأغنام وإلا فهات قطعة من اللحم المشوى الساخن .

وكان شى اللحم أسهل .. رغم أنه أول طلب من نوعه فى الصباح .. لأنه مع اللحم لابد أن تجئ البطاطس والجزر والفاصوليا وأن تتغير معالم المائدة التى أمام الملك .. وأن تتغير الأطباق والملاعق والشوك والسكاكين .. وكان من الضرورى أن يحدث أى شىء وبسرعة وبعد أن تناول الملك طعام إفطاره دخل ليستريح فى فراشه ولم يره أحد إلا على مائدة العشاء .

وأما الأميرة جريس كيللى (أميرة موناكو) فقد كانت هدفا للعيون والكاميرات . . وهى تعلم ذلك فكل حركاتها محسوبة .. وملابسها تصلح للتصوير فى أى وقت .. خرجت مشرقة فى الصباح .. وعندما سمعت صرخات الصحفيين وقفت لتحييهم .. واختارت (الوضع الجميل) أى الذى يناسب المصورين .. وفى الصباح كانت ملابسها زاهية ولكنها ليست لامعة .. فقد جعلت اللمعان فى ابتسامتها وعينيها وكان وراءها الأمير رينيه زوجها .. وسألوها : ماذا أكلت فى الصباح ؟ فقالت : لا آكل .. أشرب فقط .

قالوا : ماذا شربت ؟

قالت : عصير الأناناس .. انى لا أفعل ذلك عادة انها أجازة

فما الذى تفعلينه عادة ؟

وهنا صرخ الأمير رينيه قائلا : أوه .. أنتم لا تعرفون ..

وكأنها تعرف هذه النكتة القديمة ولكن فى نفس الوقت لا تستنكرها .. وعاد يقول : الكثير من الألعاب الرياضية .. واليوجا العنيفة جدا ..

وهنا صرخ الجميع .. أوه ..

أى أنهم عرفوا سر هذا الجمال وهذه الحيوية .. انها الرياضة العنيفة ..

وتقدم منها صحفى هندى ليقول لها .. ولكن هذه الروح الحلوة لايمكن أن تكون من الرياضة العنيفة انها من الروح الحلوة .

وقالت جريس كيللى .. هذه أجمل تحية تلقيتها هذا الصباح ..

وأحس الصحفى الهندى بخيبة أمل فقد كان يتوقع منها أن تقول له مثلا هذه أجمل تحية تلقيتها فى حياتى .

ولهذا الرد الدبلوماسى استحقت من زوجها أن يقبلها .

وقالت جريس كيللى تعلق على هذه القبلة وهذه التحية أيضا ..

وظهرت زوجة رئيس الفليبين وابنتها والكل يتساءل أيهما أجمل.. زوجة رئيس الفليبين أو جريس كيللى .. أكثرهم يقولون زوجة رئيس الفليبين فملامحها رقيقة وبشرتها ناعمة ولونها أسمر خمرى .. أو فى لون قهوة خلطوها باللبن والنبيذ معا .. وابتسامتها حلوة .. أو ابتسامتها دائمة .. وهى تبدو أصغر وأجمل من إبنتها .. بعض الخبثاء يقولون أنها أتت بابنتها التى هى صورة من أبيها . . وبذلك تكون هى وزوجها موجودين فى وقت واحد .

وكان ملوك أوروبا مفتونين بسيدة الفليبين وكانوا يتحدثون إليها بالإنجليزية والأسبانية وكانت تعلم علم اليقين أنها جميلة .. وقد اختارت أشياء كثيرة بعناية تامة . أما شعرها الأسود الكثيف والورود التى تضعها فى الشعر إلى الجانب الأيسر.. فهى تذكر الأوروبيين بالأفلام التى ظهرت فيها بنات هاواى وبنات المحيط الهـادى .. أما فساتينها فهى كلها ذات طابع فلبينى .. الأكمام قصيرة مرفوعة منشاة تماما والألوان بهيجة وفى غاية الرقة ..

وكان من الطبيعى أن تسألها إحدى الصحفيات : هل تتبعين رجيما خاصا فى الأكل .

قالت : أبدا

سألتها : رأيت لك صورا قديمة كان جسمك فيها أكثر امتلاء

قالت : هذا صحيح وأنا أحب أن أكون أقل وزنا . . ولكن زوجى يفضل أن أكون أكثر وزنا مع أن هذا يؤدى إلى إتلاف كل فساتينى .. ولكنى انتصرت فى النهاية ..

– هل لك رياضات مفضلة فى الصباح ؟

فأجابت : بعض الرياضة الخاصة بشد الوسط والساقين .. ولكن هذه الألعاب لا تستغرق أكثر من عشر دقائق كل يوم ..

– ولكن أليس لك نظام خاص فى الإفطار ..

قالت : أنا أشرب عصير الأناناس مضافا إليه ملعقة من عسل النحل .. وكوب واحد صغير يشبعنى تماما.. وأنا لا أتناول أى عشاء ومنذ وقت قصير ..

قيل لهـا ما هو عطرك المفضل ..

قالت : ليس لى عطر مفضل .. ان زوجى هو الذى يختار عطوره المفضلة .

أما الأميرة منى زوجة الملك حسين فقد تركت شعرها الطويل على كتفيها وراحت تتمشى بين الخيام .. ثم لحقها الملك حسين .

أحمر الوجه وفى غاية الحيوية .. عندما صرخ الصحفيون وقف يحييهم . ويطلب إلى زوجته أن تفعل ذلك أيضا .. وعندما خرج الملك حسين هو وزوجته سئل .. هل فى نيتك أن تلتقى بكبار المسئولين هنا .. فأجاب إذا سمحت الظروف .. سئل هل لديك مشروع معين ؟ قال إننى مشغول بأشياء كثيرة أنتم تعرفونها .

– وهل عندك حل سريع ..

وضحك ليقول : الله أعلم ..

وكان ذلك اعتذارا عن الدخول فى أية مناقشة عابرة لقضايا شديدة التعقيد .. واتجه مع زوجته إلى الآثار القديمة لمدينة برسبوليس على مدى أمتار من مدينة الخيام .

أما قبل الظهيرة فكان على الملوك والرؤساء أن يتجهوا جميعا إلى قبر الملك كوروش فى مدينة قديمة اسمها بارسارجاد .. وهو اسم إحدى القبائل التى سكنت هذه المنطقة ..

المسافة بينها وبين برسبوليس تزيد على الستين كيلو مترا .. الطريق مرصوف والأرض قاحلة .. وكل شئ صحراوى .. وفى هذا الجو الصحراوى يلسعك الهواء البارد ، وأشعة الشمس الملتهبة .. الإثنان معا فى وقت واحد .. ولأول مرة فى حياتى أرى الزوبعة أو الإعصار .. هذا العمود الحلزونى الطويل جدا من التراب فالهواء ينزل من جبلين ويصطدم التياران ويدوران معا فى وقت واحد .. ثم يتحركان على شكل عمود من الهواء .. وتشاء الصدفة أن يمر هذا الإعصار بالسيارة .. لقد هزها بعنف .. وعرفت انه يقتل الإنسان والحيوان أيضا فى بعض الأحيان يستغرق هذا الإعصار بعض الوقت .. ويكون هذا الوقت القليل كافيا للقضاء على أى إنسان أو حيوان .

وفى مدينة بسارجاد مسحت الأرض وسويت .. ليطل قبر كوروش عاليا بارزا.. حول القبر أقيمت منصة كبيرة للملوك والرؤساء وأمام القبر امتد شريط أحمر ملكى وعلى هذا الشريط تقدم امبراطور وأمبراطورة وولى عهد إيران . وراح الامبراطور يعاهد كوروش قائلا : يا كوروش العظيم فى استطاعتك أن تنام ، أنت يامالك الملوك نَم هانئا : أما أنا ملك الملوك فقد أعلنت اليقظة .. نم فى حمايتى وحماية شعبى ..

وليس سرا أن أقول أنه لا يوجد أى أثر لكوروش هذا .. لا فى قبره ولا تحت القبر .. فقد كانت العادة فى ذلك الوقت أن يدفن الملك فوق القبر ..

وكثير من الملوك والأمراء صعدوا الدرجات العالية لقبر كوروش .. ثم تسللوا إلى باب المقبرة من الداخل فهى مفتوحة .. ووجدوا النقوش فى داخل المقبرة بلغات مختلفة .. أنا شخصيا قرأت هذه العبارة : كل من عليها فان .. صدق الله العظيم .. والإمضاء أحمد عبد الكريم العزى سنة ١٩١٤ م

وكلمات بلغات مختلفة واضحة وغير واضحة ..

ووضع امبراطور إيران إكليلا من الزهور عند قبر الملك كوروش ..

وكانت هذه الزيارة لقبر صاحب هذا المولد . البداية الرسمية للأيام التاريخية التى لم يشهد لها أحد نظيرا فى التاريخ القديم أو الحديث ..

ولم تتردد كثير من الصحف فى العالم كله أن تصف ليالى الامبراطور بليالى ألف ليلة وليلة .. مع ان « ألف ليلة » كانت شيئا ساذجا .. متواضعا جدا .. فبطلة ألف ليلة اسمها شهرزاد .. وزوجها اسمه شهريار وأخوه اسمه شاه زمان .. وهذه جميعا أسماء فارسية .. وعلى الرغم من هذه الأسماء الفارسية.. فإن ليالى ألف ليلة لم تجر إلا فى بغداد وفى القاهرة .. ولم يكن هناك ليلة واحدة فى إيران .. وإن كانت مادة هذه الحكايات قد أخذت من إيران والهند وحلات الخليج والمحيط الهادى .

وفى ألف ليلة تجد هذه الأبيات وصفا لفتاة جميلة خرجت من صندوق فى يد عفريت ..

أشرقت فى الدجى فلاح النهار
واستنارت بنورها الأسحار
من سناها الشموس سرى لما
تنبرى وتتجلى الأقمار
تسجد الكائنات بين يديها
حين تبدو تهتك الأستار
وإذا أومضت يروق حماها
هطلت بالمدامع الأمطار

إذا كان هذا المعنى يعجبك ، فاضربه فى ألف .. فى مليون وأنت تجد أمامك صورة باهرة للخيمة الكبيرة التى يقيم فيها الامبراطور ليلته الكبرى للملوك والرؤساء فى العالم .. ولكن عيب ليالى ألف ليلة فى النهاية أنها خلت من ذوق عشرات المؤسسات الدولية التى تخصصت فى الأناقة والجمال والديكور والعطور .. وإذا تضايقت من هذه العملية الحسابية ، لأن هذه قد أفسدت عليك متعة النظر والاستمتاع فعليك أن تذكر بيتين آخرين فى الليلة الأولى من (ألف ليلة) .

قل لمن يحمل هما
ان هما لا يدوم
مثل ما يغنى السرور
هكذا تفنى الهموم

ولا تنس فى أنك فى بلد عمر الخيام .. وأن شاه إيران قد أعلن أكثر من مرة أنه لا يستطيع أن يقدم العيش والمش للملوك والرؤساء ..

وأن رئيس وزراء إيران قال: نعلم كل ما يقال هنا.. ولكن إيران حريصة على أن تبدو كفتاة جميلة تستعد للقاء حبيب . فهى تريده أن يحتفظ لها بذكرى جميلة غالية .

ولكن لاشئ يدل على ماسوف .. يحدث فى الليلة الكبيرة تحت الخيمة الكبيرة .. فكل واحدة من السيدات قد ارتدت فقط أبسط فساتينها .. أما المفاجأة فسوف تكون على مائدة العشاء .. وهذه المباريات فى الأناقة لا يدخل فيها الرجال عادة .. وربما لا يلاحظونها .. ولكنها تنتهى عادة بأن يقول كل واحد لزوجته .. ان فستانها أبسط وأشيك .. أو إذا أراد أن يكون دبلوماسيا فأسلم كلام هو أن يقول : ياللهول لقد كانت الامبراطورة فرح ديبا رائعة .. كل فساتينها .

وهنا تدور المناقشة بينه وبين زوجته ولكن أى فساتينها أعجبك أكثر ..

وهنا يتلخبط الزوج لأنه لم يلاحظ جيدا كل فساتين الإمبراطورة .. ولا أخذ باله من الطول والعرض وفتحة العنق . والأكتاف والكسرات .. ولا الذيل . . ولاشئ بالمرة . . ويكون جوابه فستانها الذى ظهرت به اليوم .. فهذا الفستان أقرب إلى ذاكرته

ويكون رد الزوجة ولكنى ارتديت فستانا له نفس اللون منذ أسبوع لم يبد عليك اهتمام به ..

وهذا مطب يقع فيه أى زوج ..

ولكن الإمبراطورة كانت أكثر الناس أناقة وشياكة .. وكانت فساتينها كلها من تصميم سيدة إيرانية وكل الأقمشة جاءت من جميع مقاطعات إيران والشغل الموجود فى الفساتين بأيد إيرانية أيضا .. وإن كانت أميرات الأسرة المالكة قد ارتدين فساتين من باريس ..

ومنذ الرابعة بعد الظهر لم يظهر أحد من الملوك أو الرؤساء .. لقد قبعوا

فى خيامهم .. ولكن الامبراطور هيلاسلاسى لا يزال هو الذى يلف ويدور.. ولعل عادة المشى الطويل هى التى أبقت على رشاقته وعلى صحته الجيدة .. وكذلك بعض أمراء الخليج.. فهم يخرجون اثنين اثنين ولم يظهر واحد منهم على انفراد .

وكلما أقبل الليل ازدادت الأنوار وبرقت ولمعت وبهرت فى كل مكان..

وعند موعد العشـاء اتجه الملوك ومعهم ضعف عددهم من ضيوف الامبراطور والامبرطورة من إيران ومن جميع أنحـاء العالم إلى خيمة الامبراطور والامبراطورة .. والإنحناء ضرورى والتراجع إلى الوراء قليلا ثم السير إلى اليسار وبعد ذلك دخول الخيمة .. وكانت الأميرة جريس كيللى حريصة على أن تركع على ركبتها تحية للامبراطور والامبراطورة .. أما الامبراطور هيلاسلاسى فقد أحنى رأسه بشدة للمضيفين وتوالت الإنحناءات .. أما أمراء الخليج فقد سلموا مع الاحترام وبلا ركوع فالركوع لله وحده . .

وتوالى الملوك والرؤساء والأمراء والسلاطين والشيوخ ونواب الرؤساء والوزراء وكبار المستشرقين والأطباء والفنانين ..

وظهرت بوضوح ملابس الملوك والرؤساء كلهم يرتدى الملابس الرسمية والعسكرية والمدنية .. وتعلقت الميداليات على الصدور أما السيدات فقد ارتدين آخر ما عندهن ..

الامبراطورة ارتدت التاج طبعا الذى اشتركت فى تصميم ألوانه وأحجاره .. وكان فستانها طويلا من البروكار الذهبى المشغول بالبرودرى الأزرق .. وكانت فخورة بهذا الفستان .. وكانت ترد على أسئلة السيدات قائلة .. مصنوع فى إيران من أوله لآخره .. لم تعد بأن تقدم للسيدات خياطتها المعروفه مدام ذو الفقار ..

والأميرة جريس كيللى كانت ترتدى فستانا من اللاميه الأخضر .. أما

تسريحتها المشهورة فكان واضحا أنها مكونة من عدة قصات معا .. ولم تشأ أن تذهب إلى صالون التجميل فقد أتت معها بكل أدوات التجميل وتسريح الشعر وتجفيفه ..

أما عروس رئيس وزراء فرنسا فقد ارتدت فستانا من صنع لانفان .. والفستان اسمه جالا .. وواضح جدا ماركة لانفال عند رقبتها

فهذه هى الموضة الجديدة أن يظهر اسم المحل الذى صمم الفستان نفسه فهو من الساتان فى لون الخوخ ومقفل من الظهر بأربعة زراير من نفس لون القماش ..

أما الأميرة إبنة ملكة بريطانيا فقد لفتت العيون أيضا بأناقتها وبساطتها وبريق عينيها .. وقد ارتدت فستانا طويل الأكمام ولما سئلت من الذى فعل لك الفستان أجابت طبعا فى لندن ..

الفستان له أكمام شرقية تشبه أكمام القفاطين المراكشية .. وهو مشغول أيضا ..

وكانت زوجة رئيس الفليبين قد ارتدت فستانا أبيض ورديا .. والفستان مشغول باللؤلؤ . . وقد وضعت عددا من حبات اللؤلؤ الملون عند الصدر وعلى الأكمام .. وكان السؤال هل هو لؤلؤ أو خرز .. وكان جوابها أنه من اللؤلؤ الطبيعى الكبير الحجم .أى اللؤلؤ النادر جدا .. أما ابنتها فقد ارتدت فستانا من الستان الأبيض البنى ووضعت وردة على صدرها.. أما الأم فقد وضعت الوردة فى شعرها ..

وبعد ذلك نودى على الملوك والرؤساء بالاسم .. ليدخلوا اثنين اثنين ..

فنودى على الامبراطورة فرح والامبراطور هيلاسلاسى — سيدة طويلة ورجل قصير . . ثم نودى على الملكة فابيولا والملك حسين سيدة طويلة ورجل أقصر منها ..

وتوالت الأسماء الواحدة بعد الواحد ..

ثم نودى على السيدة حرم السيد حسين الشافعى وأمير الكويت ..

ولم يكن عدد النساء معادلا لعدد الرجال .. ولذلك فقد جاءت بقية الأسماء رجالا مع رجال .. فالسيد حسين الشافعى نودى اسمه مع واحد من أمراء سيام .

أما الخيمة الكبيرة فطولها سبعون مترا وعرضها ثلاثون مترا .. وتعلق فيها الثريات الكهربية التى صنعتها شركة فيليبس والنور فيها يتغير ويقوى ويضعف ويتلون أيضا .. اللون الغالب على الخيمة من الداخل هو اللون الأزرق الملكى والذهبى أيضا .

المائدة الرئيسية طولها ستون مترا مصنوعة من خشب الموجنا .. وشكلها ثعبانى .. وبذلك يستطيع كل إنسان أن يحس أنه فى الصدارة وهناك ست وعشرون مائدة صغيرة جلس عليها ضيوف الامبراطور أيضا .. وهناك أشجار صغيرة فى جوانب الخيمة بعضها من أشجار الموز التى قطعت من أماكن قريبة .. ويبدو أنها قطعت منذ زمن طويل فبعض أوراقها قد ذبلت .. أما هذه الوردة فقد جاءت من هولندا وفى غاية النضارة .

أما هذه الروائح الفرنسية فى كل مكان فهى خليط هائل من العطور الفرنسية ..

الامبراطورة وضعت عطرا اسمه برسبوليس أعد خصيصا لها ..

جريس كيللى وضعت عطرا اسمه (انيفنى) أى اللامتناهى ..

الأميرة آن تضع كابوشار منذ خمس سنوات ولم تغيره ..

فابيولا وضعت عطر مارجريف .. وهو عطرها المفضل منذ عشر سنوات ..

عروس رئيس وزراء فرنسا قد وضعت عطرا مزيجا من الشنشيلا وعطر

ديورسيمو بنسبة واحـد إلى أربعة .. وهى تفضل الكولونيا على العطر .. لأن العطر يضايقها خصوصا انها لا تستخدم كل مواد التجميل.. وتفضل أن تتغذى بشرتها من داخلها لا من الكريمات .

اما أكثر الرجال فقد وضعوا التاباك الألمـانى وهذه ظاهرة غريبة ..

بل إن أمير ليختنشتين الألمـانى الأصل قد ذهب إلى صالون الكسندر وسأله إن كان لديه صابون للحلاقة ماركة تاباك .. وقد اعتذر إليه الكسندر الفرنسى . فلم يخطر على باله أن يطلب إليه أحد ذلك ..

ولـكن التعليمات صريحة بأن كل ما يطلبه أى ضيف يجب أن يعثروا عليه من تحت الأرض وانشقت الأرض وجاء صابون الحلاقة الألمـانى بعد دقائق .. وكان ذلك قبل مائدة العشاء بلحظات ..

وعندما جلس المـلوك والرؤساء إلى موائدهم بعضهم تضايق جدا من مكانه .. ولـكن هذا هو البروتوكول .. كان واضحا أن الاميرة آن تضايقت عندما جاء مقعدها إلى جوار الرئيس تنكو عبد الرحمن (ماليزيا)

وجلست زوجة رئيس وزراء فرنسا إلى جوار أمير البحرين .. ولمـا سئلت ما الذى كنت تتحدثين فيه مع الأمير .

قالت انه رجل ذكى وأنا انتهزتها فرصة لا تمرن على اللغة الانجليزية ..

وعلى مائدة اخرى جلس أحد الشيوخ مع الدكتور كارل فلنجر طبيب الامبراطور ودار الكلام حول : هل صحيح ما يقال عن فوائد الكافيار ؟ وضحك الدكتور فلنجر وقال : الذين جربوه يقولون ذلك .

وأنت الم تأكله ..

قط ..

ولمـاذا .. ؟

لمـاذا .. لأنه يصيبنى بالحساسية ..

ولمــاذا لا تعالج الحساسية وأنت طبيب عظيم ؟

ليس لهـا علاج إلا الامتناع عن الأطعمة التى تسببها ..

وكانت هذه المناقشة قد بدأت عندما دخل الجرسونات بملابسهم الأنيقة الفخمة يقدمون طبق الكافيار الذهبى مع بيض السمان .. الكميات كبيرة .. وقد تناول الضيوف بالهناء والشفاء – مائة كيلو جرام من الكافيار الذهبى .. بعضهم كان يتناوله مع كل الوجبات ..

وفى نفس الوقت كان يجئ جرسونات آخرون يقدمون النبيذ ..

النبيذ الذى قدم فى تلك الليلة اسمه إذا كان يهمك الأمر « شاتولا فيناوتشيلد» ١٩٥٤ ولونه وردى ذهبى ومعطر أقرب إلى نبيذ الموزل الألمـانى وهــو أقرب طعما إلى الشمبانيا الفرنسية أرجو أن أكون واضحا ودقيقا .

وإذا كان الأمر لا يزال يشغلك فثمن الزجاجة الواحدة مائة دولار .. أى حوال السبعين جنيها ..

وفى خيمة الطعام ٣٧ ألف زجاجة نبيذ من هذا النوع ..

وهناك ١٧ ألف زجاجة ويسكى من جميع الأصناف .. أغرب هــذه الأصناف نوع اسمه (من السماء) . وعشرة آلاف زجاجة فرنسى معتق .. جاء معظمه من مقاطعة بورجونيا فى فرنسا .. وبعض المـلوك جاءوا بها هدايا للامبراطور ..

والمفرش الموضوع على المـائدة الـكبير مصنوع ومشغول فى فرنسا .. ولم يحدث أن عرف التاريخ كله مفرشا واحدا طوله ثمانون مترا وعرضه ستة أمتار ..

والأطباق كلها من صنع ليموش .. وقد صنعت لهذه المناسبة التاريخية .. والنقوش على الأطباق تشير إلى هذا المعنى .. فعلى الأطباق اسطوانة كوروش

وحولها ٢٥ زهرة دلالة على مرور ٢٥ قرنا .. بعض الأطباق لهـا لون وردى ..

أما الأكواب فهى من كريستال باكارا .. العالمى وعلى قاعدة هـذه الأكواب إشارة إلى المناسبة التاريخية .

اما هؤلاء السفرجية فبعضهم ترك العمل فى معطم ماكسيم الشهير .. وترأس كل هؤلاء الجرسونات ورؤسائهم أيضا سيدة فرنسية من العائلة المـالـكة القديمة . .

وقد استهلكت هذه الليلة الكبيرة ٨٠٠ رطل من اللحوم ..

٨٠٠ رطل زبدة ..

ألف علبة قشدة ..

ولم تظهر عباءة واحدة من التى ادعت كثير من العواصم الشرقية والعربية انها قد صنعتها لأميرات الأسرة المـالـكة الإيرانية .. ولا عباءة صنعت فى بيروت أو فى مراكش .. ولابد أنها فرصة استغلتها بعض دور الأزياء للدعاية .

ولـكن الشئ الذى كان يتوقعه وينتظره الجميع فهو الطواويس التى اشترتها ايران من الهند .. الواحد ثمنه ستون جنيها .. وقد اشترت ايران ٩٢ واحدا واشترطت أن يكون صغير السن حتى لا يكون لحمه جافا ..

أما هذه الطواويس فقد أرسلت حية إلى باريس .. فقد اشترط ماكسيم أن يطبخها بعد ذبحها بلحظات والا يضعها فى الثلج مهما كانت الظروف .. ولذلك فهذه الطواويس قد ذبحت وسويت صباح هذا اليوم وحملتها الطائرات من باريس إلى طهران إلى مدينة الخيام فى نفس اليوم .. وكانت هذه هى الرحلة رقم ٢٠١ بين طهران وباريس ..

وجاءت الطواويس فى صناديق من البلاستيك .. كل طاووس ومعه حاشيته من الأرز ولحم الطيور الأخرى ..

وقدم الطاووس على سرفيس من الفضة الخالصة .. الطاووس محمر ومحشو من الداخل بالفواجرا والفستق والجوز وقد التصقت على الطاووس من الخارج ورقة بلاستيك لينة .. وعلى هذا الغطاء البلاستيك أعيد ريش الطاووس كله من أوله لأخره .. يبدو وكأنه ما يزال على قيد الحياة .. وقد أفلح مطعم ماكسيم فى أن يجعل الطواويس كأنها لم تمت ..

وعندما أمتدت أيدى كبار الجرسونات إلى الطاووس وداخله كانوا قد تدربوا على ذلك قبلها بيوم .. ولذلك أمكن اخلاء الطاووس تماما ومايزال البلاستيك فى مكانه ..

اما الدهشة التى علت وجوه الملوك والرؤساء فلابد أن يكون معناها أن طعمه لا يختلف عن بقية الطيور وإن كان من الأفضل الديك الرومى .. أو الخراف التى تتربع على عرش من الأرز والفستق.. ولكن الجميع أكلوه لأول مرة .. وفى استطاعتهم أن يأكلوه بعد ذلك .. أمير أبو ظبى اشترى من حديقة حيوانات الجيزة أربعة طواويس . وشحنت له .. ووصلت ويقال إنها للزينة وليست للأكل .

إنها أكلة غريبة غير متوقعة .. ولابد أن يتحدث عنها من أكلها فيقول لذيذة .. أو عادية ..

ولكن لا يستطيع أن يسكت عن الطاووس وشكله ..

ولو تنبه الملوك والرؤساء إلى الموسيقى التى سبقت الطاووس لأدركوا أنها موسيقى سيمفونية اسمها (برسبوليس) لموسيقار ايرانى عاش معظم سنوات حياته فى باريس .. وهذه السيمفونية قد عرفت سنة ١٩٤٦ فى (البرت هول) بلندن .. وظهر مؤلفها أمين الله حسين (٦٠ سنة) على المسرح وتستغرق حوالى أربعين دقيقة ..

وجاءت الحلوى من التوت والتين .. وأنا لا أدعى العلم بشئون الطهى ولا فهمت الشروح الطويلة التى قيلت فى تفسير الجمع بين التوت والتين مع الفستق فى ملعقة واحدة ..

ولا كيف يمكن أن تكون حلوة ومالحة فى نفس الوقت ولا تعرف إن كان السكر هو الذى أضيف إلى الملح أو الملح أضيف إلى السكر .. وإذا حاولت أن تفهم أكثر وجدت من يهز لك رأسه ويقول سيدى إنه ماكسيم .. ومعناها أن هذا سر وسحر ماكسيم ..

اما التورتة الكبرى فهى بمناسبة عيد ميلاد الامبراطورة .. وزنها وطولها لهما علاقة برقم ٣٣ الذى هو عيد ميلاد الامبراطورة .. على كل حال وزنها ٣٣ كيلو جراما .. وبها ٢٢ شكلا هندسيا .. أما شكل التورتة فهو من تصميم الامبراطورة .. وقد صممتها الامبراطورة بحيث يمكن تقسيمها إلى ٣٣ قطعة وكل قطعة يمكن تقسيمها إلى ٣٣ قطعة أخرى وهو بالضبط عدد المدعوين فى هذه الليلة الكبرى ..

وكان من المفروض أن يبقى العشاء ثلاث ساعات ونصف ساعة .. ولكن الملوك والرؤساء لم يتحركوا الا بعد خمس ساعات ونصف ساعة ..

وبعدها انتقلوا إلى خيامهم .. استعدادا لسماع برنامج (الصوت والضوء) وهو فرنسى التسجيلات والأصوات والأضواء .. والصوت والضوء يحكيان قصة آثار مدينة برسبوليس ودخول الإسكندر الأكبر الذى أطاح بالمدينة .. لدرجة أن الكثير من النقوش لم تتم .. والسبب فى ذلك أن الاسكندر جاء فتوقف كل فنان عن عمله ..

وفى الصوت والضوء نستمع إلى صوت روبير حسين وأصوات أخرى جميلة معبرة .

وكل ما نسمعه من حوار هو من إعداد اندريه كاستيلو ..

الجو شديد البرودة .. بعض الملوك والرؤساء طلب كمية من الكونياك والفودكا والروم قبل أن يذهب لسماع الصوت ورؤية الضوء فى الهواء الطلق .. فالجو بارد جداً ولذلك ذهب كل واحد وقد ارتدى البالطو ويوجد على مقعده بطانية .. والبطانية الواحدة لم تكن كافية .. ولذلك أسرع الحرس والجرسونات ليأتوا بمزيد من البطاطين ..

وظل العرض ساعة وراء ساعة .. بعضهم نام من شدة البرد .. وعندما سمع الامبراطور العطس والسعال المتوالى .. أدرك أنه يجب الا ينقص عدد الملوك والرؤساء واحدا .. وفى نفس الوقت الا يمرضوا فتطول إقامتهم أكثر من اللازم ..

ونهض الامبراطور ومن بعده الامبراطورة والملوك والرؤساء .. واحدا واحدا .. وكان البرد أقوى من الجميع ..

ولذلك ذهبوا إلى الخيام .. أحدث ما صنع الإنسان فى إحدى ضواحى باريس وجاءت على ستين عربة لورى من فرنسا إلى طهران فى رحلة استغرقت ٣٠٠ ساعة متواصلة عبر الدول الأوروبية والآسيوية .

وبسرعة جاء عدد من الأطباء ومعهم كل العقاقير الضرورية للبرد والزكام والاسهال والانفلونزا .. وفى ساعة متأخرة من اليوم التالى دبت الحياة بين الخيام .. وفى الخيام .. لقد ناموا طويلا .. ليصحوا تحت سماء صافية . وشمس حارقة والوان زاهية .. وكان انشط الجميع هو الامبراطور هيلاسلاسى .. ثم الرئيس بودجورنى والأميرة جريس والملك حسين .. وقد حملوا كاميراتهم ليعاودوا التصوير من جديد وعلى مهل ..

وكان عليهم أن يروا بعد ذلك أهم معالم مدينة مجاورة لهم .. مدينة شيراز اجمل وأروع وأعرق مدن ايران .. انها مدينة البلابل والزهور ..

مدينة الشاعرين سعدى وحافظ .. مدينة تجرى فى عروقها الموسيقى والنبيذ .. أن شيراز هى نصف الدنيا ..

ينام الشعراء
وتصحو البلابل

(٤)

أنت لم تشاهد مدينة شيراز .. أنت لا تعرف نصف الدنيـــا .. هكذا يقول أهلها ولا سمعت نصف الحكمة إذا لم تنصت إلى شبانها .. ولا عرفت لون العنب وطعم النبيذ ونشوة الخمور .. إذا لم تذهب إلى حيث ينام .. الشاعر سعدى .. والشاعر حافظ .. أنت لا تفهم معنى الكيمياء إلا إذا وقفت تحت اشجار البرتقال وامتلأت حواسك وفاضت بالعطر والحرير والغناء والزهد فى كل شئ إلا أن تكون محبا عاشقا .. انهم هنا يقولون نصف الدنيا لك إذا كنت عاشقا .. والنصف الآخر لك إذا كنت معشوقا .. وكل واحد هنا هو دنيا كاملة .. انهم يقولون .. وهم لذلك سعداء ..

لكل سؤال جواب عند شاعرهم سعدى ..

حدث نفس الشئ مرة أخرى .. فعندما كنت فى روسيا زرت جمهورية أوزبكستان .. وكانت ترافقنى إحدى المترجمات وكان من أهم الأشياء التى تحرص على أن أراها مساجد سمرقند . . وبخارى . . وكان الجليد يغطى الأرض شبرا شبرا . ودرجة البرودة اطبقت شفتى وجمدت لسانى .. فكانت كلما اقترحت فكرة هززت رأسى موافقا فأنا لا استطيع أن أعبر لهـا عن موافقتى بفمى أو يدى ..

ولـكن المترجمة لاحظت أننى أنظر إلى المساجد بشئ من عدم الاهتمام .. مرة أراها ببعض العين ومرة أراها ولا اسمعها .. أى لا اسمع ما تقوله المترجمة ولم يكن من الصعب عليها أن تسألنى .. الاحظ أنك ولا أنت هنا ..

واعترفت لهـا بأننى جئت من مدينة بها عشرون ألف مسجد .. وبها

جامع الأزهر ومساجد أخرى لاتعرفها. واندهشت .. ولم تفهم .. ولم أحاول أن أجعلها تفهم .. خصوصا عندما قالت لى .. إن الفرنسيين عندما يجيئون إلى هذه البلاد يطلبون رؤية المساجد قبل أى شئ آخر .

وحذفت المترجمة كل المساجد التى كان من الضرورى أن أراها .. خصوصا أن هذه المساجد مرهقة .. ولا أعرف لمـاذا يضعونها فى مكان مرتفع جدا .. ثم يجعلون الصعود إليها نوعا من التعذيب الشديد .. وهى أماكن مهجورة باردة وعليها آيات قرآنية وأحاديث وبها اخطاء كثيرة أو هكذا بدا لى ..

وكان من الصعب على طبعا أن أقابل حماسها الشديد واخلاصها فى عملها بهز الكتفين واطباق الشفتين ودفن لسانى بينهما .. كنت أفتعل الحماس .. واخيرا جاهرت بأننى لا أريد ولا أجد شيئا يبهرنى ..

وحاولت ذلك مرة أخرى فى مدينة شيراز وشيراز هى بداية الطريق الجميل جدا إلى مدينة الخيام فقد تفنن المهندسون فى زيناتها .. بل إن أروع الزينات فى ايران كلها فى شيراز .. فقد استخدمت شركة فيليبس انواعا من المصابيح جديدة .. فهى ليست باهرة وليس لهـا لون صريح .. فالأصفر باهت .. والأزرق سماوى والأحمر فى لون الشفق .. وقد اتخذت هـذه الزينات شكل أجنحة الطيور والطائرات .. وربما كانت مستوحاة من الطاووس .. أو من أن كل الملوك والرؤساء يهبطون بطائراتهم فى مدينة شيراز قبل ذهابهم بالسيارات أو الاوتوبيسات إلى مدينة الخيام .

أن شيراز من أقدم المدن الايرانية .. وهناك مثل يقول عندما كانت شيراز أم الدنيا .. كانت القاهرة إحدى ضواحيها ..

وعلينا أن نسمع مثل هذه العبارات ولا نقول شيئا .. انهم معتزون بمدينتهم وهذا طبيعى صحيح أن شيراز تقع على نفس خط عرض القاهرة . .

ولكنها أعلى منها بحوالى ٥٠٠٠ قدم فوق سطح البحر .. ولذلك فالجو فيها بارد ليلا نهاراً ودافئ نهاراً .. أو شديد الحرارة صحراوى فى الصيف .

وفى شيراز .. أو بالقرب منها أحدث فنادق العالم .. أقيمت من أجل الضيوف وحاشية الملوك والرؤساء وحاشية صاحبة الجلالة الصحافة ..

ولكن المدينة نفسها قديمة . . فارسية مائة فى المائة . . أن تنظر إلى الوجوه .. فهؤلاء نوع من البدو.. ويمكنك أن تقول انهم نوع من الغجر وهم أحب الناس إلى قلبى . . هؤلاء الغجر . . هؤلاء الذين يعيشون على اطراف المدن . . لا هم من أهلها ولا هم مطرودون منها . . وإنما هم على الحدود .. على الحافة . . على المنطقة الرقيقة بين القانون والخروج على القانون . . من اين جاءوا . . لا أحد يعرف . . إلى اين يذهبون . . لا أنت تعرف ولا هم يعرفون . . انهم غجر . . يحملون متاعهم القليل إلى أى مكان . . ينامون تحت أى شئ . . ويشربون من أى نبع ويتحركون كما تتحرك الكرة الأرضية . . إلى الأبد بلا هدف تعرفه . . انها تتحرك فقط . . وهؤلاء الغجر بشعرهم الأسود . . وحواجبهم الغليظة السوداء . . وملامحهم الخليط من الفارسى والمغولى والآرى .. وخليط من كل شئ .. ولهم صلابة الجبال ونعومة الرمال .. وحرارة الشمس وزمهرير الليـــل .. ماذا يريدون من هذه المدينة .. لا شئ .. فقط يريدون أن يشتروا بعض الأغطية والقبعات .. وفى مدينة شيراز هذه سوق فارسية عجيبة .. تذكرك بموسيقى رمسكى كورساكوف .. فيها هيصة .. وإيقاع جميل من الألوان والعطور .. عجزت عن وصفه ألف ليلة وليلة .. والسوق له شوارع ضيقة .. وعلى الجانبين شلالات من الألوان الزاهية على شكل أقمشة وسجاجيد وفوانيس .. وهنا يحب الناس الألوان ولا يملونها .. وإن كانت ألوانهم هم واحدة .. بياض الوجه وسواد العينين والشعر ..

لم أر الوجه وسواد العينين .. وكنت أتصورهم كذلك .. ولا أعرف

من أين جاءت هذه الفكرة . . ربما كان ذلك أننى تصورت أن الآريين جميعا زرق العيون وكلمة ايران معناه بلد الآريين .

وهؤلاء الغجر يمشون فى موكب واحد .. والناس يشيرون إليهم فى صمت : هؤلاء غجر .. ولو نظرت إلى وجوه الناس لما وجدت احدا يحتقرهم أو يشمئز منهم . . أو يعجب لحالهم . . انهم جماعة فى حالها . . وفى ايران مئات الجماعات المنعزلة التى تعيش فى حالها دينيا أو لغويا .. الأرض واسعة والقلوب أوسع من الأرض ..

وفى السوق مكتبة لبيع الكتب العربية سألنى صاحبها : هل تعرف الخانجى ؟

قلت : نعم

هل تعرف الحلبى ؟

نعم ..

هل تريد أن تشترى بعض الكتب ..

نعم

ولكنى لم أجد كتبا تستحق القراءة .. فكلها مخطوطات قديمة .. ومنشورات لكتب فى السيرة أو التفسير عندنا مئات الألوف منها وأفضل منها ..

وفى إحدى المكتبات توقفت عند كتاب موضوعه مغامرة مضيفتين فى إحدى شركات الطيران .. المغامرة مثيرة ولكنها لم تخل من الدعاية السياسية ومن غير مناسبة فيها هجوم على مصر وعلى العرب .. والكتاب أمريكى ومن ثلاثة أجزاء ..

ولكن فى كل هذه الكتب تجد دواوين شعراء ايران .. الفردوسى وسعدى وحافظ الشيرازى وعمر الخيام .. وهناك ترجمات وطبعات رائعة لشعر أشهر شعراء ايران ..

وفى الحضارة الإسلامية عدد كبير جدا من أبناء ايران قد أضافوا الجديد والعميق والمثير إلى الشرق والغرب ..

مثلا فى علوم النحو سيبويه والكسائى والفراء والزمخشرى .

وفى الشعر والنثر : عمر الخيام وأبو نواس وبشار بن برد وابن الرومى وبديع الزمان وابن المقفع .

وفى اللغة : ابن قتيبة والجوهرى وابن فارس .

وفى الفقه : أبو حنيفة والغزالى والنسفى والشهرستانى .

وفى الأحاديث النبوية : البخارى .

وفى علوم التاريخ الطبرى والبلاذرى والدينورى .

وفى الرياضيات فجر الدين الرازى وأبو ريحان البيرونى (الذى عقد له مؤتمر أخيرا فى الهند وحضره من الكويت العالم المصرى الدكتور عبد الفتاح اسماعيل مدير جامعة الكويت) ونصر الدين الطوسى .

اما الشعراء غير الفردوسى وعمر الخيام وسعدى وحافظ فهم رودكى ودقيقى والترمذى ومنطقى الرازى وغضائرى وعنصرى ومسجدى وخافاتى ومحمد إقبال وباسمى ومحمد بهاز وغيرهم .

وفى الفلسفة ابن سينا ..

ولكن مدينة شيراز هذه تفخر بأن الملوك والرؤساء زاروها وتوقفوا عندها .. وطلبوا أن يتحركوا على مسئوليتهم فيها .. وانها أمان ولا خوف على أحد من أحد إذا دخل إليها .. ولكن هان فيها أعز أبنائها عليها ..

الشاعر السعدى الشيرازى ..

والشاعر حافظ الشيرازى ..

وأهل شيراز يرون أن من الطبيعى أن يكون أبناؤها يحبون الشعر ..

أو يكونوا شعراء .. فهى مدينة العنب والنبيذ والورد والبلابل .. ومن مئات السنين كان فى شيراز شركات انجليزية وهولندية وبرتغالية لتصدير عنب شيراز إلى أوروبا .. فالعنب له لون خاص .. أحمر .. وأقرب إلى الكريز منه إلى العنب .. والناس هنا يشربون النبيذ ونبيذ شيراز أفضل بكثير جدا من نبيذ إيطاليا وفرنسا .. فالنبيذ الإيطالى أثقل والنبيذ الفرنسى أخف .. ولكن نبيذ شيراز أقرب إلى النبيذ الألمانى الشهير موزل .. وهذا النبيذ هو أغلى من الشمبانيا وله رائحة معطرة ..

وكان الشاعر سعدى يقول .. إن السماء نفسها تسكر من نبيذ شيراز ..

وكان الشاعريقول : وكيف لا تغنى البلابل انها تشرب من ماء شيراز ..

إن الشاعر سعدى قد عاش أكثر من مائة سنة .. ولما سئل عن ذلك قال .. أحببت كثيرا ولا شئ كالحب يطيل العمر .. أن الكراهية تقصف العمر .. والحقد يدفنه .. احبوا .. احبوا .. تطل أعماركم .

وأهل شيراز يزورون قبر الشاعر سعدى .. لا على أنه شاعر عاش فى القرن الثانى عشر ومات فى الثالث عشر .. ولكن على أنه من أولياء الله الصالحين .. وكيف لا يكون وليا من يقول (آمنت بالله خالق كل شئ آمنت بالله خالق الورق والزهر والعصفور والدمعة والنشوة والسعادة والألم .. آمنت بالله الذى جعل نوره فى كل قلب .. آمنت بالله الذى جعل القلب هادينا إلى نعمته الخالدة وإلى الامتنان له حتى الموت) .

والشعراء فى ايران هم أصحاب المقابر الجميلة .. المقابر التى تغرى بالموت .. إن مقبرة سعدى حديقة واسعة .. الطريق إليها مرصوف بالظلط الملون .. على الباب جلس رجل يبيع التذاكر للزوار وصور المقبرة .. وصور الحديقة .. وديوان (حديقة الورد) للشاعر سعدى .. أجمل وأروع واحكم ما كتب إنسان .. فالديوان ملئ بالنوادر والحكم والموعظة الحسنة عن اخلاق الملوك والرؤساء والأمراء .. والأصدقاء والاعداء والجمال

والنبيذ والشعر .. وعلى جانبى الطريق اشجار البرتقال واشجار العنب .. وهذه البلابل قد سبقتك إلى مقبرة أروع البلابل الايرانية .. إن هذه الأصوات التى تسمعها ليست تسجيلا صوتيا .. أو ليست اسطوانات معلقة على الأشجار ومناقير البلابل كالابر تدور تحتها ..

اما الزحام على المقبرة فهم أهل شيراز .. يدورون حول الضريح المصنوع من الرخام .. وعليه أبيات من شعر سعدى .. والضريح مفتوح الأبواب .. وعلى الجدران أبيات من الشعر باللغة الفارسية ..

وكان يرافقنى شاب متحمس سألته: وما الذى يقصده بالخمر ؟

وقال: إن سعدى لا يشرب الخمر .. إن الخمر معناها النشوة .. ومعناها أقصى درجات الحب .. إن المستشرقين هم الذين اساءوا إليه عندما قالوا إنه يشرب الخمر .

إذن فهذا الشاب يرى الشاعر سعدى أحد أولياء الله الصالحين ولو كان الشاعر حيا لرفض هذا الشرف العظيم .. إنه شاعر يشرب من ماء الأرض ويغنى للسماء .. وهو نشوان بنعمة الله .

اما هذا الخرير الذى تسمعه وأنت تهبط درجات قبر الشاعر سعدى الشيرازى فيقال إنها مياه مقدسة .. وهذه المياه تغسل الذنوب .. بعض الناس يغتسلون بها فى يوم الأربعاء الأخير من كل سنة .. ويقال أن هناك أسماكا مقدسة تعيش فى هذه المياه .. وأن احدا لا يمد يده إليها .. فكل شئ هنا مقدس فهنا قبر الشاعر العظيم سعدى أفخر مفاخر مدينة شيراز ..

وعندما جاء ملك الدنمرك لزيارة قبر سعدى قيل له .. هل أنت شاعر ؟ فأجاب كنت أنظم الشعر وأنا صغير فقيل له: إن سعدى يحب أن يسمع شعرك ..

ولم يناقش الملك ذلك فقال: ولكنه باللغة الدنمركية ..

فقال رجل كبير فى السن .. سعدى يعرف كل اللغات .. إنه هو الذى قال .. الشعراء والمعجبون يتفاهمون بغير الكلام ..

فلما قال ملك الدنمرك: ولكنى لا أذكرمنه شيئا .. قال له حارس قبر سعدى : ولكن سعدى يقول : إن الشاعر ليس فى حاجة إلى ذاكرة .. إن الذى ينساه يولد فيه من جديد ..

ولمـا قال ملك الدنمرك : ولكنى لا أرقى إلى مستوى شاعركم الكبير ..

قال له حارس قبرسعدى: ولكن سعدى يقول فى كل الأكواب الشفافة يكون لون النبيذ واحدا .. القليل فى لون الكثير .. والكثير فى لون القليل ..

ولمـا قال ملك الدنمرك: إذن لابد أن أعتذر لشاعركم الكبير .. فقد نسيت الآن كل ما كان يدور فى رأسى من شعرى أو شعر غيرى .

فقال حارس مقبرة سعدى : ولكن سعدى يقول : إن المحب لا يعجز أن يجد كلمة يقولها لحبيبه بيده .. بعينه .. حتى لو تنهد قال هذا يكفى دلالة على أن شيئا فى أعماقه قد خرج من غير إرادة ..

وقال ملك الدنمرك : إن سعدى ليس هو الشاعر الوحيد فى شيراز .. فكلكم شعراء ..

فقال له حارس مقبرة سعدى : ولكن سعدى يقول .. ينتشى من النبيذ من يشربه ومن يصنعه ومن يسعده الحظ بالنظر إليه ..

ومن الغريب أن قطرات من المطر قد هبطت من السماء فى هذه اللحظة .. ولمـا سأل ملك الدنمرك أن كان هذا موعد سقوط المطر هنا قيل له .. ولكن سعدى يقول السماء وقلوب المحبين وعناقيد العنب تتساقط حباتها عندما تنضج .. فلا تضيع وقتا فى انتظـارها .. اصعد إليها .. المحبون وحدهم القادرون على أن يأتوا بالصيف فى الشتاء وبالشتاء فى الصيف .. والمحبون

وحدهم القادرون على أن يجعلوا عناقيد العنب هى كاساتالنبيذ .. والمحبون وحدهم القادرون على أن يشربوا دموعهم وينتشوا .. كذلك تفعل البلابل .

وحارس مقبرة سعدى ليس أعجوبة بين أهل شيراز .. كلهم يفعل ذلك .. فلا تكاد تتحدث إلى واحد منهم حتى يقول لك سعدى قال ..

وكذلك فى أوروبا فى العصور الوسطى كانوا يحسمون كل خلاف بأن يقولوا : هكذا قال أرسطو ..

وعند سماع اسم الفليسوف اليونانى أرسطو .. يجب أن ينتهى الخلاف .. لأنه قد فكر ودبر واتخذ قرارا وهذا القرار نهائى ..

حاولت أن أداعب الشاب المرافق لنـــا ..

فقلت له : وماذا قال سعدى فى الجائع الذى يريد أن يأكل طبقا ايرانيا ؟

قالسعدى : من جاء إلى شيراز فليس فى حاجة إلى أن يأكل أو يشرب.. عطرها يروى .. وهواؤها ينعش .. ونبيذها يفتح العين ..

فقلت : وإذا كان قدجاء إلى شيراز ويشعر بالجوع والتعب والرغبة فى النوم لأنه لم ينم منذ يومين .. فما قول سعدى فى ذلك ؟

قال : يقول سعدى .. كم عيون سهرت .. وقلوب نامت .. كم قلوب سهرت وعيون اقتلعت .. إن المحبين هم الذين لا يعرفون النوم لأنهم لا يعرفون اليقظة .. ولا يعرفون الجوع لأنهم لا يعرفون الشبع .

اما الشاعر الآخر لمدينة شيراز فهو حافظ الشيرازى.. وقد سمى حافظا لأنه حفظ القرآن الكريم .. وحافظ شاعر غنائى رقيق وليس فى ايران من لا يحفظ شعر حافظ ويتغنى به ..

وقبر حافظ هو روضة من رياض ايران .. الأشجار عالية .. والطيـــور تغنى من تلقاء نفسها .. ويقولون انها فى الشتاء تغنى أيضا .. إن حافظ يقول ..

من يمنع البلابل من تغريدها .. من يمنع الشمس من شروقها .. من يمنع الشاعر من شدوه .. من يمنع العين من دمعها .. من يمنع الروح من اناتها .. من يمنع البلابل أن تغرد بالقرب من الشعراء ..

والناس يذهبون إلى قبر حافظ كما يذهبون إلى اضرحة الأولياء والشهداء ويكفى أن يذهب الواحد إلى قبر حافظ ويشكو من عذابه .. ويشكو له . ويشكوه إلى صديق فيقول .. يا حافظ يا حاج حافظ .. آلامى مبرحة .. أوجاعى .. يا حافظ .. يا على .

اما (يا على) هذه فلابد منها .. لأن ايران شيعية .. وعلى بن أبى طالب هو نورهم الذى يهتدون به .. وعلى بن أبى طالب مكتوب على كل لسان وعلى كل مسجد .. وعلى هو الذى يربط ايران بالعراق .. وهذا الإرتباط هو مصدر التعاسة والقداسة معا .. فالشيعة يتجهون إلى النجف وكربلاء إلى حيث يرقد جثمان على رضى الله عنه وأولاده الشهداء .. يذهبون إلى هذه الأراضى المقدسة أغنياء وفقراء يضعون الذهب والماس وكل الأحجار الكريمة .. ويحملون افخم السجاجيد ليعيشوا عليها هناك ..

حاول بعض الملوك والرؤساء زيارة مسجد الجمعة المشهور .. ولكن قيل له .. صعب .. فقال على مسئوليتى .. قيـل له أصعب .. فقال إذن سوف اتسلل إليه ..

قالوا .. مستحيل .. لأننا نسير وراءك .. ثم إنه لابد أن تكون مسلما ..

فقال .. هذا هو المستحيل ..

فمسجد الجمعة لا يدخله الا المسلمون .. وأحيانا الا الشيعة .. ومن السهل جدا أن يعرفوا المسلم الشيعى والمسلم السنى .. فالشيعى إذا وقف ليقرأ الفاتحة فإنه يضم يديه أمامه وكثيرا ما وجد المسلم السنى العيون وقد اتجهت إليـه تستنكر دخوله المسجد .. وعليه بسرعة أن يضم يديه أمامه كأنه شيعى قد نسى أو انشغل عن هذه الحركة البسيطة ..

ولابد أن يندهش الإنسان جدا جدا عندما يجد صورا للرسول عليه السلام تباع فى المحلات العامة .. وأن يجد صورا ايضا للامام على بن أبى طالب وصور على كثيرة .. بعضها مطبوع على الورق .. وبعضها مطبوع على البلاستيك .. وفى بعض البيوت قد رسمت على السجاجيد الفخمة ..

وأذكر أن أول صورة لعلى بن أبى طالب رأيتها فى احدى المكتبات الخاصة فى مدينة كربلاء بالعراق وقيل أن هذه الصورة المرسومة على سجادة فاخرة قد صنعتها بنات الأسرة المالكة فى ايران .. وقيل إن صناعتها استغرقت عشر سنوات .. وإن هذه السجادة تساوى مئات الألوف من الجنيهات لأن خيوطها من الذهب الخالص .

ولكن فى شيراز وجدت صورة الرسول عليه السلام .. صورة ساذجة .. ففيها تجد رجلا اسمر الوجه له لحية متوسطة الطول .. ومن السماء تجئ شعاعات سكتوب عليها آيات القرآن الكريم .. مجرد صورة خيالية .. ولكن هذه لها ملامح المسيح والعائلة المقدسة .. كلها صور خيالية ليس لها أى اساس تاريخى .

وهناك بعض الصور المصنوعة فى اليابان .. الصورة الواحدة إذا نظرت إليها من ناحية اليمين وجدت على بن أبى طالب .. وإذا نظرت إليها من اليسار وجدت صورة الرسول عليه السلام .. والفرق بين الاثنين أن على بن أبى طالب يمسك سيفا ..

وأعجب من ذلك أن هناك صورا تتعلق فى سلسلة المفاتيح ..

قلت للبائع : أهذه صورة محمد عليه الصلاة والسلام ..

قال : نعم ..

ثم اتجه إلى شئ آخر .. كأنى لم اسأله عن شئ عجيب غريب .. وعدت

اسأله وهذه يحملها كل الناس وأشار بيده إلى صندوق به مئات الألوف من السلاسل والمفاتيح ..

وعندما انفض الزبائن اتجه ناحيتى ليسألنى ان كنت أريد شيئا آخر .. قلت : أريد بعض هذه الصور والسلاسل .. ولكنه لم يلاحظ دهشتى .. وحرصت على أن أجعله يراها فقال : ما ذا يدهشك ..

قلت : لا شئ .. ولكن هذا غير مألوف فى أى بلد إسلامى ..

قال : أعرف ذلك ..

قلت : حتى صورة الرسول أقرب إلى صورة القديسين فحول رأسه توجد هالة ..

قال : نعرف ذلك ..

قلت : يدهشنى ذلك .. أو يدهشنا ذلك وكأنه يعرف هذا الرد .. ولذلك لم يناقشنى فيه .. ولابد أنه تناقش فيه مع كثيرين والنتيجة واحدة .. الناس يندهشون ويشترون وهو يبيع ويكسب .. ولم أجدها مناسبة لأناقشه فى أى شئ .. فهو بائع وليس فيلسوفا ولا أحد فقهاء الدين .

وحملت الأوراق والسلاسل وتوجهت إلى شارع السوق .. ومن شارع السوق إلى عمارة كبيرة .. مدخلها فخم .. وسألت : وأين توجد حارة اليهود ؟

وأحسست انى ارتكبت غلطة لا ضرورة لها فلم أجد احتراما كافيا أو مساعدة من أى أحد .. ولم تسعفنى لغتى بأن أشرح مثلا أننى لست يهوديا أريد أن أرى .. مجرد رؤية لست يهوديا ..

وذهبت إلى مكتبة قريبة ورحت أتفرج على الكتب . وناقشت واشتريت ثم اقتربت من البائع وكأننى نسيت : فقلت قيل أن حارة اليهود قريبة من هذا المكان ..

فأجاب .. امش من هذا الشارع .. وبعد أن تترك معبد زاردشت اتجه إلى اليسار ثم إلى اليمين ..

يقول زاردشت ذلك النبى الفارسى القديم إلى أى أرض أذهب .. إلى أى أرض أجر قدمى إلى أى مكان ألجأ ؟ ان الحكام والنبلاء قد هجرونى .. ان الفلاحين لا يسعدوننى أيضا انهم جميعا يقفون إلى جانب الكذب .. فإلى أين أذهب ؟ وما الذى أصنعه لكى أرضيك يارب إننى أعلم أننى لا أستطيع يا إلهى .. لأننى كثير الشكوى .. كثير البكاء .. ساعدنى كما يساعد الصديق صديقه .. امسك يدى كما تمسك الأم يدصغيرها .. افتح عينى كما تفتح الشمس عيون الطيور ..

وأشار أحد المشـاة إلى معبد زرادشت .. الباب مفتوح .. لا أحد .. المقاعد على الجانبين لا أحد يجلس .. الإضاءة خافتة .. ثم جاء رجل يرتدى ما يشبه البيجاما البيضاء .. اقترب وسأل إن كنت أريد شيئا .. فقلت أتفرج ..

وأشار إلى حذائى فخلعته .. وأشار أن أمشى وراءه .. ومشيت .. ووجدت نفسى أمام غرفة من الزجاج فى داخل الغرفة المظلمة تماما قنديل من الزيت .. مصدر ضوئى .. وأمام هذا القنديل أو هذه الشمعة .. يجب أن يقف الإنسان ويصلى وهو ينظر إليها .. أى إلى النور فالنور هو سر الكون .. هو الحياة .. هو الله (العلم الحديث يقول أن كل شئ فى الدنيا يتحول إلى طاقة .. إلى نور .. فالنور هو جوهر الأشياء .. والله وحده هو القادر على أن يحول الطاقة إلى مادة .. أى أنت تستطيع أن تحول المـادة إلى طاقة بسهولة يكفى أن تحرق ورقة .. مادة الورقة تحولت إلى طاقة ولكن الله وحده القادر على أن يحول هذه الطاقة مرة أخرى إلى نفس الورقة فالنور هو الله .. والقرآن الكريم يقول .. الله نور السموات والأرض ..

وعرفت أن هذا الراهب أو هذا الكاهن هو إمام الديانة الزرادشتية هنا .. سألته : وما الذى يقوله الإنسان أمام النار وهو يصلى ؟

قال : وما الذى تقوله عندما تصلى ؟

قلت : وهل هذه النار مقدسة ؟

قال : ليست مقدسة .. ولكنها رمز كما يقف المسيحى أمام الصليب .. فالصليب رمز .. وكما يتجه الناس إلى الكعبة فالكعبة رمز ..

قلت : أريد أن أدعو الله وراءك فماذا أقول ؟

قال : قل ورائى .. يا أهورا مزدا انك وحدك القوى العارف .. وأنا ضعيف ولكنى بك قوى .. اعطنى ما أعطيت النور .. صفاء وحرارة .. اعطنى ما أعطيت الأرض خصوبة واتساعا .. اعطنى ما أعطيت الرياح قوة وحسما ..

ثم التفت ناحيتى ليقول : هل هذا يكفى .. وقبل أن أقول اننى أريد من الله شيئا آخر قال : إذن ردد ورائى .. يا أهورا مزدا أنت وحدك تعلم ما الذى يمزق قلبى وعقلى .. أجمعها على رأى واحد.. فقد تحطم بعضى على بعض .. أنت وحدك الذى أستريح إليك .. املأ وحدتى .. وافرغ همومى .. واعطنى الصبر على النفس وللنفس .. والصبر على الناس لأعيش معهم وبهم . اعطنى ما أعطيت زوجة زرادشت من الجمال الأبدى الصدق مع نفسها ومع جسمها .. ومع الناس ..

قلت : آمين

سألنى : إن كان هذا يكفيك ..

ولم أقل اننى لم أسترح ..

ولكن الرجل كأنه تعهد بشفائى اقترب أكثر من القنديل المقدس ،

وكأنه اقترب من نفسى ليقول وأنا وراءه ، وهو ينظر إلى شئ وأنا أغض عينى وأنظر إلى شئ آخر ووجهة أخرى .. يا هورا مزدا .. اننى تعبت من الناس .. وتعبنا من الحياة .. ولاندرى ما هى حكمتك .. اننا لا نعرف لهذه الحياة معنى .. ولا ندرى حكمتك .. اننا ضائعون لولاك .. اننا حائرون بغيرك .. أهدنا كما هديت الرضيع إلى أمه خفف عنا ويلات أنفسنا .. وخفف عن أنفسنا ويلات أجسادنا .. وخفف عن أجسادنا ويلات أجساد الآخرين .. فإذا كان الموت فاجعله سهلا علينا .. فإذا كان الفراق فلقاؤك هو أعظم الجزاء يا هورا مزدا .. اهد هذا الضال .. واشف هذا المريض .. وأضئ جوانبه المظلمة .. واحلل العقدة من لسانه .. ومن يده .. ومن نفسه .. اطلق شعاعا من نورك .. مطرا على بحرك اعطه حتى يضج بالشكر لك .

ولم يسألنى ان كنت قد اكتفيت .. لقد اكتفى هو بذلك .. وتوجه إلى الباب الخارجى .. ووضع قدميه فى حذائه .. ثم أعطانى نسخة من كتاب بالإنجليزية عنوانه (زرادشت وديانته) والكتاب جمعه ونشره مهرابان خودا افندى ..

وسألته : من الذى ينفق عليكم ..

وعرفت أن هناك عشرات الألوف من الأثرياء فى إيران وفى أمريكا ينفقون على هذه الديانة الرسمية .. والديانة التى اعتنقها قبل ذلك كوروش العظيم .. ولذلك عندما مات طلب أن يدفن فوق قبره وأن يكون وجهه لا يغيب عنه النور متى أشرقت الشمس ويقال أن بعض كهنة زرادشتا قال إن قبر كوروش هذا يتحرك مثل عباد الشمس مع الشمس مع شروقها إلى غروبها أما كيف اختفى جثمان كوروش فيقولون أيضا أن الشمس سحبته وأخفته فى مكان بعيد وراء هذا الكون .. ويسمونه وراء الوراء ..

وجاءت فتاة حلوة ترتدى البلوزة البيضاء الحرير ذات الأكمام ..

وعلى الصدر عقد أزرق وعلى رأسها إيشارب أحمر دموى وفى أذنيها قرط من الزمرد وسألت : طبيعى ؟

فقالت : الزمرد طبيعى

ولم تقل أن جمالها طبيعى أيضا .. أما الحذاء فهو فى لون البنطلون .. أسود .. وشعرها على غير العادة أشقر .. واللون طبيعى فلونها أشقر أيضا .

ولم أسأل أول الأمر .. وعدت أسأله : ابنتك ؟

قال : مثل ابنتى

قلت : بنت أخيك ؟

قال : كبنت أخى ..

وسكت ولكنه هو الذى قال : زوجتى ؟

وهى مثل ابنته لأن فارق السن يزيد عن الثلاثين عاما .. ولكنه هو الأقوى والأصح ..

قلت : وزوجة واحدة ؟

قال : واحدة تكفى .. المسلمون يعددون الزوجات .. واليهود أيضا ..

قلت : المسلمون أحيانا واليهود نادرا

قال : اليهود هنا يتزوجون بأكثر من واحدة ..

وضحك ليقول أنهم يريدون أن يكونوا كثيرين .. اننى قرأت أن بابا الكاثوليك قد سمح بتعدد الزوجات عندكم . قلت .. ليس عندنا .. ولكن فى أواسط أفريقيا .. فقد كان من الصعب على رجال التبشير أن يطلبوا إلى شيخ القبيلة أن يكتفى بزوجة واحدة وأن يطلق سراح عشرات النساء اللائى فى عصمته ..

ثم التفت إلى ابنته ليقول : تشرب معنا

قلت : بكل سرور .. ماذا ؟

قال : ما شربه أمراء الخليج عندما جاءوا لزيارتنا أول أمس .

واتجهنا إلى فيلا مجاورة نظيفة خالية من الناس .. هناك رائحة بخور خفيفة ولا أعرف مصدرها وسألته من أين البخور ..

قال : من فتحات الجدران ..

قلت : تطلقونها فى أوقات محدودة ..

قال : فى كل وقت

قلت : لها معنى خاص ..

قال : إشاعة جو مختلف عن الشارع انها عادة متبعة فى كل الأديان فيما أعتقد ..

وظهرت فى نهاية السلم فتاة أخرى أصغر سنا ولكنها فى نفس الملامح .. وترددت فى أن أسأله ..هل هى اختها .. وهل الديانة الزرادشتية تسمح بالزواج من الأختين مثلا .. ولم أقل .. ولكن السؤال وقف فى حلقى .. وسألته : أختها ؟

قال : نعم

قلت : زوجتك ؟

قال : لا ..

قلت : زوجة من ؟

قال : زوجها فى أمريكا وسوف يعود الليلة .. ربما الآن ..

ولم ألاحظ أن الفتاة ارتدت زيا يدل على فرحتها بعودة الزوج القادم من أمريكا .. ولكن عندما رأيت الخواتم فى أصابعها والأقراط فى أذنيها والبروش على صدرها ولاحظت الأحجار الكريمة على حزامها .. وعلى جانبى البنطلون الذى ترتديه .. وبعض الأحمر الخفيف فى شفتيها والكحل فى

عينيها .. أدركت أنها سعيدة لعودته .. وأنها حملت له كل ما عندها من زينة .. وكانت هذه الفتاة تتكلم الفرنسية ..

وجاءت فتاة ثالثة وقلت: أنت تسكن وحدك هنا قال نحن كثيرون .. ولكنهم يعملون ..

وكانت الفتاة الثالثة تحمل أكوابا كبيرة بها مشروب فى لون النبيذ .. ولكن ليست له شفافية النبيذ ..

وقال : تفضل ..

وشربت أول عصير للرمان فى إيران . . ولاحظت أن الأكواب من الكريستال .. وأن الصينية من الفضة وأن المفارش من الحرير الطبيعى المشغول .. وأن الفوط التى وضعت على ركبتى من الحرير الطبيعى اليابانى .

فقلت : حرير يابانى

قال : إيرانى ..

وكان فى نيتى أن أقول له إننى زرت اليابان وإننى أعرف القليل عن الحرير الطبيعى . . ووجدت فى اجابته رد اعتبار لى فقد كان فى نيتى أن أتعالى عليه قليلا . . ولكن لماذا احسست بأنه قد تعالى على . . لا أعرف من أين جاء هذا الشعور . . ربما بساطته . . ربما هذه جعلتنى أحس أنه أحسن حالا . . ربما هذه الثروات الطائلة التى حملتها زوجته وأختها على الصدر والأصابع والساقين والقدمين لا أعرف لماذا أحسست أننى يجب أن أقول شيئا لا يعرفه وقلت له وأنا لا أعرف كيف أمنع نفسى من الكلام : لقد سافرت إلى اليابان ومكثت بها شهرا .

وكان رده بسيطا : لابد أنها أعجبتك أنا عشت فيها عشر سنوات .

وكان لابد أن أبتلع لسانى . . وابتلعت وسكت . .

ونهضت أشكره وأودعه . . وأتمنى لهم حياة هانئة سعيدة . .

عجيبة جدا . . لقد قبلونى جميعا عند توديعى لهم . . فلم يكن هذا فى حسابى فلا شئ يدل على هذه النهاية الرقيقة . .

وعند السلم قال لى الكاهن الكبير : أنت أول واحد لا يجد حرجا فى أن يقف ويدعو فى معبد زرادشت قلت : أريد أن أعرف .

قال : إذن . . سوف تتعب كثيرا .

قلت : فعلا

قال : هل تريد أن تصلى من جديد معى أنا وابنتى . . لا زوجتى .

وضحكت . . واتجهت إلى الشارع . . إلى الزحام فى الناس . .

الهواء بارد منعش . . نحن فى رمضان ولاشئ يدل على ذلك . . فعند الغروب . . لايزال الناس فى الشارع . . هل هم صائمون . . يقال نعم . . ولكنى لم ألاحظ أحدا صائما . . فى كل الذين قابلتهم وعلى كل المستويات . . ويقال أنهم يفطرون إذا رأوا نجمة فى الأفق . . وليس عند غروب الشمس كما يفعل أهل السنة .

لابد أن اتجه إلى الناحية الأخرى . . هذه إذن حارة اليهود . . حارة كأية حارة . . رأيت مثلها فى روما وبرن والقاهرة وطوكيو . . حارة ضيقة . . خالية من الناس . . الأبواب مغلقة . . الأطفال الصغار يلعبون فى الشارع ملامحهم شرقية . . العيون سوداء . . الأنوف أكثرها معقوف وتتردد كلمات شالوم . . شالوم . . وأنا لا أعرف ماذا يقولون . . الليلة ليلة السبت . لا أضواء . . لا مصابيح . . فاليهود يتركون الأضواء كما هى منذ يومين . . فإذا أنطفأ نور فإن أحدا لايوقده . . إنهم أحيانا ينادون بعض المسلمين أو المسيحيين ليوقدوا لهم النور . . لأن العمل والطبخ والإضاءة حرام فى هذا اليوم . . يوم السبت المقدس . . ولكن بعض المحلات اليهودية الصغيرة مفتوحة . .

هذا البار على رأس الحارة . . الباب ليس مغلقا . . فى استطاعة أى أنسان أن يدخل ودفعت الباب ودخلت وجاءت سيدة كبيرة فى السن . . وتكلمت الفارسية .

فقلت: لا أحديعرف الإنجليزية؟ ثم جاءتسيدة أخرى..تعرف الإنجليزية . ثم جاء رجل آخر . . وجاءت فتاة وظهر طفل والباب لاهو مقفل ولاهو مفتوح . . الملامح واحدة . . ومفروض أنا أقول لماذا جئت . . أو ما الذى أريد أن أشربه . . وتظاهرت بأننى مريض وإنى أريد أن أشرب كوبا من الشايِ إن أمكن . .

وكان لابد أن أجد ما أقوله من اختيارى لهذا المحل . . ومن الواضح أننى أجنبى وقلت : أجنبى .. صحفى .. جئت أتفرج على هذا المهرجان ..

ولما سألونى من أين أنت قلت . . من جنوب أوروبا . . قالت واحدة إيطاليا . . قلت نصفى من إيطاليا والنصف الآخر من اليونان .

وكانت واحدة منهم تعرف الإيطالية . . وتذكرت فى هذه اللحظة أن الأصدقاء الإيرانيين من شيراز . . وأقول الأصدقاء لأنه من السهل أن تجد صديقا من شيراز . . يكرهون اليهود . . ولا يطيقونهم ولا يشترون منهم ويتهمون بالكفر كل من يتعامل معهم . . واليهود يعرفون هذه الحقيقة ولكنهم لا يشكون ولو ضربتهم بالجزمة فى الطريق لا يرفعون رؤسهم . . وبعض التجار ليس أمامه إلا التعامل معهم . . فالتجارة لا دين لها والمال لا دين له . . وكثيرا ما وقعت معارك بينهم وبين اليهود . .

وقد فهمت أن التعليمات مشددة جدا ألا يذهب سائح أجنبى أو زائر أثناء المهرجان إلى هذه المناطق اليهودية بأى حال . . فالدولة حريصة على ألا يكون هناك أى خلاف أو شقاق أو متعب من أى نوع . .

وسألت السيدة التى تعرف الإيطالية إن كان المهرجان قد اعجبها . .

فقالت بتحفظ . . إننى كما ترى كبيرة . . لم اراه . . ولـكن أولادى قد رأوه . . مارأيك .

قلت . . رائع .

قالت . . ما الذى أعجبك فيه .

قلت . . دعاية كبرى لإيران . . وسوف يجئ ملايين الناس من كل الدنيا ليتفرجوا . . ثم الفكرة نفسها .

قالت . . ماذا تقصد .

قلت إن كوروش العظيم هو أول من وضع حقوق الإنسان . . وأول من نادى بالتسامح . . تفهمين طبعا . .

قالت : هذا هو الذى يسعدنا جميعا . : أنه نادى بالتسامح . .

أذن هى سعيدة . . وهم سعداء جميعا بالاحتفال بكوروش العظيم الذى أعاد اليهود إلى فلسطين وأنقذهم من السيف البابلى . . ومن عذاب الملك بختنصر . . ولذلك أشادت التوراة بكوروش العظيم . . ووصفته بأنه المسيح . . المنقذ . . المخلص لهم . .

ولـكن الرجل اليهودى صاحب المحل لم يخف . . وهذا أدهشنى رغم أنه ليس على يقين من جنسيتى أو دينى ان أسرائيل لم تدع إلى هذا المهرجان .. رغم أن عددا كبيرا من ضباط الأمن قد جاءوا من إسرائيل هكذا . . وأن عددا من اطباء إسرائيل يعملون فى معهد الرازى فى مدينة كيرج بالقرب من طهران . . ولم يقل رغم أن عددا كبيرا من أصحاب الملايين من اليهود فى طهران وأن أكبر تجار السجاد فى إيران وفى العالم كله من اليهود . . طبعا من حقه أن يقول هذا ولـكن السياسة لها رأى آخر . . فإيران قد اتجهت إلى العرب وساندتهم . . وحريصة على ذلك . . وبعملية حسابية بسيطة تجد أنها تكسب أكثر إذا وقفت إلى جانب العرب . . وخصوصا عرب الخليج . .

نحن نسميه . . الخليج العربى .

وفى إيران يسمونه . . الخليج الفارسى .

وفى كل مكاتب المسئولين خريطة للخليج (الفارسى) ولا يقبلون المناقشة فى هذه التسمية التاريخية . .

أما من الذى أطلق عليه أسم الخليج (العربى) فشرف عظيم تدعيه كثير من الدول العربية .

قال لى أحد وزراء الكويت أن الكويت هى أولى الدول التى أطلقت عليه هذه التسمية . .

وأذكر أنه عندما انعقد مؤتمر الأدباء فى الكويت وقف أحد شعراء اليمن يقول إن الأمة العربية تمتد من المحيط الأطلسى إلى الخليج الفارسى . .

فضحك الحاضرون وقال واحد منهم . . الخليج الفارسى . . وليس المحيط .

فرد الشاعر اليمنى قائلا . . لقد صيره كرمكم محيطا . .

وعندما غادرت إيران قلت للصديق الذى رافقنى واسمه نور الدين شاهرودى : والله ستوحشنا يا أستاذ نور الدين .

ولكى أؤكد هذا المعنى فسوف ألقى بنفسى من الطائرة فى الخليج العربى حزنا على فراقك .

فقال وهو متجهم الوجه : الخليج الفارسى يا أستاذ أى أنه لا يهم أن أموت أو لا أموت . . المهم أننى عندما أسقط من الطائرة يكون ذلك فى مياه فارسية .

وعندما اتجهت إلى مطار شيراز . . كنت أعرف ما الذى سوف يحدث . . لقد جربته قبل ذلك . . وضقت به ولكن عذرت الحكومة الإيرانية . .

لابد من التفتيش . . التفتيش الدقيق على كل مامعى . . وعلى كل مافى جيوبى إنها اجراءات الأمن . .

ولكن بمجرد أننى أنتقلت بعيدا عن شيراز ومدينة الخيام شعرت أن إنسانيتى قد ردت إلى . . إننى أصبحت فلانا الفلانى وعلى حريتى . .

وحتى عندما كنت فى شوارع طهران أشعر بأننى فى أحدى العواصم الأوربية وإن كان أكثر الذين يمشون فى الشارع لهم ملامح مصرية . .

إلا عندما دخلت البنك الكبير (بنك ملى إيران) أى البنك الوطنى الإيرانى .

وإلا عندما نزلت بضع سلالم . . ثم بضع سلالم مارا بالحرس ، ومزيدا من الحرس . . ثم من الباب الحديدى . . أغلظ باب حديد رأيته فى حياتى . . الباب يشبه الخزانة تماما . . ومتصل به أسلاك كهربية وعيون الكترونية . . ما هذا . . هنا مجوهرات التاج الإيرانى . . هنا فقط يشعر الإنسان بأنه هو وما يملك وما يملك غيره من الناس . . إنه ولا حاجة ولا أى حاجة . .

هنا منطقة
انعدام الوزن
ولكن تحت الأرض!

(٥)

الذين عادوا عقب المهرجان من إيران يقولون ان الشوارع ما تزال مضيئة .. الزينة معلقة .. الخيام مفتوحة .. ان الحكومة مصرة على أن تضئ الطريق بين أيدى السياح وجيوبهم .. لأنها تريد أن تجمع من كل الناس ما أنفقته على مهرجان الملوك والرؤساء .. .. أن تتقاضى ثمن الشراب والنوم .. ووزن كل ريشة من جناح الطاووس .. ذهبا وماسا ..

إن طهران عاصمة إيران ، ولكنها مدينة فقدت ذاكرتها .. فليست لها ذكريات إلا هذا المهرجان .

هناك أسطورة إيرانية تقول .. إن هناك أخوين .. الأصغر هو الغنى .. والأكبر هو الفقير ، وهو كذلك شديد الحزن ولكنه لايدرى سببا لهذا الظلم الواقع عليه والواقع فيه ، ومشى على وجهه فى الجبال قابله رجل يرتدى ملابس سوداء ..

قال له الأخ الأكبر من أنت ؟

أنا حظ أخيك

آه .. أنت إذن مصدر تعاستى ، ألم تقابل حظى

حظك نائم فى أحد الكهوف إذهب وابحث عنه

سوف أذهب إلى هذا الكهف وأوقظ حظى النائم .. أو حظى الميت ؟

وانطلق الأخ الأكبر بين الجبال يفتش بين الكهوف لعله يجد حظه الذى نام عنه .. فقابله فى الطريق أسد .. قال له إلى أين ؟

قال أبحث عن حظى الذى نام عنى

قال له الأسد إن قابلته فأرجوك أن توجه إليه هذا السؤال

لماذا كلما أكلت ازددت جوعا .. فوعده أن يفعل .

وفى الطريق قابله فلاح فى حقله .. وطلب إليه الفلاح إذا ما قابل الحظ أن يوجه إليه هذا السؤال لماذا لم تعد أشجارى تحمل الثمار .

فوعده بأن يسأل له الحظ عن ذلك .. واستأنف الأخ الأكبر بحثه عن الحظ بين الوديان والجبال ثم دخل إحدى المدن .. وأمسكه رجال البوليس فالملك قد أمر بأن كل غريب يدخل المدينة يجب أن يلقوا القبض عليه وسأله الملك ما الذى أتى بك إلينا ؟

فقال الأخ الأكبر مولاى إنما جئت أبحث عن حظى الذى اختفى فى أحد الكهوف وراحت عليه نومة ..

قال له الملك إذا قابلت هذا الحظ النائم فاسأله .. لماذا أصبح الإفلاس سائدا أرضى والإفلاس قد قتل شعبى .

ووعده الأخ الأكبر ومضى يبحث عن الحظ ونزل واديا وصعد إلى جبل .. ودخل كهفاً وراء كهف .. وأخيرا وجد طريقا مرصوفا .. والطريق ينتهى بأحد الكهوف .. وفى جانب من الكهف وجد رجلا نائما .. وكان نومه صارخا فهو ينفخ الهواء بعنف ويسحبه بعنف .. واقترب منه ثم ضربه برجله .. وصحا الرجل النائم .. وفتح عينيه ..

فقال له الأخ الأكبر جئتك من آخر الدنيا وعندى لك ثلاثة أسئلة.. ولابد أن أسمع الإجابة عنها . وإجابة الحظ عنها .

وانصرف الأخ الأكبر ..
وقابله الملك عند مدخل المدينة .. وقال له ..
هل أيقظت الحظ ؟
فقال .. نعم
فماذا قال لك ؟
ان مملكتك مشرفة على الإفلاس لأنك امرأة والمرأة إذا حكمت تحكمت..
وإذا تحكمت خربت الدنيا ..
هذا صحيح . . وأنت الوحيد الذى تعرف سرى فتزوجنى فيكون لك العرش والمال والجمال .
لا يجب .. أن أعود إلى بيتى .. فما دام الحظ قد صحا فسوف أكون غنيا مثل أخى .
سأجعلك أغنى من أخيك وأسعد منه .
ولكن الأخ الفقير رفض وترك المدينة
وبعد أن هبط أحد الجبال وصعد الذى يليه وجد الفلاح ينتظره فى الحقل فسأله :
ما الذى قاله لك الحظ الذى صحا ؟
قال نعم قابلته وهو يقول إن أشجارك لا تزهر ولا تثمر .. لأن تحتها كنزا .
وبسرعة جاء الفلاح بفأس وراح يحفر الأرض فوق الكنز .. ملايين القطع الذهبية .. وقال له الفلاح من حقك أن تقاسمنى هذا الكنز .. لولاك ما اهتديت إليه ..
فقال الأخ الفقير .. لا .. بل سأعود إلى بيتى ..
ان حظى قد صحا من نومه وسوف أكون غنيا مثل أخى
وقال له الفلاح إن نصف هذا الكنز يجعلك أغنى من أخيك
وقال الأخ الأكبر .. بل أريد أن أكون غنيا مثله وهذا يكفى

ولم يستمع الأخ الأكبر إلى صيحات الفلاح ومضى فى طريقه عائدا إلى البيت ووراء إحدى الصخور برز له الأسد .. هل قابلت الحظ ؟

نعم

وكيف وجدته ؟

نائما

وماذا قال لك ؟

قال لى .. قل للأسد إذا قابلت رجلا مغفلا فسارع بالتهامه .. وبعد ذلك لن تجوع أبدا ..

فقال له الأسد .. هذا هو حظك

وهذا هو حظى .

إننى إذن لم أر رجلا أكثر تغفيلا منك

وانقض على الأخ الفقير وأكله

انتهت الأسطورة الإيرانية

واختلفت تفسيرات الناس لها .. ولكن أسهل هذه التفسيرات هو أن كل شئ تحت قدميك وعند يديك .. فالذى تجده استمتع به ولا تذهب بعيدا والذى يريحك هو الموجود ولا تفسد متعتك بالبحث عن أشياء لا وجود لها إلا فى خيالك .. أو فى الكتب

أو بعبارة أخرى من رضى بالقليل عاش

هذه هى طهران.. الإيرانيون ينطقونها .. طهرون أو على الأصح تهرون وهى مدينة كبيرة .. وشوارعها واسعة وعماراتها عالية . ولم تكن لها أهمية قبل مائتى سنة .. ثم أصبحت عاصمة الملك من حوالى خمسين سنة وتركزت فيها الفلوس وأقام أصحاب الفلوس بعض أوقات السنة فلهم وللأمير أيضا بيوت أخرى فى أماكن مختلفة للشتاء والصيف .

تقول الأديبة الإيرانية أمينة باكروان أن طهران مدينة ليست لها ذاكرة أو ليست لها ذكريات فلا تحاول أن توجع رأسك بالبحث عن أصلها وفصلها .. ففيها شوارع لها أسماء .. والأسماء لا معنى لها .. وفيها أحياء ما كان يجب أن توجد فيها .. المدينة كانت مدفونة تحت الأرض ثم خرجت والناس نيام .. خذها كما هى .

شكرا يامدام أمينة .. فقد أرحتنى من البحث من كلمة (خيابان) الموجودة فى كل شارع وتشاءمت عن هذه الكلمة فقد تصورت أنها هتافات معادية لى . وكانت ترن فى أذنى هكذا خيبان .. أى إننى خيبان .. مع أن هذه الكلمة معناها : شارع ..

وعلى النواصى تجد بائع الصحف .. الصحف بكل اللغات المتباعدة العبرى والروسى والصينى والألمانى والفرنسى .. والأغلفة تدلك على المؤلفين فهذه مؤلفات ماوتسى تونج .. وماركس ولينين .. وهمنجواى ومالرو .. ولا تجد عند أكشاك الصحف كتبا إيرانية .

وورائى وجدت بائع السجائر . وسألته عن نوع من السجائر انتجته إيران بمناسبة المهرجان ولكن حركة تناول البائع لهذه السجائر تدل على مدى احتقاره لها .. أو احتقاره لمن يشربها لم أفهم .. ولكن لاحظت أننى عندما أقدمها للإيرانيين يقولون أنهم لم يسمعوا بها .. ولا داعى طبعا للمناقشة لأن المعنى أن هذه السجائر قد ظهرت فى الهيصة وأن أحدا لا يمكن أن يتنبه إلى ظهورها على الأرصفة فى نفس الوقت الذى يصل فيه الملوك والرؤساء .. ربما كان هذا هو المعنى .. ولكن بعد ذلك لاحظت أن معظم السجائر التى تباع على الرصيف أمريكية .. وعلب الكبريت من أعواد الشمع الأمريكية .. وأن هذه السجائر قد عبثت فى إيران.أدركت أن أحدا من الناس المحترمين

لا يشرب السجائر الإيرانية .. مهما كانت جديدة .. وامتدت يدى إلى السجائر الأمريكية كما فعل الناس فى مصر أيضا وامتدت الأيدى إلى سجائرى.

ولاحظت أنهم فى طهران يكتبون الأسماء الأجنبية خطأ .. كما يحدث فى القاهرة .. انهم التجار الجهلة .. وإنهم الزبائن الكسالى الذين لا ينبهون أصحاب المحلات إلى أنهم جهلة .. وإنما يشعرون بشئ من الإرتياح عندما توجد الفلوس مع الجهل فى دكان واحد .

وما هذا

إن عددا من الشبان يعاكسون الفتيات .. كما يحدث فى شوارع سليمان وعماد الدين وقصر النيل . . وشارع الجامعة فى الجزيرة فى الشارع الأخير بعد أن أظلم تماما فى الليل .. سألت الذين يعرفون الفارسية وماذا يقول هؤلاء الشبان؟..بعضهم أحمر وجهه خجلا.ولكن اهتديت إلى واحد لايصعد الدم إلى وجهه فهو أيضا أحد الذين يعاكسون .. قال لى .. ولا حاجة أنهم يقولون للفتاة .. ياقمر .. أنا قتيل شفتيك .. ساقيك .. نهديك ..

آه .. نفس الكلمات التى يقولها الشبان فى كل البحر الأبيض المتوسط .. انهم فى شوارع روما يقولون نفس الكلمات مع تأكيد المعنى الذى يقصدونه باللمس .. وأحيانا بالنكت القبيحة .. لأن هناك نظرية فى المعاكسة تقول من استطاع أن يفتح شفتى الفتاة يفتح قلبها .. ونظرية أخرى تقول .. الفتاة وكل فتاة .. كالشجرة المحملة بالثمار .. هزها .. تتساقط هى قبل ثمارها ولأن هناك نظرية ثالثة تقول : ليست الكلمات الرقيقة هى التى توقعها وإنما الكلمات التى تصدمها وتصطدم بها .. والنهاية مضمونة .

وفى شوارع طهران يجربون كل هذه النظريات ويبدو أن هناك نظريات أخرى يجربونها ولكنى لم أفهمها أو لم أجد أحدا يشرحها لى .. مثلا هذا المنظر .. كنت أمشى فى شارع الفردوسى أجمل شوارع طهران ، الفردوسى هو أمير الشعراء .. الفتاة صغيرة عمرها ١٤ عاما إذا نظرت إلى وجهها

و١٨ إذا نظرت إلى صدرها .. وإذا نظرت إلى ساقيها .. أو هكذا تصورت.. اقترب منها شاب .. ولمس كتفها بكتفه .. ثم ابتعد عنها .. وعاد إليها .. ولمس كتفها الآخر بكتفه .. وتركها ثم عاد إليها من جديد وهو يصر .. وأنا مصر على أن أفهم ماذا جرى هنا .. وعند كشك الصحف وقفنا نحن الثلاثة لا هو تكلم .. ولا هى .. وإنما يقلبان فى المجلات والصحف .. ولا شئ أكثر من ذلك .. وهما يتباعدان .. وبسرعة امتدت يد الشاب إلى صورة الحسين بن على .. ثم امتدت يدها إلى صورة على بن أبى طالب .. وتجاورت الصورتان .. وعن غير قصد سقطت فوقهما صورة بريجيت باردو .. وانتهز الفتى والفتاة هذه الفرصة ليمشيا متجاورين ويضع يده فى يدها ويتكلمان .. ويحول بينى وبينهما عشرات الناس لابد أنها نظرية جديدة ..

وأدخل مدينة الملاهى .. انها أقرب إلى ما يحدث فى الموالد عندنا .. هذه المدينة لا أعرف سبب اختيارها بجوار السفارة العراقية .. إنها مقلقة للراحة .. كما أن العراق مقلقة لراحة إيران كلها .. وفى المدينة أطفال يغنون بأصوات جميلة .. والناس يقولون ما معناه .. الله ياسيدى .. كمان وحياة على – هنا طبعا لا يقولون

كمان والنبى .. وعلى هو على بن أبى طالب .

ووجدت فتاة ترقص .. ووجدت ضرب النار ولعبة النشان .. ومن يقول فتح عينك تأكل الملبن .

وأعود إلى الأديبة أمينة باكروان فى كتابها (صاحب البيت ذلك المجهول) تقول ومدينة طهران أعجوبة فى أنها لا تحتاج منك إلى وقت طويل لتعرف من هى فالذى تعرفه عنها يكفيك أنها سيدة بلا أسرار .

وهذه السوق الفريدة العجيبة أسمها (سوق الحرامية) فى هذه السوق

من الممكن أن تجد كل شئ فقده أى إنسان ومن الممكن أن تجد أشياء كثيرة مفقودة منك .. ولكن السوق لا تبيع شيئا الآن .. الحرامية فى السجون والسبب المهرجان الكبير والملوك والرؤساء من ٧٠ دولة .

ويقال إن الأتوبيسات هنا يملكها ضباط الشرطة وبذلك فهذه الأتوبيسات عبارة عن أقسام بوليس متحركة لا سارق ولا مسروق فكرة معقولة جدا .

ومن الشئ الذى يلفت نظرك فى طهران ، كما كان فى القاهرة من عشرين عاما ، أو مدن الريف فى مصر أن المشاة من الرجال . أو من الفتيات الصغيرات والإيرانيات الصغيرات أجمل .. ولكن شيئا غريبا يحدث للفتاة الإيرانية بعد الزواج .. إنها تكبر بسرعة .. وهذه مشكلة لم أسأل عنها أحدا من الرجال .. ولكن مهما تقدمت المرأة فى السن بسرعة فإنها تموت على مهل .. أما الرجال فى كل الدنيا فيموتون بسرعة ولا تغرك هذه الشوارب الضخمة التى يحرص عليها الإيرانيون والتى يحبونها .. لعلها تعجب النساء أو لعلها نكتة .. الرجل يربى شواربه والمرأة تربى الرجل .

ومن الغريب أن تجد فى القصر الملكى جولستان قصر التتويج — قاعة بها من ملوك أوروبا مثل اسكندر الأول والثانى .. والامبراطور النمساوى فرنتس ويوسف والملك الإيطالى فيكتور عمانويل . ولا صلة بين الأربعة ،ولكن لو أعدت النظر لوجدت الصلة أكيدة فهم جميعا من أصحاب الشوارب الإيرانية الغليظة .. وهم يمتازون أيضا وليس هذا واضحا فى الصور بأن لهم زوجات قد اختارهن الموت برفق . . مع أن الشنق كان ملجأهن الوحيد .

وبعض المشاة فى طهران مثل المشاة فى بولاق .

ولكن أحياء طهران أنظف .. يرتدون البيجامات .. بعض البيجامات مرفوعة إلى ما فوق الركبة .. الساق اليمنى فقط .. سألت : ايه الحكاية ؟

قالوا .. ولا حاجة مجرد دلع .. ورأيت صاحب البيجاما المرفوعة فوجدته من أبناء الريف ، ولا شئ يدل على هذا الدلع .. ولا توجد مناسبة لاستعراض الساق المعروقة والتى هى جلد على عظم .. سألت فقيل لى: أبدا ولا حاجة .. انه رجل كامل .. وهذا نوع من التهوية .. كما يفتح الإنسان زراير القميص بسبب شدة الحر ..

قلت معقول ..

وكان الجو باردا .. وسكت ولم أفهم .. ورأيت هذا المنظر كثيرا .

أما الشبان فهم على الموضة .. البنطلونات ضيقة والقمصان حمراء والشعر خنافس والياقات بيضاء يمكن خلعها فى أية لحظة .

ويسمون هذه الياقات بالفرنسية .. فوس كول أوفوكول .. أى الياقة الزائفة .. وأطلق عليهم الإيرانيون كلمة فوكولى (المايصون) .. والبغبغانات كما يسمونهم الإيطاليون لأنهم (يغنون على) البنات فى الطريق

وبعض النساء يرتدين الملاءات السوداء..لابد أنهن متحفظات .. بعض الفتيات الصغيرات جدا – فى العاشرة يرتدين الملاءة أيضا – مع أن الملاءة لا تخفى أى شئ.. فى العراق ترتديها المرأة وتحتها فساتين فوق الركبة.. ومن الغريب أن المرأة لا تقف فى الشارع وإنما على الناصية فقط .. وبذلك تتعرض – عن قصد – للهواء الذى يظل يطوح بالعباءة ويرفع الفستان..وفى الكويت كذلك .. وإن كانت فى الكويت توجد فساتين أشيك وأقصر ..

وفى شارع الفردوسى توجد أضخم المحلات وأكبرها . وكل فلوس أهل طهران أو سكان إيران تضيع هنا فى شارع الفردوسى كما تضيع كل فلوس رجال القاهرة أو رجال مصر فى شارع قصر النيل .. أو فى مائة متر اسمها شارع الشواربى ولكن لاحظت أن بعض المحلات الكبرى مقفلة.. فقط المحلات الكبرى ليست فى حاجة إلى الفلوس .

ولم يكن الجواب صحيحا فنحن فى يوم السبت وأصحاب هذه المحلات من اليهود .. والأسماء واضحة كوهين وليفى وجولد برج وسليمان وشولوم.. وشالون واشتين .. وهم أكبر تجار السجاد فى إيران وفى العالم كله .

– قولى من فضلك ..

أنا الذى أسأل إحدى السيدات .. ولكن الذى حدث جعلنى أتذكر عبد الحليم حافظ وهو يقول قولى لى مين زيك .. لم يجيب على ذلك .. والله مالك زى ..

لأننى عندما قلت لك ذلك اعتدلت على الآخر .. وتعلقت العباءة من كتفيها..وبرزت من تحتها وكأنها تمثال من الرخام الأبيض.. واننى يجب أن أمد يدى إلى الأمام حتى لا يسقط فوقى .. وكان فى نيتى أن أسألها كم يساوى الريال الإيرانى ..

ولكن عندما رأيت إزاحة الستار الأسود عن هذا التمثال المفاجئ قلت لها بالإنجليزية : هل صحيح أن كل ثروة إيران فى البترول والسجاجيد والكافيار والقطن ..

وقالت .. لم أفهم .. ولا تؤاخذنى ..

وأعدت السؤال وأجبت عنه .. اعتقد أن ثروتها فى ذوق نسائها أيضا .. أو ذوق رجالها الذين يختارون أجمل الألوان لنسائها .

ولم أكن هذا الذى أريده .. وإنما اضطررت إلى ذلك . وعرفت فيما بعد أننى كنت فعلا أريد أن أسأل عن البنك المركزى .. أى عن المكان الذى توجد فيه وتحته .. نعم تحته .. ثروة إيران كلها .

وكأن الفتاة أحست أننى تراجعت فى كلامى وأن سؤالى لم يكن .. قولى لى مين زيك وإنما فقط سؤال آخر وسارت أمامى .. تماما كما فعلت الفتاة (صفورة) أو عصفورة التى تزوجها النبى موسى عليه السلام .. مشت

أمامه وهى تعلم أنه ينظر إليها جيدا .. وأنها تقصد ذلك .. وكان الهواء يجئ من الأمام .

وعبرت الشارع .. هذا هو البنك المركزى (أو بنك ملى إيران) .. الزينات التى على البنك من الخارج جميلة .. منسقة وهناك بعض الجنود يروحون ويجيئون . . حركة رتيبة لا تدل على أنهم حراس . . أو على أنهم يحرسون أى شئ .. فعيونهم على الناس وهذا اللمعان المفاجئ يدل على أن فتاة على الجانب الآخر من الشارع قد اقتربت أو بعدت فى آخر لحظة مع الأسف – أما كيف عرفت (مع الأسف) هذه فهى ترجمة من اجتهادى لمط الشفتين عند هؤلاء الجنود ، وقد لاحظت أن واحدا منهم له فردة بنطلون أطول من الأخرى .. وسألت فقيل لى .. ليست لها معنى .. وغير مقصودة .. ويمكن أن تحدث لأى إنسان وسويت بنطلونى حتى لا يحدث لى نفس الشئ أو حتى لا يقال بالفارسية طيب يا أخى شوف نفسك .

والموقف بعد ذلك فى حاجة إلى أن اتحدث عن نفسى .. شخصيا عن كل حركة قمت بها .. وكل شعور دخل وخرج منى .. لأن الذى احسست به ليس له نظير فى حياتى كلها .. والآن أتابع نفسى .

وأسلط نفسى على نفسى .. نزلت بعض الدرجات والسلالم عادية .. الناس يضحكون .. وأنا أيضا .. ولا يوجد سبب لذلك .. ولكن عندما لا يجد الانسان ما يفعله فمن الأسهل – والأفضل أيضا أن يضحك .. ونزلت بعض الدرجات كانت هناك سيدات يبعن الصور الملونة – لا شئ يلفت النظر فى مداخل متاحف العالم مثل هذا المنظر .. ونزلت بضع درجات .. الإبتسام على الوجوه أقل .. بعض الناس قد جلسوا على المقاعد لابد أنهم تعبوا من اللف أو الدوران أو أى شئ آخر .. فقط هنا أثنان من الحراس .. ليس معهما سلاح .. ولكن الملامح جادة .. والباب .. هذه هى البداية .. الباب من الحديد سمكه ٧٥ سنتيمترا .. وضعت يدى على الباب أنه.. حديد فى

حديد .. مفتوح .. مدخل المتحف حديد فى حديد .. الإضاءة خافتة .. العين لا تستريح بسرعة .. فأنت محتاج إلى بعض الوقت لكى تعتاد عيناك على الظلام – وسوف أعرف فى النهاية أن العين لا يمكن أن تستريح ولا النفس أيضا ..

هذه أول خطوة إلى داخل متحف (مجوهرات التاج الايرانى) .. فترينات من الزجاج السميك الذى لا ينفذ منه الرصاص .. وإن كان من المستحيل أن يدخل أحد ومعه مسدس أو سكين أو قنبلة يدوية .. فالباب الذى دخلت فيه به عيون ضوئية الكترونية لاكتشاف مثل هذه الأسلحة .. فإذا كان معك مسدس طفل دقت الأجراس وأغلق الباب فى ثانية واحدة ..

أول فترينة تواجهنى هى فترينة مخصصة لأكبر قطعة من الماس فى العالم .. أدور حولها مع الناس .. بعض الناس لا يصدق أن هذه القطعة التى وزنها ١٨٢ قيراطا من الماس .. يقولون إنها لا تلمع .. ويقولون لابد أنها من الزجاج ..

لا تنس أن هذه أصوات نسائية .. ولا تنس أن أكبر قطعة فى إصبع أية واحدة لا تزيد عن قيراط ونصف أو قيراطين أو ثلاثة على الأكثر .. وأن هذا الخاتم الذى فى إصبعها قد انفقت عليه الشئ الكثير .. عددا من الفساتين والأحذية والشنط وحفلات الغذاء والعشاء لكى تحرق بهذا الخاتم قلوب النساء الأخريات .. ولا تحرق دم الرجال الذين يشترون هذه القراريط من الماس والأحجار الأخرى .

وبعض الذين يتفلسفون يقولون لابد أنهم نقلوها إلى مكان آخر خوفا من اللصوص .

ولكن لماذا لا ينقلون هذه المئات من ألوف قطع الماس الأخرى وإلى أين ينقلونها ؟

وتتوالى بعد ذلك الأسرة المالكة الايرانية أو على الأصح العائلات المالكة فى ايران .. فلم تحكم ايران أسرة واحدة .. وإنما عشرات من الأسر المالكة .. وقد تركوا التيجان والعروش ومئات البروشات الفخمة النادرة والأقراط والعقود .. وأدوات الكتابة وأدوات الطعام .. مئات من الزمرد والياقوت والعقيق والزبرجد لعلك تلاحظ أننى لم أصف الكثير من الفترينات الموجودة .. ولم أقل كم عددها ولا حتى محتوياتها .. و لاتاج الإمبراطور ولا تاج الإمبراطورة ولا عرش الطاووس .. والسبب هو أننى يئست بسرعة من الذى رأيته .. ويئست بسرعة من أن أجد كلاما أصف به جبال الماس والياقوت والزمرد والعقيق والزفير والسبيلين والكتريكراز .. فالذى أراه أمامى من أغطية الرأس وأغطية الأطباق والأكواب لا يمكن أن توصف ولا يمكن أن تقدر بمال .. ملايين من الأحجار الكريمة بملايين من الجنيهات وبعض الخبثاء حولى يقولون يمكن أن تكون كل هذه الأحجار فى خزائنها المالية .. ثم وضعت بدلا منها احجار زائفة .

ولكن وهذا شعورى المتواضع كل المتفرجين فى حالة دفاع عن النفس — وخصوصا السيدات كل واحدة أحست أن الذى تحمله فى صدرها وحول عنقها وحول أصابعها وفى بيتها يساوى وزنه ترابا .. وان هناك احجارا أفخم ملايين الملايين من المرات من الذى عندها وعند أهلها .. أى عند شعبها من أوله لآخره أيا كان هذا الشعب أوربيا أو أمريكيا .. وانها أى كل سيدة أحست أنها ولا حاجة .. إن هذا المتحف قد جردها من أعز ما تملك .. وأنها شعرت بخيبة أمل .

هنا أتذكر العبارة الجميلة التى قالها الشاعر الألمانى فريدريش شيار فى قصة « الحب والدسيسة » يقول أن الله كان رحيما بنا عندما اخفى عن الناس عظمته .. ليشعر كل إنسان بأنه عظيم .

وعندما طلب موسى أن يرى الله ..

قال سبحانه لا تستطيع أن تراني .. ولكن تستطيع أن ترى أثاري على هذه الشجرة مثلا ..

ولما تجلى الله على الشجرة احترقت . . ولكن موسى –كأى يهودى عنيد– اراد أن يرى الله .. وكان من الصعب عليه أن يراه ومن المستحيل أن يقوى على ذلك .. فنحن لا نستطيع أن نفتح عيوننا فى قرص الشمس .

ولذلك فالإنسان عظيم إلى أن يقف أمام الله .. تافه .. والإنسان طويل إلى أن يقف أمام الجبل .. فهو قزم .. وكل سيدة ملكة إلى أن تدخل هذا المتحف فهى متسولة على باب الله .. فالذى فى أصبعها لا يزيد عن سمسمة أمام بطيخة نمس .

كأنها كانت ترى الدنيا على ضوء عود كبريت وسعيدة بذلك .. ولكن فجأة دخلت برجلها إلى قرص الشمس فما الذى يفعله عود الكبريت والشمس طالعة .

هذه هى منطقة انعدام الوزن ..

أو منطقة انعدام الوزن على الأرض .. تحت سطح الأرض ..

ولا أقول إننى شامت فى عشرات السيدات اللآتى ذهبن .. ولكن هو نفس شعورى وشعور أى إنسان إذا ذهب إلى البنك المركزى فى القاهرة أو البنك الوطنى فى الكويت أو بنك انجلترا فى لندن . . ثم رأى العربات محملة بالدولارات والجنيهات .. فإذا سقط على الأرض فلأن هذه العملات تحولت إلى كائنات حية .. وفى نفس واحد .. سحبت الأوكسجين الموجود فى الجو .. فكان لابد أن يختنق ويموت .. أو يكون قريبا من الموت ..

ولا يمكن أن يكون هذا الشحوب على الوجوه سببه الإضاءة الضعيفة .. لأن الإضاءة وردية مدروسة .. ولكن الوجوه انسحب منها الدم .. فجبال الماس تخطف نور العين وتنشف الدم فى وقت واحد .. ثم ماذا ..

والجواب : لا شئ .. عليك أن تستمر ..

ووجدت متعة فى الفرجة على الذين يتفرجون.. وعلى اللاتى يتفرجن .. فهذه السيدة مليونيرة أمريكية .. وهى تصرخ كأى طفل .. أوه .. ياه .. ياللهول .. يا خبر .. يا دهوتى .. نهاره اسود .. لعلها تقصد زوجها أو شاه إيران .. إنها مليونيرة وتصرخ كأنها لا تملك شراء بعض البروشات أو الدبابيس أو العقود .. أو تملك ولكنها لا تستطيع أن يكون لديها هذا كله ..

وهذه مليونيرة فرنسية يقولون إنها من أسرة روتشيلد اليهودية .. إنها تصرخ بحساب .. أو كأن صرخاتها نوع من التقسيم أو من الطبقات .. فأمام العرش مدت شفتيها لتقول .. رائع ولكنه غير مريح ..

أى أن كرسى العرش رائع من ناحية الصناعة ولكن ليس مريحا أن يجلس الإنسان على هذه الأحجار الكريمة .. لأنها احجار فى النهاية جافة باردة.

وأمام تاج الأمبراطورة فرح ديبا وقفت سيدة من اليابان تقول ممكن .

ولابد أنها تريد أن تقول أن اليابان القادرة على التقليد فى استطاعتها أن تقلد هذا التاج وكل التيجان والتحف والبنك والناس الذين يتفرجون عليه — أنا لا أصدق هذه السيدة فقد رأيت العجائب فى اليابان .

وكنت أول من خرج من المتحف .. وعندما مددت قدمى من الباب .. ووراءها القدم الأخرى أحسست أننى طفوت على وجه الدنيا .. وأننى كنت أحمل البنك طوبة طوبة فوق رأسى . . وأننى تعبت .. وأننى لم أعد قادرا على الرؤية ولا حتى على سماع شئ كأن كل الاحجار تصرخ بصوت مثل صوتها غير مسموع وانها الهبت خلاياى .. وأننى خرجت مشغول التفكير وقد عذرت الناس الذين تساقطوا على المقاعد إنهم فى حالة إغماء .. وإغماؤهم هذا تحية عظيمة لصاحب فكرة إقامة متحف مجوهرات التاج .. أعظم مجوهرات لأى تاج فى العـــالم .

فقط .. عندما صعدت درجات السلم واحدة .. واحدة .. ثم خرجت إلى الشارع .. هنا أحسست أننى فلان الفلانى .. وأن حذائى أحسن من حذاء الخمسة الذين خرجوا معى .. وأن الصوف الذى أرتديه إنجليزى .. والكرافتة فرنسية .. والسجائر أمريكية .. لقد أحسست أن كل ما كنت املكه قد عاد لى .. فهذا المتحف جردنى من كل شئ .. والآن .. كل شئ فى مكانه من نفسى ومن جسمى .. وأن شعورا قويا فى داخلى يقول .. ولكن هل أنا فى حاجة إلى كل هذا والجواب طبعا لا ..

ولكن هناك شعورا بالضيق واليأس عند كل الناس .. فلا أحد يملك شيئا من ذلك ولا أمل عنده .. ولابد أن شعورا آخر يرد على هذا الشعور ولكن احدا من ملوك الدنيا لا يملك شيئا من ذلك .. فنحن والملوك كلهم أمام هذا البنك على قدم المساواة من الفقر واليأس والغيظ .. وعدم الارتياح .. وأن الراحة الكبرى فى الشارع .. ففيه الحرية وفيه الناس يتباعدون .. وفيه الناس معا .. وفيه هواء أكثر .. وكميات لا تنتهى من الأوكسجين الذى ينعش العين والأذن والقلب والعقل .. وفتح الشهية لكل شئ .. للطعام مثلا .

ولا أعرف كيف جاءت كلمة الطعام هذه .. ولكن أعتقد أن الإنسان فى حالة الدفاع عن النفس يستهلك الكثير من حرارته .. فيجوع .. ومعظم الذين يغضبون يأكلون أكثر .. لأن حاجتهم إلى مواد جديدة .. مثل حاجة الفرن إلى وقود .. ثم إننا أمام هذه الإشعاعات الميته يتمسك الإنسان بالحياة .. بالطعام .

وفى شوارع طهران نجد لافتات كبيرة كلها تقول .. شيلو كباب .

وهذا الشيلوكباب فيها أهم طعام يومى وهو على كل مائدة .. مثل الملوخية أو فتة الكوارع عندنا فى مصر .

ومعظم الأطعمة الإيرانية أرز .. والأرز الإيرانى طويل .. ثلاثة أمثال الأرز المصرى .. وأخف وطعمه أحسن .. والسمن فيه أقل .. أو هم

لا يستخدمون السمن .. هذا المطعم ملئ .. والإيرانيون برعوا فى النقش على الزجاج واستخدام الجبس .. لا أظن أحدا قد تفوق عليهم فى ذلك ..

جاء الجرسون وقال له أحد الأصدقاء بالفارسية ما لا نعرف بالتفصيل .. وجاءت زجاجات الزبادى .. الزبادى مع المياه المعدنية .. وأنا أحد مدمنى الزبادى وعسل النحل الذى هو من نعيم الدنيا والآخرة . . وجاء الخبز طويلا عريضا مليئا بالثقوب ويخبزونه على الحجر أو على التراب الساخن .. ثم جاءت الزبدة بكمية كبيرة ثم جاء البيض ثم جاء الأرز ساخنا . . وعليك أن تأتى بالزبد وتقليه على الأرز الساخن وسوف تسمع للزبدة صوتا وهى تسيح .. ثم تقوم بعمل فجوة فى طبق الأرز .. وتضع فى هذه الفجوة البيضة التى كسرتها .. صفار البيضة فقط .. ثم تلقى بالبياض بعيدا وبعد ذلك عليك أن تقلب الأرز والزبدة والبيض وتضع بعض اللحوم وتأكل بالهناء والشفاء فإذا لم تجده لذيذاً فعلك حق .. أنا لم أجده كذلك .

والمطبخ الإيرانى لا هو كالهندى الملئ بالتوابل والبهارات ولا هو كالمطعم الصينى الذى هو أعشاب مسلوقة وتوابل ولا هو كالمطبخ العربى القائم على اللحم المشوى .

إنه شئ آخر وأفضل أن تأكل الأرز أينما وجدته فهو أحسن وألذ .. وأما الفواكه فعندهم كل الأنواع وهم يأكلون البطيخ .. ونوعه أخضر وقشرته غليظة ولكن طعمه لذيذ .. أما الخيار فهو كثير أيضا .. ويأكلونه على أنه نوع من الفاكهة .. وكذلك فى العراق .

سألت الجرسون عن معنى الأبيات المنقوشة على الجدار : هل هذا شعر عمر الخيام ؟ قال : نعم ..

قلت : ماذا يقول .. فقال ما معناه لا تضع وقتك فى السؤال عن شئ .. وإنما انتهز الفرصة وأستمتع بالطعام فليست لك إلا هذه الحياة .

وضحكت وقال ما الذى أضحكك ؟

قلت : إنك اخترت أحسن ما فى رباعيات الخيام .. أخذت ما يناسبك تماما ..

وهز رأسه بما معناه أن هذا صحيح ..

وعدت إلى رباعيات الخيام أبحث عن هذا المعنى فوجدت الخيام يقول من ترجمة أحمد رامى :

اشرب فمثواك التراب المهيل   فلا حبيب مؤنس أو خليل

وانشق عبير العيش فى فجره   فليس يزهو الورد بعد الذبول

وفى الليل قررت أن أتناول عشاء ايرانيا وضغطت على الكلمة الأخيرة .. وجاء العيش أشكالا وألوانا .. إنه كالعيش الفلاحى عندنا لذيذ .. وجاء الكافيار الذهبى الأسود .. أحسن كافيار فى العالم .. إنه فى متناول أى أحد .. ولم يعد فى متناول الألف عائلة الإيرانية التى كانت تحكم إيران وتملك ارضها وغاباتها — الغابات ١٨ مليون فدان .

الكافيار موجود فى أماكن كثيرة للاستهلاك والتصدير وهو يجئ فى المرتبة السادسة بعد البترول والمنسوجات والسجاد والغابات .

وفى عيد النيروز أو السنة الجديدة يأكلون سبعة أطباق تبدأ كلها بحرف س .. وعلى المائدة يضعون زهرة ورد النيل الملعونة فى مصر والتى تهدد الترع والمصارف وتقتل الأسماك والتى نخشى أن تغطى بحيرة ناصر يوما ما وفى ذلك هلاك للأراضى المزروعة فى مصر كلها .. ثم يضعون حوضا زجاجيا به سمكتان .. ويتفاءلون بورد النيل والسمك .. مع أن الكثيرين فى البلاد الأخرى يتشاءمون من وجود السمك الصغير فى البيوت .. أكثر النساء يرين أن السمك يؤدى إلى الفراق بين الأزواج تماما كضياع منديل أو أخذ منديل .

ومن الأسهل أن تتناول طعاما أوربيا .. ولكنه ليس أفضل طعام لمن يريد أن يعرف .. فإذا عرف كتب للناس عما رأى ..

وبعد تناول الطعام يستحسن أن تشرب الشاى .. ولا اختيار لك فى شرب الشاى .. فهو ضرورى فى كل مكتب وكل بيت .. ولم ألاحظ أن الإيرانيين يضعون السكر فى أفواههم ثم يشربون عليه الشاى كما تقول الكتب .. فكل الذين رأيتهم من كبار رجال الدولة لا يفعلون ذلك .. إنهم أوربيون جميعا .. أى تعلموا فى أوربا .. ولكن فى أحد المقاهى ضبطت عشرين واحدا يلتقطون السكر ويضعونه فى أفواههم ووراءه الشاى .. الآن فقط عرفتَ سر تساقط الأسنان .. إنه هذا السكر .. وكنت أتصور نفس الشئ فى جزيرة مالى فى أندونيسيا .. ولكن فى هذه الجزيرة لابد أن يجئ المأذون بمبراة ويزيل الطبقة اللامعة فوق الاسنان وبين أسنان العروسين لأن الشر يسكن بين الأسنان .. ولا يمضى وقت طويل حتى تكون أسنان العروسين قد تساقطت .

أما البيوت الإيرانية التى دخلتها فمن الطبيعى أن تجد فيها السجاجيد أشكالا وألوانا وأحجاما .. وعلى الأرض وتحت الأقدام وعلى الجدران .. وأن تجد النجف والفازات الكريستال والصناعات المعدنية الرائعة .. وفى إيران قصور جميلة غير القصور الملكية .. هناك السفارات .. فسفارات روسيا وأمريكا وبريطانيا عبارة عن مدن منفصلة بحدائقها الرائعة الفخمة .. بعض السفارات لها فروع صيفية أو شتوية .. السفارة الأمريكية هى التى تولت دهن مقاعد الحدائق العامة على حسابها وفى حدائق هذه السفارة بعض الفيلة التى اشترتها من الهند .

وأكثر السفراء من المستشرفين ..

والسفارة المصرية كانت تسكن فى ذلك القصر الجميل الذى أهداه الشاه إلى مصر أيام كانت زوجته هى الأميرة فوزية أخت الملك فاروق .. والقصر

آيل للسقوط الآن .. ولكنه من الداخل تحفة فنية .. وما تزال أدوات الطعام عليها التاج الملكى المصرى تماما كأدوات الطعام فى معظم سفاراتنا فى الخارج كسفارتنا فى لندن مثلا ومعظم هذه الأدوات ملقاه على الأرض عهده .. وهناك تحف من الزجاج والخشب فى مبنى السفارة القديم .

أما المبنى المؤقت فهو مبنى متواضع المدخل والغرف ولذلك فمبنى السفارة القديم متحف سوف يتحول إلى كوم تراب قريبا إن شاء الله ..

لا أعرف ما الذى جعلنى أتذكر قول عمر الخيام :

زخارف الدنيا . . أساس الألم وطالب الدنيا .. نديم الندم
فكن خلى البال من أمرها فكل ما فيها .. شقاء وهم

ولكن كيف يا أستاذنا الخيام يعيش الانسان ويضطر إلى أن يعيش وأن يرى ويسمع ويتعب ويستشعر الظلم ثم لا يطلب العدل .. أى المزيد من الطعام والشراب والمجوهرات .. كيف ؟

عاشر من الناس كبار العقول وجانب الجهال أهل الفضول
واشرب نقيع السم من عاقل واسكب على الأرض دواء الجهول

ولكن يا استاذنا الخيام إذا كان الجهال هم الأغلبية .. وإذا كانت الأغلبية فى الدنيا هى التى تتحكم فى مصائر الأقلية من أمثالك . . فماذا نفعل ؟

يقول عمر الخيـــام :

إذا بلغت المجد قالوا زنيم وإن لزمت الدار قالوا .. لئيم
فجانب الناس ولا تلمس معرفة تورث حمل الهموم

وأستاذنا الشاعر الصوفى الفلكى عمر الخيام لم يطبق بيتا واحدا من شعره .. فمات وهو يحلم بأن يطيل الله عمره لعله يستطيع .. ولم يطل عمره وإنما طال عمر شعره وسوف يطول إلى نهاية العالم .

أما كيف تستطيع فتاة صغيرة لا تقرأ ولا تكتب أن تمد اصابعها فى الضوء الباهت وتختار خيطا واحدا من أربعين خيطا وأحيانا من ثمانين فهذه معجزة صناعة السجاد فى ايران .

وأما كيف أن معهدا كل همه أن يجمع الثعابين من كل ايران والعالم ويضغط على رأسها لتبصق السم،الوف الثعابين أنا جربت ذلك .. فهذا هو كفاح رجال العلم من أجل كثير من الأمراض فى العـــالم .

وأما كيف أنك إذا وقفت على مئذنة فى يدك كوب من المـــاء ثم وقف إنسان آخر فى مئذنة مجاورة ثم تحول يمينا وشمالا فإن المـــاء فى يدك يتحرك ويهتز ثم يسقط .. فليس هناك أى تفسير علمى لذلك .

منتهى الأفراح
والليالى الملاح

يقال أن أحد الملوك بعث بأبنائه إلى أحد المعلمين وقال له : أريد أن يكون أولادى فى أدب وثقافة أولادك .. ثم تركهم بضع سنوات ، وعاد يقول : ولكن أولادك أكثر أدبا وعلما .. فقال له المعلم : إن العلم واحـــد ولكن الطبائع مختلفة .

يقول الشاعر سعدى : ليس المهم أن يتعلم الناس ، ولكن أن تكون لهم طبائع متشابهة .

يقول الشاعر الإيرانى سعدى : إذا أردت أن تكون لك ثروة والدك يجب أن تكون عندك خبرته .. ثروته يمكن إنفاقها فى ساعات .. أما خبرته فلا يمكن تحصيلها إلا فى سنوات .

لم أسمع هذه النصيحة من أحد .. ولا كان من الضرورى أن أسمعها .. ولكنها جاءت فى أذنى وأنا اتفرج على طبقات السجاجيد التى أمامى :. مئات .. ألوف .. عشرات الألوف .. وبملايين الجنيهات أيضا .. فأنت تمسك السجادة الايرانية — العجمية فتجدها سميكة متينة .. خشنة من ناحية وحريرا من الناحية الأخرى .. أول ما يخطر على بالك أنها مصنوعة ميكانيكيا . هذه الفكرة غلط . ولكى يثبت لك أنك غلطان لن تحتاج إلى وقت طويل . فالناس هناك يعرفون دهشتك . ويعرفون كيف يقضون عليها وعليك فى لحظة واحدة .. تفضل حضرتك . وادخل .. ثم ادخل .. أنت أمام أحد المكاتب . المكتب عليها خرائط وأرقام ورسوم بيانية دقيقة .. هذه الرسومات هى مشروع سجادة عجمية .. هذا المشروع يعطى لبعض العمال .. لا تسأل عن

ثقافتهم .. إن تجاربهم أدق من ثقافتهم ، بل انهم لم يقرأوا الكثير كما تتصور وهذه الرسومات سوف يطبقونها تماما حرفيا . . أو خطيا إذا صح هـذا التعبير .. لأن الرسومات بها مربعات .. والمربعات بها خطوط . والخطوط تصل إلى ١٢٠ خطا فى السنتيمتر الواحد . . ليس مفهوما هذا الكلام . أنا مثلك لم أفهمه بسهولة .

ولكنى أحاول أن أنقل إليك ما فهمته هناك .. ولم أجربه ولن أجربه هنا .. نحن فى مصر ، وفى شارع قصر النيل عندما نتفرج على سجادة نسأل : كم عقدة من فضلك ؟

ويجى التاجر ويكون من أصل ايرانى عادة ويقول : ٣٦ عقدة . ونقول نحن بسرعة : ياه ! وهذه « الياه » ليس لها أى معنى .. غير أننا نبدى الدهشة كأننا كنا نعرف شيئا من الحقيقة مثلا كأن تكون ٣٦ عقدة هذه هى أكبر ما يمكن عمله فى السنتيمتر الواحد من السجادة .. أو يكون عددها قليلا ونحن نحتاج إلى سجادة أكثر تعقيدا .. أنا أيضا قلت : ياه .. عندما قالوا لى : أن هذه السجادة ثمانون عقدة . . وسجادة أخرى مائة عقدة .. ولم أفهم أى شئ مما قالوا .. أو مما حاولت أن أقول ..

ويبدو أنهم فى ايران قد اعتادوا على أدعياء العلم . ولذلك بدأ الواحد منهم يشرح لى كأننى لا أعرف أى شئ . فقال : إن العامل الايرانى فى استطاعته أن يجعل فى السنتيمتر الواحد أكثر من مائة عقدة . أى أكثر من مائة خيط طالعة ونازلة ومعقودة بدقة وقوة .. فى قوة الحديد وصلابته ونعومة الحرير أيضا .. ويبدوا أن هذا الكلام ليس واضحا بدرجة كافية .. ولكن هذه معلوماتى .. وبقى أن أفهم كيف يربطون العقد .. أو يعقدونها . إن لهم انوالا يدوية كالأنوال العادية التى نصنع عليها السجاد العادى فى القاهرة وأسيوط ، وليس فى المحلة الكبرى . ففى المحلة أنوال آلية .. وبعض هذه السجاجيد يتم صنعه فى خمس سنوات وفى عشر سنوات وأقل هذه

السجاجيد مساحة وقيمة فى ستة شهور .. وكل شئ له ثمن .. والثمن غال .. فالدولة تبيع من هذه السجاجيد سنويا بما يزيد عن ٣٠٠ مليون جنيه .

والوان السجاجيد ثابتة .. طبعا وكلما دست على هذه السجاجيد بالجزمة لابقدميك ازدادت جمالا .. وازدادت قيمتها الفنية .. وكلما قدمت ارتفع سعرها .

أشار أحد المرافقين لى إلى سجادة وقال : تحب تتفرج .. قلت : أحب قال : تحب تلمسها قلت : أحب . قال : تحب تشتريها ؟ قلت : لا أحب . قال : ولم لا . قلت : لأننى لا استطيع . فقال : ولكن ثمنها لايزيد عن ألف جنيه . فقلت : لهذا السبب .

السجادة لا تزيد مساحتها عن متر ونصف فى متر وبضعة سنتيمترات .. ملمسها حرير وسعرها نار ..

والدولة لها محلات خاصة لبيع السجاجيد .. وعلى السجاجيد رقابة شديدة فى البيع والشراء والتصدير .. وفى أحد المحلات وجدت أن هناك رسائل من اليابان واستراليا وكندا والسويد وجنوب أفريقيا .. ومعروف متى سيرسلون هذه السجاجيد وكل شئ يمشى بنظام ودقة وهدوء غريب .. لا كلام .. لا سلام .. لا أحد يدرى من الدنيا التى حوله مسافة أطول من خيط فى يده .. بعض العاملين من الفتيات الصغيرات .. رأيت فتاة تستطيع أن تفرز خيطا واحدا من أربعين خيطا متلاصقة فإذا قلت لها : أريد الخيط رقم ٢٧ البنى الفاتح الميال إلى الأخضر مع شئ من الزرقة .. ثم أعطيتها حبلا من مائة لون .. فإنها بسرعة الملقاط تخرج لك هذا الخيط .. وأنظر إلى عينيها . العينان عاديتان .. ليس فيهما أى بريق عجيب .. ليستا عينى الصقر الذى ينظر من الف متر على دودة فوق الحجر فى ظل الشجر .. ولكنها الخبرة الطويلة والممارسة المثمرة .

إن ايران قد تفوقت فى هذه الفنون الصغرى : الأبسطة والمنسوجات

والأوانى الخزفية والتحف المعدنية والحلى وتجليد الكتب وتذهيبها وتحليتها بالصــــور .

سألت عن عدد السجاجيد التى اشتراها الملوك والرؤساء .. فقال واحد : تقصد السجاجيد التى أهديت لهم ؟

ولم أقصد ذلك طبعا .. فلم أتصور أن أحدا يعرف .. وحتى إذا عرف فإنه لا يستطيع أن يقول .. فقلت نعم . قال : لا أعرف بالضبط .

وهذا ما توقعته .. فقلت إنما أقصد السجاجيد التى اشتروها .. فبعضهم اشترى الكثير .

قال متحفظا : إن أحد الملوك اشترى سجادة من مقاس واحد .. مع أننا عرضنا عليه أشكالا وألوانا .. قلت : هل اشترى ملك بلجيكا ٣٩ سجادة ؟ قال : سمعت أن هذا صحيح . قلت: هل اشترت عروس رئيس وزراء فرنسا ١٢ سجادة .

فقال : سمعت أنها اشترت ١٥ سجادة .. ولكن من أحجام والوان مختلفة . فهى ذات ذوق جميل .

قلت : من هو الأمير العربى الذى طلب أن تصنعوا له سجادة طولهـــا عشرون مترا وعرضها تسعة أمتار ؟

فقال الرجل : لا أعرف .. قلت : ولكنه لم يغضب عندما اقترح عليه واحد منكم أنه من الأفضل أن يبنى بيتا أحسن من البيت الذى يقيم فيه .. لأن السجادة سيكون ثمنها أغلى من البيت ؟ قال : سمعت ذلك .. قلت : هل صحيح أن زوجة الرئيس الفلبينى طلبت سجادة مرسوما عليها صورتها هى وابنتها وابنها وزوجها .. صورة عائلية ملونة واشترطت أن يكون ذلك قبل ثلاثة شهور مهما كان الثمن .

قال : حدث .. قلت : ولكن لماذا اعتذرتم ؟ فقال : السجادة تحتاج إلى سنة ونصف سنة .. ولكنها تستعجل صناعتها لأنها تريد أن تجعلها هدية لزوجها فى عيد ميلاده .

قلت : من هو الأمير العربى الذى عرض عليكم أن يبيع ما عنده من السجاجيد بنصف الثمن .. ثم أنكم رفضتهم ؟

قال : لم نرفض الصفقة ولكن رفضنا هذه الصفعة .

ولو وضعت السجاجيد الموجودة فى شارعى الفردوس وبهلوى الواحدة فوق الأخرى لأصبحت فى أرتفاع فندق شيراتون القاهرة بشرط أن نضع بعض السيارات فوق السطوح أيضا .

وفى مدينة أصفهان التى تقع على مدى الف ميل من العاصمة طهران . أو طهرون كما ينطقونها توجد المعالم الأخرى التى يفخر بها أهل ايران .

فأصفهان هذه – وأصلها أى الجنود – كانت عاصمة قديمة لإيران ولمئات السنين . المدينة يسمونها : نصف الدنيا .. وإذا كانت شيراز أصبحت الآن نصف الدنيا لأن بها الخيام الملكية الرائعة . فأصفهان نصفها الآخر لأن بها المساجد الرائعة البناء والنقش .. وهى مساجد لا نجد فيها مصليا واحدا فى أى وقت .. فالمساجد تدخلها بالجزمة .. وتمشى على البلاط .. أو على الحجارة .. وتندهش كيف أن هذه المساجد تحولت إلى متاحف .. وفى إيران وفى العراق لا يصلون الجمعة .. أو لا يعرفون الصلاة الجامعة ، لأن الإمام غائب .. فلا صلاة بغير إمام .. وغياب الإمام والأئمة ، أحد خطوط الفلسفة الشيعية – وهذه قصة أخرى .

وهم لا يصلون الصلوات فى اوقاتها الخمسة .. ثلاث مرات فقط : الصبح .. والظهر والعصر معا .. والمغرب والعشاء معا .. ويقولون : سنة عن رسول الله – وهذه قصة أخرى :

يقول الشاعر سعدى : إذا رأيت ما يدهشك ، فانتظر قليلا حتى لا تقول شيئا يدهش الناس .. ويتركوا ما فى أيديهم ليسألوا : من أى الغابات جاء هذا الحيـــوان .

معك حق .. ولذلك ابتلعت دهشتى .. ولابد أن المدن الأخرى تحقد على هذه المدينة أصفهان .. ويقولون ان أهلها : ليس عندهم أى ذوق ولا دم .. انهم تجار فقط .. يبيعون ويشترون فقط .. ولا يعرفون الله ..

وسعدى يقول : إن الذين يسكنون إلى جوار المساجد يذهبون إلى الصلاة متأخـــرين .. معك حق .. ولكن لم ألاحظ شيئا من ذلك .. فعندما دخلت السوق الجديدة الأنيقة ذات البواكى نهض تجار الذهب والأحجار الكريمة .. وهات يا سلام ويا كلام ..

واحد منهم قال : إن خاله استاذ اللغة الفارسية فى القاهرة .. وواحد آخر قال : إن أخته زوجة استاذ الشريعة فى الأزهر .. والثالث قال : أبى كان فى مصر ودفن فيها .. ثم قدموا لنا علب الحلوى .. والسجائر الإيرانية الرديئة .. منتهى الذوق .. وليس من الضرورى طبعا أن تشترى أى شئ .. ولكن هناك مشكلة ، تماما كالتى واجهتها فى هونج كونج .. فأنت لا تطلب شيئا إلا وجده لك البائع .. تقول : أريد قطعة من المـاس نصف قيراط .. موجودة : ثلاثة قراريط .. موجودة .. عشرة قراريط .. موجودة .. ولو قلت ١٨٢ قيراطا لقال لك موجودة فى متحف مجوهرات التاج فى طهران .. قالت سيدة : أريد قطعة من التركواز أزرق فى أخضر من التى يبيعونها فى الصين .

قال التاجر : يا سلام ياهانم .. عمرك أطول من عمرى .. أختى فى الصين .. وقد أرسلت لى هذه الهدية .. ثم أخرج قطعة التركواز المطلوبة .

فترد السيدة : آه حلوة جدا .. لكن عيبها أنها مشروخة قليلا .. أنظر ..

ياخسارة لو كانت أصغر قليلا .. ومدببة .. لأن المبططة تجعل الخاتم أكبر .. والموضة الآن هى الخاتم الصغير والحجر الكبير .. خسارة .

ويقول التاجر : فعلا خسارة .. لكن من أجل حضرتك وتشريفك هذا المحل لأول مرة لن استخسر فيك أى شئ .. عندى طلبك ياهانم .. نفضلى .

إنها قنبلة .. لقد عثر لها على الحجر المطلوب .. ولكن النساء قد أعتدن على مثل هذه القنابل فى البيع والشراء والمفاصلة والمحاورة والمداورة فإنها تقول : حلوة جدا .. بالضبط هذه هى التى أريدها .

ولكنها فى نفس الوقت تقلب فيها يمينا وشمالا .. ومن بعيد ومن قريب .. وفى الضوء وتخرج بها إلى ضوء النهار .. والبائع يعلم أن السيدة تبحث عن عيب لكى ترفضها .. يعلم ذلك جيدا .. وهى أيضا تعرف أنه يعلم ، ثم تعود بسرعة — وقد نظرت إلى قطعة من الياقوت أو الزمرد ..

والبائع ينتظر رأيها فتقول له : جميلة قوى .. ولكن حضرتك يجب أن تعرف أننى إذا وضعت هذا الحجر فى خاتم فى يد طفلة صغيرة بمناسبة عيد ميلادها .. سيكون مضحكا ..

فيقول البائع : إنه يصلح اسورة فى يدها .. أو عقدا فى عنقها .. أو يمكن الاحتفاظ به فى علبة ذهبية جميلة إلى أن تكبر ..

ويلاحظ أن السيدة قد وجدت السبب وتنتظر أى واحدة من النساء لتجئ فتخرج هى فى الزحمة .. فيقول لها البائع : سيدتى أنا لا أنصحك بشراء هذا الحجر .. فعندنا اسطورة شعبية تقول أن الحجر التركواز يمنع الحسد إذا كان صغيرا ، اما إذا كان كبيرا فإنه يلتقط الحسد .

منتهى الذكاء والرقة من البائع .. وبذلك تخرج السيدة دون أن تشترى .

أنهم فى هونج كونج اساتذة فى البيع .. ومن المستحيل أن تهرب من البائع الصينى .. تقول له : أريد ساعة صغيرة لطفل عمره ستة شهور .. يأتى لك بساعة بلا عقارب .. تدق فقط .. تقول : أريد ساعة لأم هذا الطفل .. أنها عمياء خرساء صماء .. فيأتى لك بساعة على شكل عقربة تلسع الأم فى أى مكان تضع الساعه فيه .

هذه البراعة فى البيع والشراء قد جعلت المدن والقرى المجاورة تكره أهل اصفهان .. قالوا عنها أنها كانت عبارة عن مدينتين أدمج بعضهما فى بعض .. واحدة من المدينة اسمها : جاى .. وفى هذه المدينة عاش اليهود الذين هربوا من الأسر البابلى .. أى من الملك بختنصر فجاء الملك كوروش العظيم وأعادهم إلى بلادهم .. أو أبقاهم فى هذه البلاد .. وتعلم أبناء اصفهان فن التجارة والإستغراق فيها من اليهود .. ولذلك فهم آناس فى حالهم .. وحالهم هو بيع الذهب .. أو بيع الناس للناس .. ولابد أن هذه المساجد كل مالها من قيمة هنا : أنها للسياحة فقط .. فكل الصناعات الصغيرة فى المدينة التصقت بالمساجد .. وأمامها ووراءها .. وكل الطرق التى تتجه إلى المساجد تؤدى إلى هذه الدكاكين الكثيرة .

والمدينة كان حولها سور طوله ١٥ خطوة وله ١٢ بوابة . وكان ذلك أيام الملك محمود الغزنوى .. وهو ملك يحب العلم والعلماء .. ولكنه يحب المنافقين له أيضا . أكثر الملوك يحبون ذلك وكان فى حاشيته عدد من العلماء، والعلماء يكرهون العلماء أيضا ويحتقرون الملوك وينافقونهم ومن أهم الذين ظهروا فى بلاط محمود الغزنوى العالم الفلكى الكبير أبو ريحان البيرونى. كانت الهند تحتفل بذكراه قبل حربها الأخيرة .

والبيرونى هذا كان عالما كبيرا .. وكان كارها كبيرا .. ولابد أنه هو المسئول عن الذى أصاب أمير شعراء ايران الفردوسى . فالفردوسى بعد أن الف كتابه الشهير « شاهنامه » أى كتاب الملوك ، توقع من الملك محمود الغزنوى أى يبعث له بمكافأة .. بهدية .. بأى قدر من المال .. فالشاعر قد كبر ومرض وكف بصره .. ولكن الملك لم يفعل .. ولذلك قرر الشاعر أن يهاجر من بلاده .. وخرج من مدينة طوس .. وقرر أن ينتحر .. ثم عدل عن الانتحار حتى لا يكون موته سببا فى سعادة الملك وحاشيته من العلماء والمنافقين . . ولكن واحدا من حاشية الملك تشجع وقال له : يامولانا .. أن الفردوسى يموت جوعا .. وهو ليس فى حاجة إلى طعام .. كلمة منك أمتع من أى طعام .

وقرر محمود الغزنوى أن يبعث للفردوسى بهدية .. أرسل له جملا محملا بالهدايا .. بالفلوس والحرير والآنية .. ووراء الجمل سار عدد من حراس الملك .. وأمام الجمل أناس يدقون الطبول إعلانا لهذه البشرى العظيمة والرضا السامى .. ومن الغريب أن أحدا من الناس لم يلتفت إلى رجال الملك .. بل إن رجال الملك قد اعترضتهم جنازة .. وحاولوا تفريق الناس .. وأكراههم على الألتفات إلى اللفتة الملكية .. ولكن الناس لم يرفعوا عيونهم عن النعش .. لقد كان نعش الشاعر الفردوسى .

أهم مساجد مدينة أصفهان : المسجد الجامع .. أو مسجد الجمعة .. بنى فى القرن الرابع عشر .. وأدخلت عليه تعديلات كثيرة .. وملحق بالمسجد مكتبة بها مخطوطات أدبية وعلمية .. هذه المخطوطات أحرقها حسن الصباح شيخ الجبل أو زعيم الحشاشين فقد كان يستخدم الحشيش فى تخدير رجاله ثم إدخالهم إلى بعض القلاع التى فيها الفتيات العاريات والموسيقى واللبن الذى يجرى فى الأرض والخمر التى تنزل من السقف .. ثم يوهمهم بأن هذه هى الجنة .. ثم يلقى بهم خارج القلعة .. ويطلب إليهم أن يقتلوا فلانا من الملوك

فإذا فعلوا ادخلهم الجنة .. وإذا لم يفعلوا قتلهم جميعا .. وكانوا عادة يفعلون ..

أحرق المكتبة سنة ١١٢١ ويقال ان أثار النيران ما تزال موجودة .. ويقال من أيام الاسكندر الأكبر .. ويقال إن وراء كل هذه المساجد معابد للنار ، أى لعبادة النار على طريقة النبى زرادشت .

ولا يوجد أثر واحد فى أصفهان أو فى ايران كلها لم يقربه الاسكندر الأكبر « ؟ » ولم يحرقه تيمورلنك وهولاكو وجنكيزخان .. فهم جميعا همجيون — منتهى التعصب القومى .

ومن أهم المعالم أيضا قصر عالى كابو .. أو عالى قابو .. أو « القبو العالى» وهذا من اجتهادى فلم أجد أحدا يشرح لى معنى هذه التسمية ولا وجدت فى الكتب هناك أو عندما عدت إلى القاهرة .. وأن كان « القبو العالى » هو أقرب إلى شكل القصر الذى له مدخل عال .. على شكل قبو .. ومكون من سبعة أدوار .. وكان الملوك يجلسون فى الشرفات يتفرجون على الناس من فوق .. وهذا عيب الملوك لأنهم عادة لا يرون الناس إلا عن بعد .. ويبدو أن الناس من فوق شكلهم أصغر .. وملامحهم أتفه .. وهذا يريح الذين يرون كل شئ من فوق ويجعلهم يستشعرون بالعظمة مرة أخرى .. وأنهم فوق ، أى فى السماء ، أو من السماء .

وهذا القصر بناه الملك شاه عباس الذى حكم ايران ٤٢ سنة — الشاه الحالى يحكم ايران من ثلاثين سنة .. ولابد أن حرصه على حيويته وشبابه سيجعله يضرب الرقم القياسى فى الحكم فى العالم كله — والله أعلم .

وكان الملك وضيوفه يتفرجون من الشرفات على لعبة البولو .. ووراء القصر توجد مدرسة بها أطفال يلعبون نفس اللعبة .

وهذه المدينة عندما زارها الرحالة الإيطالى بيترو ديلافاله سنة ١٦١٧ قال : إنها أجمل مدينة فى العــالم .

ماركو بولو الرحالة الإيطالى قال : إن لنسائها أجمل بشرة فى العالم ..

أعترف بأنى لم أر واحدة لها هذه الصفات – الفتيات الصغيرات فقط .. خصوصا عندما يضحكن للنكتة النابية .

الرحالة الفرنسى ساردان عندما رأى اصفهان فى منتصف القرن السابع عشر قال : لا شوارع اصفهان ولا رجالها ولا كرم ملوكها ولا فاكهتها ولا قوة نسائها .. ولا شئ من ذلك فى العالم كله .

ولم نعرف أن كان رأيه أنه لا شئ من ذلك فى العالم كله بمعنى أنه يحب الا يكون فى العالم كله .. وأن الذى فى اصفهان يكفى العالم كله .. ولكن لابد أنه معجب بالمدينة وأن المكتبة الأهلية فى باريس تحتفظ له برسالة يقول فيها لأحد اصدقائه فى اصفهان : « أيام لا أنساها .. وكيف أنسى الليالى الدافئة والخمر .. وكيفا انسى الأصوات من وراء الباب .. إننى تعذبت كثيرا لأننى سمعت فقط .. ولم أر تلك الشفاة السحرية التى تقول أحلى الكلام » ..

لابد أن نساء اصفهان لهن صوت جميل .. وليس من الصدف أن يكون أبو الفرج الاصفهانى مؤلف كتاب الأغانى (٢٤ جزءا) قد سجل الشعر والغناء العربى بالكلمة والصوت وحركات الأصابع على الآلات الموسيقية .. أنه أيضا اصفهانى أو أصبهانى . .

وهذا القصر « القبو العالى » أو قصر الضيافة يبهرك إذا دخلته ولا يترك فى نفسك أى أثر إذا خرجت منه .. فهو ضيق وأمامه ميدان فسيح .. كأن الميدان تعويض عن الضيق الذى خنقك وعن السلالم الحلزونية التى دوختك . ولكن فى هذا القصر حدث أدبى عام .. فالفنان الذى رسم النقوش فى داخل القصر قد وقع بإمضائه ..

وهذا الفنان اسمه رضا عباس .. وهذا شئ جديد .. فلم يكن مألوفا

من أقدم العصور أن تعرف اسم الفنان الذى نقش أو المهندس الذى بنى . أن الهرم الأكبر قد بقى بلا توقيع من المهندس الذى أنشأه .

ولكن يظهر أن الايرانيين أو أن الملوك قصار القامة ، فالأبواب كلها صغيرة .. أو أن المهندس جعل الأبواب منخفضة حتى إذا دخل الناس على الملك انحنوا — الفرنسيون فعلوا نفس الشئ فى مقبرة نابليون فى باريس .. فالمقبرة تحت والناس ينظرون إليها من فوق .. انهم يقفون أعلى من المقبرة . هذا صحيح ، ولكن لكى يروها لابد أن ينحنوا .

وفى اصفهان « مسجد الشاه » .. وفى منطقة من المسجد اسمها « السليمانية » لا أعرف معناها .. ولم أجد احدا يشرح لى معنى هذه الكلمة .. وفيها حجر . هذا الحجر تقف عليه الشمس الساعة ١٢ من كل يوم صيفا وشتاء .. ولابد أن تقف عليه .

ومن أهم مساجد اصفهان : مسجد الشيخ لطف الله .. المسجد تحفة فى العمارة والزخرفة .. وليس له نظير فى كل ايران .. هذا المسجد أنشأه أيضا الملك شاه عباس .. أما الشيخ لطف الله هذا فرجل لبنانى من الشيعة .. ترك بلاده وجاء يعيش فى مدينة مشهد بايران .. ودعاه الشاه سنة ١٦١٢ ، ولما توفى الشيخ لطف الله اطلق اسمه على هذا المسجد وهذا المسجد خاص بالملك .. وهو فى مواجهة قصر الضيافة .. ولذلك فالمسجد ليست له مئذنة لأنه لا يدعو أحدا للصلاة . . وإنما الذين سوف يصلون موجودون فى داخل المسجد .. والمسجد له مدخل عبارة عن ممر ضيق .. تمشى فيه بالجزمة أيضا . ثم تدخل إلى قاعات صغيرة للصلاة والنقوش على الجانبين تحفة .. والألوان الزرقاء غالبة على كل شئ .. وفى نفس الوقت مريحة للعين .. والذى صمم المسجد اسمه الاستاذ محمد رضا اصفهانى . وهو لم ينس نفسه فقد كتب أيضا على أحد الجدران : الفقير إلى الله تعالى والمحتاج إلى رحمته ورضاه . محمد رضا ابن الاستاذ حسين الذى انشأ اصفهان » .. أما المسجد نفسه فليس فيه واحد

يوحد الله .. لا صلاة .. لا سجاجيد .. لا حصر .. على الأرض .. لا ماء ولا حنفية .. لا أحد يصلى .. ولم أفهم .. ولا أجد احدا يقول لى شيئا عن ذلك .

إنهم فى اليابان حلوا مشكلة الذهاب إلى المعابد بأن أقاموا نماذج صغيرة للمعابد فى بيوتهم .. يتوجهون إلى هذه المعابد الترانزستور ويصلون .

ويقول الناس عن أهل أصفهان أنهم بخلاء وأنهم غارقون فى الذهب . ولو صنع الذهب عجلا . لخروا ساجدين .. وأعتقد أن هذا النوع من الحقد .. حقد المدن على المدن الأخرى .. كما يحقد الفلاحون على الصعايدة .. أو الصعايدة على البحاروة . . انهم فى ألمانيا يحقدون على سكان مدينة تبينجن . فهذه المدينة جامعية .. وهى حريصة على أن تكون نموذجية للذين يطلبون العلم . ولذلك لا توجد بها مواصلات من أى نوع لا سيارات ولا عربات ولا ترام ولا قطارات الناس جميعا يمشون على أقدامهم . أى لا ضوضاء هذه المدينة كان يعيش فيها الفيلسوف هيجل والشاعر هيلدرلن وتقع فى واد أخضر جميل .. وبعد هذا الوادى تجد الجبال والغابات وفى هذه المدينة نهر صغير كان يقع عليه البيت الذى عاش فيه ومات الشاعر الألمانى هيلدرلن (عاش ٨٠ سنة) أربعون منها فى مستشفى الأمراض العقلية . وأهل هذه المنطقة يسمون سكان تبينجن بالمصريين . أى أنهم ليسوا ألمانا . وإنما مصريون . وهم بهذا لا يكرمونهم وإنما يسخرون منهم . لماذا ؟ لأن أراضيهم خصبة ونهرهم يجرى كأنه النيل . انه حقد المدن بعضها على بعض . حقد سكان الجبال القاحلة ، على سكان الوديان الخصبة .

وكذلك يقولون عن أهل أصفهان أنهم من اليهود . أى مشكوك فى نسبهم ، وأنهم من أصل فارسى .

وفى أصفهان قصر اسمه قصر « الأربعين عمودا » .. إن هذه الأعمدة ليست أربعين وإنما عشرون فقط .. ولكن إذا انعكست فى حمام السباحة

الذى أمام القصر أصبحت أربعين ربما كان هذا هو السبب . لأن كلمة « أربعين » فى اللغة الفارسية معناها الكثير .. فنحن نقول فلانا هو ابن ستين فى سبعين .. أو تقول : أنا قلت لك ستين مرة .. وهم فى إيران يستخدمون « الأربعين » للدلالة على الكثير ..

ومن أهم عجائب أصفهان المسجد الذى له مئذنتان ترتجفان . المسجد اسمه « منارة الجنبان » . المسجد له قصة غريبة .. إذا أنت وقفت فى مئذنة وهززتها بيدك اهتزت المئذنة الأخرى .. أو إذا وقفت على مئذنة المسجد ووضعت كوبا من الماء فى المئذنة الأخرى اهتزت .. واهتز الزيت الموجود فى القناديل . والعلماء والأثريون الأجانب الذين جاءوا إلى هذه المنطقة لم يجدوا تفسيرا علميا لذلك . واستراحوا إلى أن الناس يقولون أنها معجزة الشيخ الكلاردانى .. هذا الشيخ راهب أو درويش اسمه عم عبد الله الكلاردانى جاء إلى أصفهان أيام المغول أى فى أوائل القرن الرابع عشر . ويقال أن الرجل جاء هاربا من الناس . فماذا فعل ؟ هرب من الناس إلى الناس وقد ظن أن الناس فى أصفهان من طينة أخرى .. وظن أن المساجد تطهر الناس وتذكرهم بالله ولكن لم يعرف عنهم نسيان المسجد والإنشغال عن الآذان ..

يقول الشاعر سعدى : إذا غسلت الكلب فى المحيطات السبعة ، فسوف يخرج منها أكثر قذارة . وإذا ذهب الحمار الذى ركبه المسيح إلى الكعبة ، لعاد الحمار حمارا ..

وقد بنى هذا المسجد سنة ١٣٢٦ ودفن فيه هذا الراهب .. واهتزاز المئذنتين معناه أن الرجل ما يزال يقول : لا — وهو تحت التراب —— لا خير فى الناس .. لا خير فى هذه الحياة .

ان الجامع المرتجف هو معجزة الرجل الطيب المدفون تحته .. إنه مثل برج بيزا فى إيطاليا ومثل قبة كنيسة القديس بولس فى لندن .

وعلى مدى ساعة من أصفهان توجد مصانع الحديد والصلب التى أقامها الاتحاد السوفيتى وشاه إيران حريص على كل الأطراف : فتسليح الجيش أمريكى ومشية الجيش هى مشية الأوزة النازية ومصانع السيارات معظمها ألمانى وأمريكى وروماني وياباني ..

ومن أهم معالم أصفهان – التى ليست مثل ألف ليلة وليلة كما يتوهم الناس – كنائس الأرمن ومقابرهم أيضا . ومن أهم مقابر الأرمن مقبرة شخص سويسرى اسمه جاكوب روسو . مكتوب على قبره : جاكوب روسو صانع ساعات سويسرى .. عاش ٧٤ سنة منها ٤٨ سنة فى مدينة أصفهان . توفى يوم ٢٩ مارس سنة ١٧٩٣ ..

هذا الرجل هو عم الفيلسوف الفرنسى السويسرى أيضا : جان جاك روسو .

وأمام فندق الشاة الجديد وقفت أشترى بعض الكتب سقط منى واحد على الأرض فانحنيت طبعا لكى التقطه ومرت سيارة ووجدت فيها رجلا يابانيا ينحنى لى .. انه أخو امبراطور اليابان ظن أننى إنحنيت له فانحنى لى .. ولم يكن هذا قصدى .. على كل حال لقد فعل مئات اليابانيين ذلك من أجلى ..

ولو عاد الأمير مرة أخرى لفعلت له ذلك خصوصا أنه أيضا يحب الكتب..

الفندق الجديد تحفة فى العمارة . وكل شئ قد أضيف إلى الفندق القديم . المدخل والقاعات وقاعة الطعام ودورة المياة . والسخانات والمجففات للأيدى وللشعر ..

أما الحديقة الجميلة والنافورات البديعة وسط الورود فما يزال فيها رجال الحرس الملكى .. لأن الملوك والرؤساء قد هربوا من البروتوكول وانطلقوا فى الطائرات بين جوانب إيران ووراءهم البوليس السرى . وكل مرافق للملك أو رئيس دولة قد وضع على صدره زرارا أحمر .

هذا الزرار عبارة عن جهاز إرسال يلتقطه جهاز استقبال يحمله أحد رجال الحرس الملكى وهكذا يستطيع أن يعرف بالضبط وبمنتهى الدقة تحركات الحارس والملك ورئيس الدولة ليلا ونهارا .

وفى السوق الجديد وجدنا مصورا يعرض أعماله الفنية ومعها رسائل من تشرشل وروزفلت وستالين أيام انعقاد مؤتمر طهران سنة ١٩٤٣ ..

ورغم هذه الخطابات فإن الفنان ليس كبيرا وليست له تلك الزوايا الفاتنة .. ولا القدرة على توزيع الضوء والظل .. أى على إبراز الشخصية وتعميقها وإقناع الناس بها ولعله ليس فى حاجة إلى الأبعاد لأن الناس قد اقتنعوا بهؤلاء الثلاثة وبأنهم خربوا الدنيا على رؤوس من فيها مع الأسف لم أجد عنده صورة لهتلر وسولينى ..

ولم أتمكن طبعا من متابعة أخبار الدنيا فالراديو يتكلم بالفارسية فيما عدا راديو الأهواز الذى يشتم العراق بالعربية أما الصحف ففارسية طبعا .

وإن كانت هناك صحف إنجليزية .

هذه الصحف ليست فى متناول كل الناس .. وبالقرب من باعة الصحف نجد باعة الفستق .. واللوز والجوز والبندق المقشر .. لابد أنهم هنا يقولون عن الشئ الكثير الرخيص : انه كالفستق .. تماما كما نقول كالأرز .. أو نزلت عليه النعمة كالمطر ..

فالفستق هنا ممتاز .. ورخيص أيضا .. وموجو فى كل مكان . وعندما اشتريت بعض الفستق مددت يدى على آخرها للسائق فمد أطراف أصابعه وأخذ حبتين أو ثلاثا .. هنا فقط تنبهت أن الفستق له معنى خاص عندى أنا .. أما السائق فلا يرى ذلك .. الفستق عندهم كاللب الأسمر عندنا .. لا أحد يتحمس له عندنا ، ولا أحد يتحمس للفستق عندهم .. أذكر أننى عندما ذهبت إلى دار الأوبرا التى اتخذت اسم الشاعر الإيرانى « رودكى » ..

انها تحفة فى العمارة والإناقة والإضاءة .. كان الجرسونات يمرون علينا أثناء الاستراحة .. بالسندوتشات الصغيرة والمشروبات الكحولية ، وعصير البرتقال والطماطم .. وكان الإيرانيون يأكلون السندوتشات . أما الأجانب وما أكثرهم فقد اتجهوا إلى الفستق .. جبال الفستق ، يملأون أفواههم وجيوبهم. انه فستق متفتح .. فستق مثقف ..

يقول الشاعر سعدى : ان الماء ترعة صغيرة والإنفاق ساقية ترفع الماء فإذا كانت مواردك كبيرة فاجعل سواقيك كبيرة أيضا ..

وسواقى إيران أكبر من الفستق والكافيار والخيام الأنيقة .. وكلما تعلم الناس فى إيران استطاعوا أن يعرفوا إن كانت السواقى أكبر من القنوات أو أن القنوات أصغر من السواقى ..

وإن كان من الضرورى أن ينفقوا ما فى القنوات على الحفلات .. أو أن الحفلات هى التى تملأ القنوات وتدير السواقى بفلوس السياح من جميع أنحاء الدنيا ؟ .

إيران مساحته مليون كيلو متر مربع .. وبها خمسون ألف قرية .. وحول هذه القرى خمسون ألف كومة أو « كبشة » من الناس يطلقون على أنفسهم : قرية أيضا . ومطلوب تعليم هؤلاء الناس .

تعليمهم أن يأكلوا ويشربوا ويزرعوا أحسن وينتجوا أفضل . مطلوب ثورة لمحو أمية ٨٠٪ من الشعب الإيرانى (٣٠ مليون نسمة) . ولذلك يجب أن يصل العلم إليهم إما أن يذهبوا فى طلب العلم ، أو يذهب العلم إليهم ، إما أن يذهبوا فى طلب العلم ، أو يذهب العلم فى طلبهم .

أن ينتقل الجبل إليهم أو ينتقلوا هم إلى الجبل ..

قررت إيران أن تنقل الجبل إلى الناس .. هذه هى البطولة .. وهذا ما يجب أن يفعله كل شعب غير متعلم .. أو فيه أغلبية أمية .. مصر مثلا .

إيران بها ثمانى جامعات .. ثلاث منها فى طهران والخمس الباقية فى : أصفهان وشيراز وتبريز والأهواز ومشهد . وبها أيضا أكثر من مائة معهد للدراسات العليا .. وعدد طلبة المعاهد العليا أكثر من مائة ألف ..

ولكن أهم ما تفعله إيران هو محو الأمية . وهى تجربة استحقت إعجاب العالم كله . وقد تبنت اليونسكو هذا المشروع .. وهذا ما درسه الوزراء فى الإسكندرية أخيرا ..

وعندما ذهب شاه إيران إلى جامعة هارفارد فى أمريكا فى يونيو سنة ١٩٦٨ دعا العالم إلى مشروع محو الأمية : تعالوا لأول مرة نؤلف جيشا دوليا هدفه الإنتصار على أعداء الإنسانية : الفقر والجهل والظلم الإجتماعى . دعو التاريخ والأجيال تشهد بأن السلاح الذى فى خدمة البشرية أن يتجمعوا ليدوى نشيدهم الروحى فى أسماع الملايين دعوا المشعل الإلهى يتوهج بأنوار التضحية حتى يتمزق الظلم والفوارق بين الطبقات :. دعوهم يرددون ما قاله الشاعر سعدى :

وإن كنت للإنسان لم تتألم   فكيف سميت نفسك إنسانا .

أما مشروع « جيش التعليم » فهو أن محو الأمية فى الريف لا يحتاج إلى مدرس قد تخرج فى الجامعة . وإنما الحاصل على التوجيهية يكفى جداً . وحتى لا يكوى محو الأمية مبررا للفرار من الجندية أو الخدمة العسكرية . فإن هؤلاء الشبان يتدربون على حمل السلاح أيضا وعلى الإسعافات وعلى زراعة الأرض .. وعلى بناء البيوت . والسنوات التى يقضونها فى الريف تعتبر خدمة عسكرية .. وهؤلاء الشبان لهم ملابس خاصة .. شبان وشابات . وهم يذهبن بعشرات الألوف إلى القرى النائية فى الريف وفى الصحراء وفى الجبال . ليست هناك أية مشكلة .. فهم يعلمون الصغار والكبار فى أى مكان .. فى الحقل .. تحت خيمة .. فى غرفة .. فوق السطوح . يجمعون الأميين حول شجرة .. الشجرة تعلقت فيها « السبورة » ويعلمون

الفلاحين فى الحقل .. ومن الطبيعى أن يقاوم الفلاحون هذا الغزو .. هذا الرعب .. ولكنهم بعد ذلك يستسلمون .. ويتطوعون لإقامة البيت أو المدرسة . ويتكفلون بإطعام المدرس الشاب .. هذا المدرس يقيم وحده .

أما الفتيات فهن يقمن بالتدريس فى القرى القريبة من المدن .. الفتاة أمانة فى عنق أهل القرية .. انها أخت الجميع .. كانت القرى تقاوم .. ولكنها استسلمت .. الفتاة ترتدى زيا خاصا . إنها تعلم المجتمع القراءة والكتابة والإسعافات الأولية وتحسين الزراعة وتربية الطيور .. وهى صديقة الأمهات .. فإذا عادت الفتاة إلى المدينة فى أجازة سنوية ، خرجت القرية كلها وراءها حتى يصل الأوتوبيس الذى ينقلها إلى المدينة ، وقد ارتدت زى جيش التعليم الذى هو شرف لها .. ومدعاة لكى يحترمها الناس .

قال لى أحد مديرى جيش التعليم فى طهران أنه كان يقوم بجولة تفتيشية على بعض هذه القرى . ووجد إحدى فتيات جيش التعليم تقف فى الطريق الزراعى فى انتظار الأتوبيس .. فتوقف بسيارته . وطلب إليها أن تركب معه لكى يوصلها .. ورفض أهل القرية .. وهجموا عليه وكادوا يحطمون سيارته .. ولما سألهم عن السبب قالوا : إنها إبنتنا وشرفنا .. وهى أمانة فى أعناقنا ..

وحاول أن يقنعهم بأنه مدير جيش التعليم وأنه هو الذى أصدر هذا القرار .. ثم أطلعهم على بطاقته الشخصية .. وحاول السائق والفتاة أن يقنعاهم . . واقتنعوا وركبت الفتاة .. وعادت إلى المدينة ..

سمعت أيضا أن الأمبراطورة فرح تلقت رسالة من فتاة تطلب إليها سلفة لكى تتمكن من بناء غرفة لتكون مدرسة لأبناء القرية . وقالت الفتاة أن والدها غنى وكان فى استطاعتها أن تطلب منه ، ولكنها لو طلبت من والدها لرفض لأنه غير راض عن ذهاب إبنته إلى الريف .

وأرسلت الأمبراطورة مبلغا من مالها . وأقامت الفتاة الفصل الأول فى المدرسة ، ولما انتهت سنوات خدمتها فى الريف ، رفضت العودة إلى المدينة وتزوجت أحد أبناء القرية .. أحد تلاميذها .

وهناك مكافأة أخرى تنتظر جنود التعليم . فالدولة تعتبر سنوات محو الأمية هذه نوعا من الخدمة العسكرية الوطنية فى الدرجة الأولى ، ويصبح من حق كل جندى أن ينتسب للجامعة التى يريدها . وله الأولوية على غيره من الطلاب . معظم هؤلاء الجنود الحاصلين على التوجيهية ذوى المجاميع المتوسطة . وهذا معناه : أن الجامعات فى إيران – وفى كل الدنيا – لا يدخلها إلا أصحاب المجاميع الكبيرة . ومعناه أيضا أن الحاصلين على مجاميع متوسطة لا يتسكعون فى الشوارع ، وإنما يذهبون إلى الريف – مع عظيم الاحترام والإمتنان – يعلمون اخوانهم المواطنين . وليس بعد العلم ولا قبله شئ يؤدى إلى بناء الدولة العصرية والدولة فى كل عصر .. ولا فرق بين فتى وفتاة بين ابن الأمير وابن الخفير .. فعندنا ألوف القرى فى مصر أيضا .. وعندنا ملايين الأميين وكل واحد من هذه الملايين هو عقبة فى سبيل مصر .. وهو فى نفس الوقت ، إذا تعلم : مصباح فى طريق التحرر من الجوع والجهل والخوف ..

إن عندنا جيوشا من الشبان لا عمل لهم إلا المشى فى الشوارع .. إن مجالات العمل لا حد لها .. وضرورة العمل ليست فى حاجة إلى خطيب وإلى شعارات .. عندنا هذه الحقيقة المؤلمة : أغلب المصريين أميون .. لا يعرفون القراءة والكتابة وهذه حقيقة معروفة فى العالم .

هذا هو العمل : جيش التعليم .. جيش أولا له كل قواعد وأصول الضبط والربط يحمل السلاح .. والنور أقوى سلاح ..

يقول الشاعر سعدى : ليس المهم أن تحمل الشعلة لتضئ للآخرين بل يجب أن ترى أنت أيضا .. لقد أضاءت إيران للعالم كله الطريق إلى ماضيها وكانت الأضواء باهرة باهظة .. ولكنها أيضا أنارت كل الطرق إلى حاضرها. وإلى ما أنفق من أجل الذين لم يرو النور .. ملايين الملايين فيها .. وفى كل مكان ..

*   كتب السلسلة الأولى   *

الكتاب	المولف
- عودة الوعى .	توفيق الحكيم .
- خريف الغضب .	محمد حسنين هيكل.
- سنة ثالثة سجن .	مصطفى أمين .
- الملك فاروق وعلاقته بألمانيا النازية .	وجيه عتيق .
- أعجب الرحلات فى التاريخ.	أنيس منصور .
- مواقف.	أنيس منصور .
- قوة الخفاء .	أنيس منصور .
- المختار من القصص العالمية .	مكتبة الاسرة بمصر .
- الرعاية الطبية والتأهيليلة من منظور الخدمة الاجتماعية .	عميد معهد الأسكندرية " أبراهيم عبد الهادى " .
- كتاب تاريخ موجز لزمن "من الأنفجار الكبير الى الثقوب السوداء "	ستيفن هوكنج .

مع تحيات
جدران المعرفة
Theknowledge_walls@yahoo.com